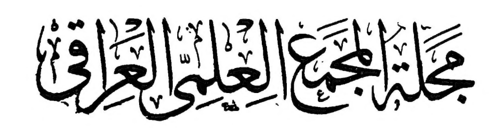
الجزء الاول المجلد الخامس والثلاثون





ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ
كانون الثاني ١٩٨٤ م







ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ
كانون الثاني ١٩٨٤ م



الوصف بالمصدر

الدكتور



(عضو المجمع)

بسم الله الرحمن الرحيم

لا بد بين يدي هذا البحث من بيان ما يراد بالوصف وما يراد بالمصدر في هذا المقام على وجه التحديد .

فالمصدر على كل حال أصل ، وإن اختلف أهل العربية في أمر أصالته ، إنه الأصل الذي يشتقّ منه الفعل وغيره من الأسماء المشتقة كاسم الفاعل واسم المفعول وما يعرف بالصفة المشبّهة واسم التفضيل واسمَي الزمان والمكان . واختلاف النحاة (١) في أمر أصالته اختلاف لا يتعلق بواقع حاله ، فهو في الحقيقة المادة الأولى التي منها يصاغ الفعل وغيره ، لأنه من جهة اللفظ أبسطها شكلاً وأقلها حروفاً ، بل إنه يشتمل أساساً على الحروف التي يبني عليها الفعل وغيره في صورة ليس فيها تعقيد ولا زيادة .

إن هذا المعنى واضح أشد ما يكون الوضوح إذا ارتضينا المقولة التي تذهب إلى أن صيغة فَعِل بفتح فسكون أو ضمّ فسكون أو كسر فسكون هي أصل

---

(١) يذهب الكوفيون إلى أن الفعل هو الأصل وأن المصدر مشتق منه ، ولكل من الكوفيين والبصريين حججه التي احتج بها يراجع كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري ج ١ ص ١٤٤–١٥٢

مصدر الفعل الثلاثي أياً كان بابه : نَصْر ، ضَرْب ، فَتْح ونحو ذلك . وليس المراد بالمصـــدر هنا اسم المعنى المجرد من مداول الزمان . فذلك تجريد يلحق به بعد مراحل من اشتقاق الأفعال والأوصاف منه . وإنما القصد إلى اسم الحدث في بساطة ووضوح قريباً غير بعيد في دلالته عن اسم الذات الذي يحتمل أنه اسم : الحدث قد انتقل منه ، وغير منعزل عن معنى وقوع الحدث الذي يفهم من صيغ الأفعال وهي دالة على معنى الزمن مطلقاً أو مقيداً معيناً . ذلك أن التوافق بين لفظ اسم الذات واسم المعنى في كثير من المواد اللغوية يدل عند طائفة من الباحثين على أن الأصل هو اسم الذات ثم شوهد يتحرك أو يحدث منه أي فعل فنقل بلفظه أو بقريب من لفظه إلى معنى اسم الحدث . يلاحظ ذلك في مثل لفظ « كَتْب » بمعنى القيد المادي واشتقاق الفعل منه « كتب » بمعنى قيّد ثم انتقاله إلى الدلالة على القيد المعنوي . ثم تحوله إلى لفظ الكتاب والكتابة .

على أن صوغ الفعل من اسم الذات سائر سائغ يقال تحجر من الحجر ، ورمل وترمّل من الرمل .

والمراد بالوصف هنا معنى أعم مما يرد إلى الذهن حين يطلق عند النحاة . فالوصف المقصود هنا هو كل ما ينسب إلى اسم الذات أو اسم العين مما يوضح صفته أو يسمه بسمة تزيد في توضيحه وتقرب إدراكه إلى التصور . يكون ذلك على سبيل الإسناد تارة ، ويسمّى الوصف حينئذٍ خبراً نحو « زيدٌ عالم » . ويكون تارة على سبيل وصف الهيأة نحو « جاء زيد مسرعاً » فيقال له الحال . ثم يكون على سبيل النعت أي الوصف المشتمل على الموصوف اشتمال مطابقة وتبعية نحو « هذا زيدٌ العالم » .

هذا في الأسماء .

وإن الأفعال لتوصف ، فيتّجه النحاة إلى توجيه الوصف إلى من قام

بالفعل تارة وهو الفاعل ، أو إلى اعتساف سبيل لا لاحب ولا قويم تارة أخرى فيعدّون ما يصف الفعل مفعولاً يسمونه المفعول المطلق . وهو في الحقيقة ليس بمفعول ولا مطلق .

يقال مثلاً « سار زيد سيراً حثيثاً » أليس « سيراً حثيثاً » وصفاً للفعل ؟ إن النحاة يسمون ذلك وما أشبهه أو قاربه المفعول المطلق . وهم يزعمون أنه هـو مفعول الفعل حقيقة . وأين منـه معنى المفعولية على وجـه التحقيق ؟ ! ويقال مثلاً « حضر زيد فجأة » . أو ليس فجأة وصفاً للفعل أي للحضور ؟ إنهم يزعمون أنه حال توصف به هيئة الفاعل وهذا المعنى أبعد من معنى وصفه للفعل . وفي ذلك مقالة ابن مالك :

ومصدر منكّر حالاً يقع بكثرة ك « بغتة زيد طـلع »

كل ذلك حتى لا يقولوا إنه وصف للفعل لأن الفعل في حكمهم لا يوصف . وذلك حكم لا أساس له ولا سند .

إن الفعل ليوصف، وإنه ليؤكد ويبيّن ، فيكون وصفه أو توكيده أو بيانه مستحقاً لمرتبة في الاعراب يسمّيها نحاة الكوفة مرتبة الخلاف وهي النصب ، ذلك لأن الوصف والبيان والتوكيد تصلح مع الاسماء للتبعية ، ولكنها مـع الأفعال لا تصلح لذلك لاختلاف طبيعتها — وهي أسماء — عن طبيعة الأفعال وهي التي يشتمل معناها على الحدث مقترناً بزمن معين .

ثم إن الفعل قد يؤكد وقد يبين إذا جيء لتوكيده أو لبيانه بفعل مثله ، ذلك نحو قوله تعالى (ومن يفعـل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العـذاب يوم القيامة ...) الآية (٢) .

ونحو قوله عزّ وجل (أمدّكم بما تعلمون أمدّكم بأنعام وبنين) (٣) .

(٢) الفرقـان الآيـة ٦٨ .

(٣) الشعراء الآيتـان ١٣٢ ، ١٣٣ .

— ٢ —

ومهما يكن من شيء فإن الوصف بالمصدر حقيقة من حقائق التركيب في اللسان العربي أقرّ بها علماء العربية إقرار المذعن لايملك تجاه حقائق الواقع إنكاراً ولا هرباً ولا مكابرة .

قال ابن مالك :

ونعتوا بمصدر كثيراً   فالتزموا الإفراد والتذكيرا

ولكن الذين شرحوا الألفية من بعده لم يسلّموا بهذه الحقيقة إلا مقيّدة مشوبة بكثير من التحفظ . فقالوا : بل قال أكثرهم إن الوصف بالمصدر على خلاف الأصل . والأصل هو الوصف بالمشتق (٤) .

وقال ابن مالك :

وانعت بمشتقّ ك« صعبٍ وذَرِب»   وشبهه «كذا وذي والمنتسب »

وكان حق المصدر عند اكثرهم أن لا يوصف به ، لأنه — في دعواهم — جامد غير مشتق ولكنهم تجاهلوا أنه هو أصل المشتقات في ما ذهب إليه نحاة البصرة وأنه مشتق من الفعل في مذهب أهل الكوفة ، فلا يصح والحالة هذه أن يلحق بالجوامد من الأسماء ، تلك التي تستحق هي أن توصف حتى تتضح بالوصف صورتها ويتجدد به معناها ، لا أن يوصف بها أشباهها من الأسماء .

— ٣ —

إن جوهر معنى الوصف أو مادته الأولى — كما نقول في هذا العصر — موجود في المصدر . فإن معنى الحدث بسيطاً غير مركب مع معنى الزمن المعين أو معنى الذات — هو معنى المصدر ، وهو الذي يصح أن يخلع على أسماء الذوات كما يخلع الثوب على لابسه فيحدد معالم جسمه ويوضح جوانب

(٤) حاشية الشيخ محيي الدين عبدالحميد على شرح ابن عقيل ج ٢ ص ٢٠١ .

صورته وهو في هذه الحالة ثوب فضفاض ، قابل لكل ما يصلح للتوليد منه والحمل عليه . إذن فالوصف بالمصدر ليس على خلاف الأصل ، لأن المصدر هو الأصل .

ومن المفيد هنا أن نُلِمّ بطائفة من أقوال النحاة في تفسير هذه الظاهرة التي هي عندهم خروج عن وظيفة المصدر وعدوان على وظيفة ما يشتق منه من صيغ الوصف . وكل أقوالهم يمكن أن يُرَدّ إلى أمر أساسي واحد هو خلو المصدر من الدلالة على معنى الذات ، ذاك المعنى الذي يسوّغ أن يجعل منه وصفاً لاسم الذات .

يقول الأشموني : « ونعتوا بمصدر كثيراً وكان حقه أن لا ينعت به لجموده ، ولكنهم فعلوا ذلك قصداً للمبالغة أو توسعاً بحذف مضاف ، فالتزموا الإفراد والتذكير تنبيهاً على ذلك فقالوا : رجل عدل ورضا وزَوْر وكذا في الجمع ، أي هو نفس العدل أو ذو عدل ، وهو عند الكوفيين على التأويل بالمشتق أي عادل ومرضي وزائر » (٥) .

وهذا يكاد يكون مذهب من بأيدينا آثارهم من علماء العربية ومحلّ اتفاقهم في هذه المسألة . إلا أن ابن يعيش ، في شرح المفصل ، يزيد على ذلك فيتّجه بالمسألة وجهة بلاغية ، فيذهب في ذلك إلى تأويلها تأويلاً مجازياً من باب إسناد الوصف لما ليس له . يقول : ويجوز أن يكونوا وضعوا المصدر موضع اسم الفاعل اتساعاً ، فعدلٌ بمعنى عادل ، وماء غور بمعنى غائر ورجل صوم وفطر بمعنى صائم ومفطر ، كما وضعوا اسم الفاعل موضع المصدر في قولهم قم قائماً أي قياماً واقعد قاعداً أي قعوداً (٦) .

وهذا هو الذي يعرف بالمجاز العقلي .

---

(٥) شرح الأشموني ج ٣ ص ٦٦ .

(٦) شرح المفصل لابن يعيش ج ٣ ص ٥٠ .

وممن اتجه بهذه المسألة وجهة بلاغية الصبّان في حاشيته على شرح الأشموني لألفية ابن مالك . فهو حين يعقب على دعوى عدم الاطراد في الوصف بالمصدر . يرد على تلك الدعوى بأن وقوع المصدر نعتاً أو حالاً إنما هو على المبالغة أو المجاز بالحذف إن قُدِّر المضاف . أي إن زُعِم أن في قولنا « زيدٌ عدل » مضافاً محذوفاً هو ذو أو ما يشابهها .

« أو على المجاز المرسل الذي علاقته التعلق إن أوّل المصدر باسم الفاعل أو اسم المفعول (٧) . ثم يقرر في هذه المسألة أمراً ذا قيمة وذا أثر فيها وفي كثير غيرها من مسائل النحو إذ يقول : « وكل من الثلاثة مطرد كما صرّح به علماء المعاني ، اللهم إلا أن يُدّعى اختلاف مذهبي النحاة وأهل المعاني . أو أن المطرد عند أهل المعاني وقوع المصدر على أحد الاوجه الثلاثة إذا كان غير نعت أو حال كأن يكون خبراً نحو زيد عدل » (٨) . أ . ه .

إن هذا الذي أوردنا من آراء أهل العربية يمكن أن يصل بنا إلى نتائج ثلاث : الاولى أن الوصف بالمصدر أمر مطرد يصح أن ينتهج نهجه وأن يسلك سبيله ، وليس بمقصور على السماع كما ذهب إلى ذلك جماعة من المتأخرين

الثانية أن الوصف بالمصدر يجري على المألوف في المجاز ، وهو جواز اللفظ معناه الأصلي إلى معنى يجاوره ويتعلق به ، إما مجازاً مرسلاً وإما مجازاً عقلياً .

الثالثة إيماء الصبّان في ما سلف نقله من كلامه إلى وقوع المصدر خبراً ، حيث يطرد عند أهل المعاني وقوعه على أحد الأوجه الثلاثة التي ذكرها : إما حذف المضاف ، وإما المجاز المرسل الذي علاقته التعلق ، وإما المبالغة وهي

(٧) حاشية الصبان على شرح الأشموني ج ٣ ص ٦٦ .

(٨) نفسه . وهذه الإشارة إلى إدعاء الاختلاف بين مذهبي النحاة وعلماء المعاني تنبئ عن وقف سليم من علاقة المعاني بالنحو لأنها معاني النحو .

أيضاً ضرب من ضروب البيان وفن من فنون البلاغة .

ومن الملاحظ المهمة في هذا الباب تنبيه النحاة إلى أن المصدر الذي يصح أن يقع وصفاً هو الذي لا يكون في أوله الميم الزائدة وهو المسمى بالمصدر الميمي نحو مزار ومسير « فإنه لا ينعت به لا باطراد ولا بغيره » (٩) . وعلة ذلك في ما يبدو أنه حينئذٍ يمعن من الاسمية قرباً ، ويبعد عن وظيفته الأصلية في الكلام وهي الدلالة على معنى الحدث مجرداً قابلاً لأن يقترن به ما يصح أن يقترن من لوازمه كالزمان أو ذات الفاعل أو ذات المفعول .

ولعل أكثر ما يرد للوصف هو المصدر الثلاثي بناءً من ثلاثة أحرف ، لأنه أبسط صور الألفاظ وأيسرها نطقاً وأطوعها لاستيعاب ما يقبله المصدر أو ما يدل عليه بالقوة — كما يقول أهل المنطق ، ولانه هو — وليس غيره كالرباعي والخماسي والسداسي — هو الذي يشتق منه ما يدعى بالوصف ولا سيما الصفة المشبهة واسم التفضيل .

أما مصادر الأفعال غير الثلاثية فلم يرد الوصف بها في المأثور من الكلام . ولعل علة ذلك أن مصادر تلك الأفعال إنما تصاغ من الفعل قياساً يقال أكرم إكراماً وتقدم تقدماً و استنصر استنصاراً ونحو ذلك ، فهي من هذه الجهة ليست مما يصدر عنه الفعل أو غيره من المشتقات . حتى كأننا حين نصوغ هذه المصادر من الافعال إنما نجرد الأفعال من معنى الزمن المعين فنأتي منها بأسماء للحدث اصطنعت لهذه الدلالة ليس غير .

ويلاحظ أيضاً أن المصادر الثلاثية في صيغتها البسيطة (فعل) بفتح فسكون أو بكسر أو بضم فسكون أو بحركتين متتاليتين تتلاقى صيغتها مع صيغ معروفة للصفة المشبهة كاللتين مثّل بهما ابن مالك للمشتق حين قال : وانعت بمشتقّ

(٩) شرح الأشموني ج ٣ ص ٦٦ .

كصعْب وذَرِب . إن هذا قد يشير إلى نقل المصدر – بعد تداوله في الوصفية تداولاً كثيراً – إلى التمحض للوصفية والخلوص لها بحيث لم يعد معنى المصدرية ملموحاً فيه .

ومثل هذا يقال في ألفاظ ترد مصادر لأفعالها تارة ، وترد جموعاً لما يشتق منها وصفاً دالاً على ذات الفاعل أو ذات المفعول مثال ذلك : قيام وقعود جمعاً لقائم وقاعد ومصدراً للفعلين قام وقعد .

ومما يحتمل في مثل هذه المصادر أن تكون جموعاً للمصادر الثلاثية الأحرف. فقعود جمع قَعْد ، وجلوس جمع جَلْس وقيام جمع قوم . وهذا من جهة القياس الصرفي أقرب إلى القبول لأن « فعولاً » جمع فعل وكذلك « فِعال » جمع لفعل . وليس من المألوف أن يكون فعول أو فعال جمعاً لفاعل ولا سيما حين يكون وصفاً لعاقل .

★ ★ ★

والوصف بالمصدر كثير في آي القرآن الكريم ، وهو يرد على سبيل النعت ، كما أنه يأتي خبراً ، ويأتي وصفاً للفعل أو بياناً له في مواضع كثيرة .

فمن أمثلة ورود المصدر نعتاً قوله تعالى :

(إن هذا لهو القصص الحق) (١٠)

(فتعالى الله الملك الحق) (١١)

(وقالوا هذه أنعام وحرث حِجر) (١٢)

(وجاءوا على قميصه بدم كذب) (١٣)

(فعسى ربي أن يؤتينِ خيراً من جنّتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح

(١٠) آل عمران الآية ٦٢ .

(١١) طه الآية ١١٤ ، المؤمنون الآية ١١٦ .

(١٢) الأنعام الآية ١١٥ .

(١٣) يوسف الآية ١٨ .

صعيداً زلقا) (١٤)

(لقد جئت شيئاً إمرا) (١٥)

(لقد جئت شيئاً نكرا) (١٦)

(ثم يردّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً) (١٧)

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) (١٨)

(وطهّر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) (١٩)

(فحاسبناها حساباً شديداً وعذّبناها عذاباً نكراً) (٢٠)

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) (٢١)

كل هــذه المواضع جيء فيها بالمصدر نعتــاً لإسمٍ مثلما يجــاء بالمشتق وما يشبهه نعتاً له . ولقد مرّ القول على توجيه أهل العربية لمثل هذه الأساليب . ذلك دعواهم أنها تارة على تقدير مضاف محذوف ، وتارة أخرى على التأويل بالمشتق ، أو أنها على سبيل المبالغة .

ومن ذلك قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) : « وصفت الموازين بالقسط وهو العدل مبالغة كأنها في أنفسها قسط ، أو على حذف المضاف أي ذوات القسط » (٢٢) .

ومن ورود المصدر وصفاً للفعل أو بياناً له قوله تعالى :

(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) (٢٣)

(فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً) (٢٤)

(وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلا) (٢٥)

---

(١٤) الكهف الآية (٤٠) .
(١٥) الكهف الآية (٧١) .
(١٦) الكهف الآية (٧٤) .
(١٧) آل عمران الآية (٦٤) .
(١٨) البقرة الآية ١٢٥ .
(١٩) الكهف الآية ٨٧ .
(٢٠) الطلاق الآيــة (٨) .
(٢١) الانبيــاء الآيــة ٤٧ .
(٢٢) الكشاف ج ٣ ص ١٣ .
(٢٣) آل عمران الآية ١٩١ .
(٢٤) النساء الآيــة ١٠٣ .
(٢٥) الأنعام الآيــة ١١٥ .

٢ ـ انواع الرأي المخالف : ـ

يكون الرأي المخالف على نوعين (الأول) أن يكون رأي الأقلية من القضاة مخالفاً لرأي الأكثرية في منطوق الحكم القضائي . فقد ترى الأكثرية من القضاة تصدق الحكم المطعون فيه لدى محكمة التمييز ، بينما ترى الأقلية نقض الحكم القضائي ، وفي محكمة الاستئناف قد ترى الأكثرية ان الحكم يجب ان يكون لصالح المستأنف وترى الاقليـة أن الحكم يجب ان يكون لصالح خصمه ــ المستأنف عليه ــ وهذا هو النـوع الاول للـرأي المخالف Dissenting Opinion وهذه المخالفة تكون في الاسباب وفي نتيجة الحكم القضائي (والنوع الثاني) أن يتفق قضاة المحكمة على تصديق الحكم او نقضه ولكنهم يختلفون في اسباب التصديق او النقض ، وفي هذه الحالة يصدر الحكم القضائي باتفاق الآراء بالتصديق او النقض ، ولكنه يصدر بالاكثرية بالنسبة الى تسبيب الحكم ، وهو ما يسمى بالرأي الموافق من حيث النتيجة فهو رأي مستقل موافق (٢) . Concurring Opinion

وتختلف النظم القانونية المعاصرة في هذه المشكلة ، فالبعض منها لا تسمح بالرأي المخـالف ، وتحرم على القاضي ان يدوّن مخالفته ، تأسيساً على أن المداولة في اصدار الاحكام القضائية سرّية ، فلا يجوز افشاؤها . لأن كتابة الرأي المخالف يدل على افشاء سرّية المداولة ، وحتى إذا صدر الحكم برأي الأكثرية ، فإنه ينسب الى المحكمة بكامل هيئتها ؛ فلا يدوّن في الحكم أنه صادر بالاتفاق او بالأكثرية . وبعض النظم القانونية الأخرى تسمح للقاضي ببيان مخالفته وتدوينها ، ولكنه لا ينطق بها ، بل تحفظ في اضبارة الدعوى

(٢) محمد عبدالخالق عمر : الفقه والقضاء في قانون المرافعات المدنية ــ ص ٥٧ ــ مكتبة القاهرة الحديثة .

ولا يسمح لأحد الإطلاع عليها . وتوجد بعض النظم القانونية الأخرى تذهب الى أبعد من ذلك ، اذ تسمح للقاضي المخالف ان ينطق بالمخالفة ، ويطلع عليها الخصوم ؛ وتنشر بجانب رأي الأكثرية من القضاة التي اصدرت الحكم القضائي . فما هي مزايا الرأي المخالف وما هي مساوئه .

٣ ـ مزايا الرأي المخالف : ـ

إنّ مزايا الرأي المخالف في الأحكام القضائية هي :

اولاً : ـ يؤدي الرأي المخالف في الاحكام القضائية الى بذل مزيد من الجهد في دراسة الدعوى . اذ عندما تجتمع هيئة المحكمة للمداولة في الحكم ، فان من حق كل قاض اشترك في المرافعة أن يبدي رأيه في الدعوى لاصدار الحكم فيها . لأن كل قاض يدافع عن وجهة نظره ، ويبدي من الأسباب القانونية التي تؤيد رأيه وقد يؤدي ذلك الى اعادة دراسة الدعوى مجدداً ، وبذل مجهود اكبر في تفهم الدعوى ، وتطبيق القانون على دقائقها (٣) .

ثانياً : ـ ليس من الصواب في شيء أن يحال بين القاضي الذي اشترك في المداولة وصدر الحكم على خلاف رأيه، في ابداء وجهة نظره وتدوين مخالفته ، لأن الحيلولة بينه وبين تدوين مخالفته مؤذية لضميره ، وشعوره بقيمة رأيه (٤) .

ثالثاً : ليس من مصلحة القضاء إقامة الحكم على الوهم والافتراض بدلاً من حقيقة الواقع ، فما دام الحكم القضائي ، لم يكن صادراً باتفاق آراء القضاة ، فإن نسبته اليهم جميعاً هو افتراض وليس حقيقة واقعة .

(٣) Sir Henry slesser, The Art of judgment, London 1962 p. 4.

(٤) احمد ابو الوفا ـ نظرية الاحكام في قانون المرافعات ص ٧٩ الطبعة الرابعة ١٩٨٠ منشأة المعارف بالأسكندرية .

رابعاً : إنَّ من مصلحة كل خصم في الدعوى ان يعرف رأي كل قاض في الدعوى .

خامساً : إن بيان الرأي المخالف يكشف عن المصاعب التي يصادفها القضاة في تطبيق القانون على وقائع الدعوى ؛ وفيه تنبيه للمشرع بوجوب ملاقاة الغموض الذي يعترى بعض النصوص القانونية .

سادساً : إن اختلاف الرأي دليل على حيوية القضاة وبرهان على محاولة كريمة تنشد الحق والعدل وسياق القانون . (٥) .

سابعاً : يعطى الرأي المخالف في الأحكام القضائية صورة صادقة ، وحقيقة واقعة ؛ للعمل القضائي .

ثامناً : إن الاختلاف في الرأي بين القضاة ظاهرة طبيعية ، لا يمكن تجنبها ، ولهذا فإن فتح ابواب التعبير عنها هي الوسيلة الوحيدة لإراحة ضمير القاضي وتبرئة ذمته ، واكثر اتفاقاً مع كرامة القضاة واستقلالهم في اصدار الأحكام (٦) .

٤ ـ مساوىء الرأي المخالف : ـ

إن مساوئ الرأي المخالف في الاحكام القضائية هي : .

اولاً : إنَّ بيان الرأي المخالف والنطق به قد يشكك في سلامة الحكم القضائي وقوته . لأنه صادر باكثرية آراء القضاة وليس باتفاقهم .

ثانياً : وجوب إحاطة عملية اصدار الحكم القضائي بسرّية تامة ، وان الاشارة الى الحكم بأنه قد صدر بالأكثرية ، فيه افشاء لسرّية المداولة ، اذ سيعرف

(٥) محمد عبدالخالق عمر – المرجع السابق ص ٦٨ .

(٦) Charles Maeching, The Right to dissent in Free Society, American Bar Assciolion Journal, p. 852 — 55. Sept. 1969.

الخصوم اسماء القضاة المخالفين للحكم وفي ذلك افشاء لسرّية المداولة (٧)

ثالثاً : إنّ بيان الرأي المخالف قد يضعف الثقة بالعدالة القضائية .

رابعاً : إنّ الاختلاف في الرأي القضائي ، وبيان اسماء القضاة المخالفين قد يخلق عداوة لهم من قبل بعض الخصوم في الدعوى .

خامساً : يؤدي الرأي المخالف لأكثرية رأي القضاة الآخرين في الحكم القضائي الى خصومات بين القضاة انفسهم .

سادساً : إن الخلاف في الرأي قد يؤدي الى تحول الأقلية المخالفة الى رأي الآخرين في دعوى مماثلة فيصدر حكم مخالف للحكم السابق وبذلك يحدث تعارض في الأحكام القضائية صادرة من نفس المحكمة .

٥ ـ الرأي المخالف في الفقه الاسلامي : ـ

يأخذ الفقه الإسلامي بنظام القاضي الفرد ، ويعلل ذلك الفقهاء ان تعدد القضاة يؤدي الى تعذر اتفاقهم في الرأي مما يؤدي الى تعطل الفصل في الخصومات (٨) ولهذا فلا وجود لمشكلة الرأي المخالف في الأحكام القضائية . ولكن في الفقه الإسلامي نظاماً فريداً هو مشاورة القاضي للفقهاء . فالقاضي مأمور بالمشاورة في احكامه وقضاياه (٩) ولا ينبغي ان يشاور الفقهاء بمحضر من الخصوم ، لكيلا يعلم الخصوم ما يدور بين القاضي وبين من يشاوره ، وما يعزم عليه رأيه(١٠) وليس على اهل الشورى إذا خالفوه في حكمه ان يعارضوه

---

(٧) Kurt Nadelman, The Judicial dissent, American Journal of Compara- tive low, November & Nnmber 4 1954, p. 412.

(٨) محمد سلام مدكور :- القضاء في الاسلام ص ٥٦ القاهرة .

(٩) الماوردي في أدب القاضي تحقيق الدكتور محيي هلال السرحان ج ١ ص ٢٦٠ .

(١٠) الخصاف – شرح أدب القاضي تحقيق الدكتور محيي هلال السرحان ج ١ ص ٣٦٣ .

فيه ولا يمنعوه منه إذا كان اهلاً للاجتهاد(١١) وبذلك يمكن القول إن مشارة القاضي للفقهاء تكون سرّية وإن للقاضي ان يختار من اقوال الفقهاء الذين استشارهم ما يؤدي اليه رأيه ، ويصدر حكمه في الدعوى حسب اجتهاده .

٦ ـ النظم القضائية التي لا تسمح بتدوين الرأي المخالف : ـ

إن التنظيم القضائي الفرنسي لا يسمح للقاضي المخالف بتدوين مخالفته او النطق بها(١٢) اذ تكون المداولة بين القضاة سرية (مادة ٤٤٧ من قانون المرافعات الفرنسي الصادر سنة ١٩٧٥) وتصدر القرارات والأحكام باكثرية الأصوات (مادة ٤٤٨ منه) . ولكن الحكم ينسب الى هيئة المحكمة بكاملها . وليس في القانون الفرنسي نص قانوني يجيز للقاضي المخالف تدوين مخالفته ، وقد قررت محكمة التمييز الفرنسية نقض ما اشير فيه الى ان قرار المحكمة صدر بالاتفاق لأن ذلك يفيد بمفهوم المخالفة ما دار اثناء المداولة بينما يجب ان تكون المداولة سرّية (١٣) .

وفي القانون الايطالي يجتمع قضاة الهيئة في غرفة مغلقة للمداولة بسرّية ، ولا يسمح للقاضي المخالف بتدوين مخالفته سواء اصدر الحكم بالاتفاق ام بالأكثرية (مادة ٢٧٦ من قانون المرافعات المدنية الإيطالي) بل ينسب الحكم الى هيئة المحكمة بكاملها ، دون الإشارة الى القاضي المخالف وهو في هذا يتفق مع القانون الفرنسي ومع سائر القوانين التي تأخذ بنظام القانون المدني (١٤) .

---

(١١) الماوردي المرجع السابق ص ٢٦١ .

(١٢) Petter Harzog, Martha : Civil Procedure in France p. 286.

(١٣) مشار اليه في القانون القضائي الخاص لإبراهيم نجيب سعد ج ٢ ص ٢١٢ .
Cass. Soc. 15 Jon 1964.

(١٤) Cappelletti, Perillo, Civil Procedure in Italy p. 243.

وقد تأثر بالقانون الفرنسي بعض القوانين في البلدان العربية ، ففي جمهورية مصر العربية ، تكون المداولة في الأحكام سراً بين القضاة مجتمعين ، وتصدر الاحكام بأغلبية الآراء (المواد ١٦٦ و ١٦٩ من قانون المرافعات المصري رقم ١٣ لسنة ١٩٦٨) . وتنتهي المداولة بأخذ الرأي بين القضاة ويصدر الحكم برأي الأغلبية المطلقة ، وينسب الحكم الى المحكمة بكامل قضاتها ، دون بيان لما إذا كان الحكم قد صدر بالاجماع او بالأغلبية .

وكان مشروع قانون المرافعات يشتمل على نص يجيز لأصحاب الرأي المخالف من القضاة اثبات الرأي المخالف في ذيل الحكم ، ولكن دون اعلان ذلك للخصوم ، إلا أن مجلس الشيوخ رأى حذف هذا النص فصدر قانون سنة ١٩٤٩ خلواً منه (١٥) .

وفي قانون المرافعات المدنية والتجارية الكويتي رقم ٣٨ لسنة ١٩٨٠ تكون المداولة في الأحكام سرّية بين القضاة مجتمعين وتصدر الأحكام بأغلبية الآراء (مادة ١١٢ منه) . ولم ينص القانون على جواز تدوين القاضي المخالف لرأيه ، ولا يذكر في الحكم كونه صادراً بالاجماع ام بالأغلبية ؛ بل ينسب الى المحكمه بكامل هيئتها .

وفي قانون المرافعات المدنية والتجارية في حكومة البحرين لسنة ١٩٧١ ، تكون المداولة في الاحكام إذا تعدد القضاة سرّية ، وتصدر الأحكام بأغلبية الآراء (مادة ١٨٧ منه) . وليس في القانون نص يجيز للقاضي المخالف تدوين مخالفته او اعلانها ، بل ينسب الحكم للمحكمة سواءاً صدر بالإجماع ام بالأغلبية .

وفي قانون اجراءات المحاكم المدنية لسنة ١٩٧٠ في حكومة ابوظبي

(١٥) عبدالباسط جميعي ومحمد عبدالخالق عمر في موجز الاحكام وطرق الطعن الملحق بشرح قانون الاجراءات المدنية ص ٤٦٩ القاهرة ١٩٦٦ .

نصت المادة ٥١ منه بأنه بعد الفراغ من سماع القضية تصدر المحكمة حكماً إما في نفس الجاسة او في جلسة لاحقة تحددها لهذا الغرض ثم بينت المادة ٥٢ منه محتويات الحكم وهي ان يكون الحكم مشتملاً على نقاط النزاع بين الأطراف وحكم المحكمة بصدد كل من تلك النقاط ، واسباب الحكم وتاريخ صدوره . ولم ينص القانون على سرية المداولة ، كما انه لم ينص ايضاً على جواز تدوين القاضي لرأيه المخالف لرأي الأغلبية .

وفي قانون الإجراءات المدنية في الجزائر الصادر سنة ١٩٦٦ ، نصت المادة ١٤٢ منه بأنه بعد اقفال باب المناقشة يحيل المجلس الدعوى للمداولة ، ويحدد اليوم الذي يصدر فيه حكمه . ولم ينص القانون على صدور الحكم بالاتفاق او بالاكثرية . وليس فيه نص قانوني على جواز مخالفة احد القضاة لرأي الأكثرية او تدوين مخالفته .

وفي المماكة المغربية نصت المادة ٣٤٥ من قانون المسطرة المدنية (المرافعات المدنية) الصادر سنة ١٩٧٤ بأن تكون القرارات معللة ويشار الى أنها صدرت في جاسة علنية ، وأن المناقشات كانت في جلسة علنية او سرّية ، وليس في القانون المغربي نص قانوني يجيز للقاضي المخالف تدوين مخالفته او النطق بها.

وفي القانون التونسي نص الفصل ١٢٠ من مجلة المرافعات المدنية والتجارية على أن يصدر الحكم من ثلاثة حكام بأكثرية الآراء ، ونصت المادة ١٢١ منه بأن تكون المفاوضة سرّية وعندما تحصل الأغلبية تحرر لائحة في نص الحكم . وليس فيه نص قانوني يجيز للقاضي المخالف بتدوين مخالفته او اعلانها . وفي قانون المرافعات المدنية والتجارية الليبي الصادر سنة ١٩٥٣ ، تجري المداولة في الحكم سراً في غرفة المداولة ، وتصدر الأحكام بأغلبية الآراء (مادة ٢٧٢ منه) وليس فيه نص قانوني يجيز للقاضي المخالف تدوين مخالفته بل إن الحكم ولو كان صادراً بالأغلبية ، فإنه ينسب الى المحكمة بكامل قضاتها.

وبذلك تكون كل من قوانين فرنسا وايطاليا ومصر والكويت والبحرين وابو ظبي والجزائر والمغرب وتونس وليبيا قد خلت قوانينها من نصوص قانونية تجيز للقاضي المخالف لرأي الأكثرية من القضاة ، أن يدون مخالفته او ينطق بها ؛ بل إن الحكم وإن كان صادراً بالأكثرية ، فإنه ينسب الى المحكمة بكامل قضاتها التي نظرت الدعوى ؛ ولا يدون في الحكم القضائي كونه صادراً بالاتفاق او بالأكثرية .

٧ ـ النظم القضائية التي تسمح بتدوين الرأي المخالف : ـ

يأخذ القانون الانكليزي بمبدأ الرأي المخالف في الأحكام القضائية ومنه أخذت بعض القوانين الأخرى ؛ كالقانون الامريكي ، والقانون الباكستاني والقانون الهندي ، كما أخذ بالرأي المخالف ايضاً كل من القانون السويسري والقانون السوفييتي والقانون التركي ففي المحاكم الانكليزية عند تعدد القضاة ؛ فإن من حق كل قاض ان يعبر عن رأيه المخالف لرأي زملائه القضاة ؛ عند اصدار الحكم القضائي ، ويعلن هذا الرأي ، منفصلاً عن رأي الآخرين ويقرأ من قبله عند النطق بحكم الأكثرية من القضاة . (١٦) .

اما في الولايات المتحدة الامريكية ، فإن المحكمة الاتحادية العليا في واشنطن المكونة من تسعة قضاة بما فيهم رئيس المحكمة ، تجتمع كل يوم اثنين ، لتصدر احكامها ، ونادراً ما يصدر الحكم بالاتفاق ؛ فإذا حصلت الاكثرية كلف رئيس المحكمة احد القضاة لكتابة الحكم القضائي ؛ وقد يقوم هو بنفسه لكتابته ، فإذا اختلف بعض القضاة مع الاكثرية في اسباب الحكم ، فإنه يوافق على الحكم من حيث النتيجة ، ولكنه يكتب اسباباً تختلف عن

(١٦) René David, John Braily, Magor Legal Systems in the world to day p. 310, London 1968.

الأسباب التي وافقت عليها اكثرية القضاة . اما اذا خالف بعض القضاة نتيجة الحكم ، فإنه يكتب رأياً مخالفاً ؛ وبعد كتابة رأى الاكثرية ورأي الأقلية ، يتلى حكم الأكثرية اولاً من قبل القاضي الذي كتبه ، ثم تعقبه الآراء الموافقة له من حيث النتيجة ؛ والآراء المخالفة للحكم ، وتنشر هـذه الآراء جميعاً في مجموعات احكام المحكمة العليا (١٧) .

وفي قانون الإجراءات المدنية السوفييتي الصادر سنة ١٩٦١ ، فإنّ المادة ٣٧ منه قد نصت على انه يصدر قرار المحكمة بأغلبية الأصوات ويحق للقاضي الذي بقي ضمن الأقلية أن يدون رأيه الخاص الذي يضم الى ملفالدعوى وهـذا الرأي لا يعلن في جلسة المحكمة ،بل يكوِن محل اعتبار لدى المحكمة العليا عند الطعن بالحكم الصادر بالأكثرية (١٨) . وأن رأي الأكثرية هو الذي ينطق به .

اما من الناحية الدولية فقد نصت المادة ٥٧ من النظام الاساسي لمحكمة العدل الدولية على ما يأتي (إذا لم يصدر الحكم كاملاً او جزءاً باجماع آراء القضاة فيحق لأي منهم ان يبين رأياً مستقلاً) . وأن رأي الأكثرية من القضاة ، ورأي الأقلية ينشران في مجموعة احكام محكمة العدل الدولية . وبذلك تكون محكمة العدل الدولية تأخذ أيضاً بالرأي المخالف في الأحكام القضائية .

أما في القوانين العربية ؛ فإن كلا من القانون العراقي والقانون الأردني والسعودي والقانون اللبناني والقانون السوري قد أخذت بالرأي المخالف في الأحكام القضائية .

---

(١٧) Douglas, The Dissenting Opinion, The Supreme Court p. 15.

(١٨) V. Terebilov, The Soviet Court p. 145, Moscow 1973.

ففي الأردن نصت المادة ١٨٥- ٢ من قانون أصول المحاكمات الحقوقية المعدل حتى سنة ١٩٧١ على ما يأتي (تصدرالمحكمة قرارها بالاجماع او بالاكثرية وعلى القاضي المخالف أن يبين اسباب مخالفته في ذيل القرار ويوقعها) وبذلك يكون القانون الأردني قد أخذ بالرأي المخالف وسمح للقاضي المخالف بتدوين مخالفته في ذيل القرار او الحكم الصادر بالأكثرية .

اما في المملكة العربية السعودية فقد نصت المادة ٣٤ من نظام القضاء على ما يأتي (تصدر الأحكام بالإجماع او بالأغلبية ، وعلى المخالف توضيح مخالفته واسبابها في ضبط القضية وعلى الأكثرية ان توضح وجهة نظرها بالرد على مخالفة المخالف في سجل الضبط) . وبذلك يكون التنظيم القضائي السعودي قد أخذ بمبدأ الرأي المخالف في الأحكام القضائية وأضاف اليه أن على أكثرية القضاة ان يردّوا على رأي الأقلية المخالفين، مما لا مثيل له في النظم العربية الأخرى ؛ ويعتبر متقدماً على بعض قوانين البلدان العربية .

أما في القانون اللبناني ، فقد نصت المادة ٤١١ من قانون اصول المحاكمات المدنية على ما يأتي (يصدر الحكم باجماع الآراء او بأكثريتها ، فاذا صدر الحكم بأكثرية الآراء يشار فيه الى ذلك ، وعلى القاضي المخالف أن يدون مخالفته) . وبذلك يكون القانون اللبناني قد سمح للقاضي المخالف ان يدون اسباب مخالفته (١٩) ويشار في الحكم القضائي أنه صادر بالاكثرية اوبالاجماع .

وفي القانون السوري نصت المادة ١٩٧ - ١ من قانون اصول المحاكمات على أنه تصدر الأحكام باجماع الآراء او باكثريتها ونصت المادة ١٩٨ منه اذا صدر الحكم بالاكثرية ، فعلى الأقلية ان تدوّن اسباب مخالفتها على محضر المحكمة ولا يثبت هذا الرأي في نسخة الحكم الاصلية ولا ينطق به ، ويجب في جميع الأحوال أن ينص الحكم على صدوره بالأكثرية او بالاجماع .

---

(١٩) احمد ابو الوفا - اصول المحاكمات اللبناني ص ٦٥٩ الطبعة الثانية ١٩٧٩ - بيروت .

يكون القانون اللبناني قد سمح للقاضي المخالف بتدوين مخالفته ، ويشار في الحكم القضائي أنه صادر بالإجماع او بالأكثرية ، ولكن المخالفة لا تدون في نسخة الحكم الأصلي ولا ينطق بها ، بل تبقى محفوظة في ملف الدعوى .

وبذلك تكون كل من قوانين انكلترا والولايات المتحدة الامريكية ، والاتحاد السوفييتي وباكستان والهند ، واليابان ، وسويسرا وتركيا واستراليا والسويد والنرويج (٢٠) والاردن وسوريا والسعودية ولبنان والعراق تأخذ بمبدأ الرأي المخالف وتسمح للقاضي المخالف بتدوين رأيه بل إن بعضاً منهم يسمح للقاضي المخالف بالنطق بمخالفته .

٨ ـ تطور الأخذ بالرأي المخالف بالقانون العراقي : ـ

كان قانون أصول المحاكمات الحقوقية العثماني الصادر في ٢ رجب سنة ١٢٩٦ هـ نافذ المفعول في العراق حتى سنة ١٩٥٦ وقد نصت المادة (١٥) من ذيل هذا القانون على ما يأتي (يحرر الحكم والقرار من قبل الرئيس او أحد اعضاء المحكمة حاوياً فقرات متضمنة على حدة اسباب الرد والقبول في كل من المدعيات والمدافعات التي وردت في لوائح الطرفين والمواد القانونية التي استند عليها ويوقع عليه من قبل الهيئة . وإذا كان ثمة اعضاء مخالفون لهذا القرار يكتبون في ذيل الضبط أسباب مخالفتهم بخط يدهم ويصدقون عليها بتوقيعهم ثم يقرأ رئيس المحكمة الحكم ويفهمه علانية) (٢١) . ويتضح من هذا النص القانوني أنه أجاز تدوين الرأي المخالف للحكم القضائي واشترط

---

(٢٠) Kurt Naclelman, The Judical dissent, American Journal of Compara- tive Low, November 8 Number 4. 1959 p. 420.

(٢١) سليم رستم باز : شرح قانون المحاكمات الحقوقية ص ٣٧٨ طبعة ثالثة ١٩٢ بيروت .
Hooper, Civil Procedure of Iraqi and Palastine p. 98, Basrah.

القانون أن يدوّن بخط القاضي وفي اسفل الحكم او القرار وينطق بالحكم الصادر بالأكثرية . اما المخالفة فلا ينطق بها . ثم صدر بعد ذلك قانون اصول المرافعات المدنية والتجارية رقم ٨٨ لسنة ١٩٥٦ ونصت المادة ١٢٨ ـ ٢ منه على ما يأتي (تكون المذاكرة سرّية ولا يجوز ان يشترك فيها إلا حكّام هيئة المحكمة ، ونصت المادة ١٢٩ ـ ٣ منه (توقع هيئة المحكمة على الحكم الذي تصدره بعد أن يدون العضو المخالف اسباب مخالفته قبل تفهيم الحكم للطرفين) وبذلك يكون القانون قد أجاز للقاضي المخالف تدوين مخالفته ، واشترط أن تكون المداولة سرية بين القضاة ثم الغي هذا القانون وصدر القانون النافذ قانون المرافعات المدنية رقم ٨٣ لسنة ١٩٦٩ ونصت المادة ١٥٨ منه بأن تصدر الأحكام بالاتفاق او باكثرية الآراء . ونصت المادة ١٦٠ ـ ٢ منه ، يدوّن العضو المخالف رأيه واسباب مخالفته ولا ينطق بالمخالفة وتحفظ في إضبارة الدعوى ولا تعطى منها صور . ولم يرد بهذا القانون نص قانوني على وجوب ان تكون المداولة سرية بين القضاة . ويبدو لي ان سبب ذلك هو ان المشرع اعتقد أن هناك تناقضاً بين سرّية المداولة وبين تدوين الرأي المخالف ، بينما لا يوجد تناقض في ذلك لأن سرية المداولة انما تكون اثناء المداولة بين القضاة وليس عند النطق بالحكم علناً لأن القانون هو الذي سمح للقاضي المخالف بتدوين مخالفته التي لا يجوز النطق بها او اعطاء نسخ منها الى الخصوم اوغيرهم ، بل تبقى محفوظة في إضبارة الدعوى .

٩ ـ الخاتمة : ـ

تبين من هذه الدراسة في مختلف القوانين العالمية والعربية أن اكثر القوانين ومنها القانون الدولي العام يأخذ بمبدأ السماح للقاضي المخالف بتدوين رأيه المخالف ، ولكن القانون العراقي وإن أجاز ذلك ؛ إلا أنه منع النطق بالرأي المخالف او اعطاء صورة منه . ونرى أنه من الافضل السماح للقاضي المخالف

بالنطق برأيه المخالف ونشره في المجموعات القضائية بجانب رأي الأكثرية لأن ذلك يؤدي الى اطمئنان الخصوم من الدعوى ، ويزيد من ثقة المواطنين بأحكام القضاء ؛ ويكشف للناس واقع العمل القضائي ، والصعوبات العملية التي يلاقيها القضاة في تطبيق القانون على وقائع الدعوى ، ويعتبر ضماناً لاستقلال القاضي في رأيه ، ووسيلة تسمح للمواطنين مراقبة عمل كل قاض على حدة ومدى تفهمه للقانون .

والله ولي التوفيق

ضياء شيت خطاب

رئيس محكمة التمييز (سابقاً)

والقاضي في محكمة التحكيم الدولية في لاهاي



مَرْوَانُ بنُ محمّد بن مَرْوَانَ بنِ الحكم

فاتح شطر بلاد الرُّوم وشطر إرمينِيَة

اللواء الركن محمود شيت خطاب

(عضو المجمع)

نسبه وأيّامه الأولى

هو مَرْوان بن محمّد بن مَرْوان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أُميّة ابن عبد شَمْس بن عبد مَناف بن قُصَيّ القُرَشِيّ الأُمَوِيّ (١) .

أبوه : محمّد بن مَرْوان بن الحكم أخو عبدالملك بن مروان بن الحَكَم ، وكان محمّد من قادة الفتح الإسلامي ومن أبرز ولاة بني أُميّة ومن البيت المالك.

وأمّه : كرديّة من أمّهات الأولاد (٢) ، ويريدون بأُمّهات الأولاد : الجواري والإماء اللّواتي وَلَدْنَ لمواليهنّ ذُكرانا ، واسم أمّه : لُبَابة .

ولد سنة ست وسبعين الهجرية (٣) (٦٩٥ م) ، ويومها كان أبوه محمد بن مروان على الجزيرة وإرْمِينِيَة ، فقد استعمله أخوه عبدالملك بن مروان على الجزيرة وإرمينية سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٤) (٦٩٢ م) ، وبقي على

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥ / ٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ - ١٠٥) وفوات الوفيات (٣١/٢) .

(٢) المحبر (٣٢ و ٤٥) والبداية والنهاية (١٠ / ٤٦) .

(٣) الطبري (٦ / ٢٥٦) وابن الأثير (٤ / ٤١٨) ، وفي تاريخ خليفة بن خياط (٤٢٨/٢): أنه ولد سنة اثنتين وسبعين الهجرية في الجزيرة .

(٤) ابن الأثير (٤ / ٣٦١) .

عمله طيلة حياة أخيه عبدالملك بن مروان الذي توفّي سنة خمس وثمانين الهجرية (٥) (٧٠٤ م) وبقي على عمله أيضاً ، وشطراً من حياة الوليد بن عبدالملك الذي عزاه سنة إحدى وتسعين الهجرية (٦) (٧٠٩ م) ، بعد أن بعد أن أمضى في ولايته ثماني عشرة سنة متواصلة ، فأصبح ابنه مروان خلال هذه المدة شاباً في ريعان الشباب ، اكتسب خلالها خبرة عملية في معرفة أرجاء ولاية أبيه على الطبيعة ، كما تلقّى علومه النظريّة والعمليّة في محيط يَعجّ بقادة الفتح وجنوده ، وبقادة الفكر وجنوده ، كلّهم يجاهد في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمة الله ، في ساحة من أخطر ساحات الفتح الإسلامي ، وفي وقت هو وقت مدّ الفتح واستعادة الفتح ، بالمقر الذي تصدر عنه القرارات العسكرية والإدارية المهمّة ، إلى جانب والده القائد والإداريّ وأعوانه القادة والإداريين المرؤوسين والعلماء العاملين ، فلا عجب أن يتعلّم ما ينبغي أن يتعلّم لذاته ويتدرّب على ما ينبغي أن يتدرّب اقرانه على أيدي القمّة من العلماء المجاهدين والقادة الفاتحين والإداريين المجرِّبين ، ولا عجب أن تثرى تجارته العمليّة بخاصة كفاياته القيادية والإداريّة والعلميّة ، فأصبح أحد البارزين في بني أُميّة وأحد المرموقين منهم المرشحين بكفاياتهم المتميِّزة لتولّي أعلى المراكز القياديّة والاداريّة في الدولة .

جهاده

١- في سنة ست ومئة الهجريّة (٧٢٤ م) في خلافة هشام بن عبدالملك ابن مروان ، تولىّ مروان أوّل قيادة عسكريّة له ، وكان عمره يومئذ ثلاثين سنة . فقد تولى الصّائفة اليُمنى ، وهي التي تنطلق من الجزيرة شمالاً إلى بلاد

---

(٥) العبر (١ / ١٠٢) .

(٦) تاريخ خليفة بن خياط (١ / ٣٠٧) .

الرُّوم صيفاً ، فافتتح (قُونِيَة) (٧) من ارض الرُّوم و (كَمْخ) (٨) التي تعدّ من ارض الجزيرة (٩) .

٢- وكان مروان مع مَسْلَمَة بن عبدالملك من سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥ م) حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣١ م) في جهاده الذي امتدّ من الجزيرة الى بلاد الرّوم وأذْرَبيْجان وإرْمِينية (١٠) ، فعزل هشام أخاه مسلمة وولّى مروان بن محمد على الجزيرة وأذْرَبيْجان وإرْمينية (١١) .

ومضى مروان إلى إرمينية والياً عليها ، وسيّر هشام بن عبدالملك الجنود من الشّام والعراق والجزيرة ، فاجتمع عند مروان من الجنود والمتطوِّعة المجاهدين مئة وعشرون ألفاً .

وكانت كثير من الأقاليم الأرمينيّة قد نقضت ، فشاع فيها الاضطراب والتمرّد ، فأراد مروان أن يعيد الأمن والاستقرار إلى تلك الأقاليم .

وأظهر مروان أنّه يريد غزو (اللان) (١٢) وقَصَدَ بلادهم، وأرسل إلى

(٧) قونية : من أعظم بلاد الاسلام في بلاد الروم ، وهي من المدن المشهورة ، لها جبل في جنوبيها ، ولها بساتين من جهة الجبل ، وبقلعتها تربة إفلاطون الحكيم ، ونهرها يسقي بساتينها ثم تصير مياهه بحيرة ومروجاً ، والفواكه بها كثيرة ، وهناك المشمش المعروف بقمر الدين ، انظر التفاصيل في بحث : مدن بلاد الروم ، وانظر معجم البلدان (٧ / ١٨٦) .

(٨) كمخ : مدينة وقلعة على الفرات الغربي من مدن أعالي الفرات في الجزيرة ، على مسيرة يوم أسفل أرزنجان، في يسار النهر أي في ضفته الجنوبية ، وهي : (كمخا Camcha) عند الروم . وهي قلعة عظيمة أيضاً ، في أسفلها المدينة على ضفة النهر ، انظر بحث : بلاد الجزيرة ، ومعجم البلدان (٨ / ٢٧٩) .

(٩) ابن الأثير(٥/١٢٥)،وفي خليفة بن خياط (١ / ٣٣٩) أنه تولى سنة خمس ومئة الهجرية

(١٠) انظر التفاصيل في سيرة مسلمة بن عبدالملك في مجلة المجمع العلمي العراقي .

(١١) تاريخ خليفة بن خياط (١ / ٣٥٩) وابن الأثير (٥ / ١٧٧) ، .

(١٢) اللان : بلاد واسعة في طرف إرمينية ، قرب باب الأبواب مجاورة للخزر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ٣١٦) .

ملك الخَزَر يطلب منهم المهادنة ، وبلاد اللان مجاورة لبلاد الخزر ، فأجابه ملك الخزر إلى ذلك ، وأرسل وفداً إليه للاتّفاق على شروط الصّلح .

وأبقى مروان وفد الخزر عنده ، إلى أن فرغ من جهازه واستحضاراته ، ثمّ أغلظ لهم القول ، ولم يوافق على شروطهم التي عرضوها عليه ، وآذنهم بالحرب ، وسيّرهم إلى أحد قادته ، وأخبره بعزمه على حرب الخزر ، لأنّهم كرّروا نقض عهودهم ومواثيقهم ، والحقوا بالمسلمين خسائر فادحة بالأرواح والممتلكات من جرّاء نقضهم المتكرّر . وأمر قائده أن يسيّر وَفْد الخزر على طريق بعيدة في عودتهم إلى ملكهم لكسب الوقت ، وسار هو على رأس جيشه في أقرب الطرق إلى هدفه ، فما وصل الوفد الخزريّ إلى ملكهم إلاّ ومروان قد وافاهم وأطبق عليهم .

وكانت هذه العملية العسكرية لمروان مباغتة كاملة لملك الخزر وللخزر ، شلّت تفكير الملك ومَن حواله ، وزادت في شللهم الفكري الأخبارُ التي حملها إليهم وفدهم الذي عاد خائباً من رحلته إلى مروان ، فقد حمل هذا الوفد إلى الملك بالإضافة إلى إخفاق المفاوضات ، ما جمع له مروان وما حشد واستعدّ .

واستشار ملك الخزر أصحابه ، فقالوا له : « إنّ هذا قد اغتَرّك ودخل بلادك ، فإن أقمتَ إلى أن تجمع ، لم يجتمع عندك إلى مدّة ، فيبلغ منك ما يريد . وإن أنتَ لقيتهُ على حالك هذه هزمَكَ وظفرَ بك ، والرأي أن تتأخر إلى أقصى بلادك ، وتدعه وما يريد » . أي أنّ خلاصة رأي أصحاب ملك الخزر ، أنّ الخزر لا يستطيعون إكمال استعداداتهم للقتال ، لأن الوقت المتيسّر لديهم غير كاف لإنجاز الاستعدادات ، فإذا قَبِل المعركة بدون استعدادات كاملة ، فإنّ الهزيمة ستقع بالخزر ، وليس أمامه إلاّ التملّص من القتال ، والانسحاب إلى مجاهل بلاده النائية ، استعداداً لفرصة مؤاتية جديدة .

وقبِلَ ملكُ الخزر رأي أصحابه ، وسار مع رجاله منسحباً من ساحة القتال إلى أقصى بلاده .

ودخل مروان بلاد الخزر ، وأوغل فيها ، وأخربها ، وغنم وسبى ، وانتهى إلى آخرها ، وأقام فيها عدّة أيام ، حتى أذلّ الخزر وانتقم منهم .

ولم يكتفِ مروان بهذا النصر المؤزّر على بلاد الخَزَر ، بل دخل بجيشه بلاد (ملك السّرير) (١٣) وهي بين اللان ومدينة باب الابواب ، فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ودان له الملك ، وصالحه على مئة ألف مُدْيٍ (١٤) مع عدد من الجواري والغلمان ، على أن تحمل الحبوب إلى أهراء مدينة باب الابواب في كلّ سنة ، وأخذ منه الرّهن .

وصالح مروان أهل (تُومان) (١٥)على عشرين ألف مُدْيٍ من الحبوب وعدد من الجواري والغلمان . ثم دخل أرض (زِرِيكران) (١٦) ، فصالحه ملكها .

ثمّ أتى إلى أرض (حمزين) (١٧) ، فأبى حمزين أن يصالح مروان ، فحصرهم وشدّد عليهم الخناق ، حتى افتتح حصنهم .

---

(١٣) السرير : مملكة واسعة بين اللان ومدينة باب الأبواب (دربند) ، وليس اليها غير مسلكين : مسلك إلى بلاد الجزيرة ، ومسلك إلى بلاد إرمينية ، وهي ثمانية عشر ألف قرية في جبال ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ٨٠) . وملك السرير أيضاً : خان الجبل في إرمينية ، فتوح البلدان (٢٧٦) وفيه : ويدعى : وهرارزانشاه .

(١٤) المدى : مكيال في الشام ومصر ، يسع تسعة عشر صاعاً ، والصاع : مكيال تكال به الحبوب ونحوها ، وقدره أهل العراق قديماً بثمانية أرطال .

(١٥) لاذكر لها في المصادر البلدانية العربية ، ويبدو أنها مدينة بين اللآن ومدينة باب الأبواب .

(١٦) زريكران = زره‌كران = زرنكران = رزنكران : لاذكر لها في المصادر البلدانية العربية المتيسرة ، ويبدو أنها قريبة من مدينة (باب الأبواب) ، استناداً إلى سير العمليات العسكرية في تقدم مروان .

(١٧) حمزين : اسم صاحب كورة بالقرب من مدينة باب الأبواب .

ثمّ أتى (سُغْدان) (١٨) ، فصالحه أهلها على خمسة آلاف مُدْيٍ في كل سنة تحمل إلى مدينة (باب الأبواب) أيضاً .

ووظّف مروان على أهل (طَبَرْسَرَانْشَاه)(١٩) عشرة آلاف مُدْيٍ في كل سنة تحمل إلى أهراء مدينة باب الأبواب أيضاً .

ولم يوظّف على (فيْلانْشاه) (٢٠) شيئاً ، وذلك لحسن غنائه وجميل بلائه ، فقد التزم بعهوده ومواثيقه ، ولم ينقض عهداً ولا ميثاقا ، وأعان مروان في حربه .

ثمّ نزل على قلعة صاحب (اللَكْز) (٢١) ، وقد امتنع عن أداء الوظيفة ، فخرج ملك اللكْز يريد ملك الخزر ، فقتله أحد الرعاة بسهمٍ وهو لا يعرفه ، فصالح أهلُ اللكْز مروان واستعمل عليهم عاملا .

وسار مروان إلى قلعة (شَرْوان) (٢٢) وهي تدعى : (خِرِش) (٢٣) وهي على البحر ، فأذعن بالطّاعة والانحدار إلى السّهل ، وألزمهم عشرة آلاف مُدْيٍ في كلّ سنة ، وجعل على صاحب شروان أن يكون في المقدّمة إذا

---

(١٨) سعدان : جاء ذكرها في معجم البلدان (٥ / ٨٦) : قرية من قرى بخارى ، ولايمكن أن تكون هي المعنية ، لبعدها عن سير العمليات العسكرية ، ويبدو انها مدينة بالقرب من مدينة باب الأبواب .

(١٩) طبرسرانشاه : ملك (طبرستران) التي هي من نواحي إرمينية ، بالقرب من مدينة باب الأبواب ، انظر معجم البلدان (٦ / ٢١) .

(٢٠) فيلانشاه : ملك فيلان ، انظر فتوح البلدان (٢٧٦) ، وفيلان : بلد وولاية قرب باب الأبواب من نواحي الخزر ، يقال لملكها فيلانشاه ، وهو ملك السرير ، أنظر معجم البلدان (٦ / ٤١٣ — ٤١٤) ، اما فتوح البلدان فيذكر أن ملك السرير يدعى : وهرار زانشاه ، انظر فتوح البلدان (٢٧٦) .

(٢١) اللكز : مدينة تقع في جبل القفقاس خلف مدينة باب الأبواب ، ويسكنها قوم يعرفون باللكز أيضاً .

(٢٢) شروان : مدينة تقع قرب بحر الخزر من نواحي مدينة باب الأبواب ، بينهما مئة فرسخ .

(٢٣) خرش : اسم قلعة شروان ، أنظر فتوح البلدان (٢٩٣) .

بدأ المسلمون بغزو الخزر ، وبالسّاقة إذا رجعوا ، وعلى فيلاَنْشاه أن يغزو معهم فقط ، وعلى طَبَرْسَرَانشاه أن يكون في الساقة إذا بدأوا وفي المقدمة إذا انصرفوا .

وسار مروان إلى (الدُودَانيّة) (٢٤) . فأوقع بهم وأخضعهم إلى سيطرة الدولة ، وأعاد إلى ربوعهم الأمن والاستقرار (٢٥) .

ومن الواضح أنّ مروان في هذه الحملة استعاد فتح كورتي أرّان وباب الأبواب ، وأعاد المنتقضين منهم إلى سيطرة الدولة .

وكورة أرّان كما هو معروف ، تمتدّ من مدينة : (باب الأبواب) في الشمال الشرقي لإقليم إرمينية ، إلى مدينة (تَفْلِيْس) غرباً ، ويحدّها نهر (الرّسّ) من الجنوب والجنوب الغربي (٢٦) .

وتقع مدينة : (باب الابواب) على بحر الخزر (قزوين) ، وتنتهي حدودها عند جبل (القَبْق) (٢٧) .

وتعتبر أرّان من إرمينية الأولى ، أما اللَكْز فتعتبر من إرمينية الثانية .

وكانت هذه الغزوة التي قادها مروان،من الغزوات الموفّقة إلى أبعد الحدود .

٣ــ وفي سنة سبع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٥ م) بعث مروان وهو على إرمينيــة بَعْثَين إلى جبــل (القَبْق) ، فافتتح أحــد البعثين ثلاثة حصــون

(٢٤) الدودانية : يدعون بأنهم ينتسبون إلى دودان بن أسد بن خزيمة ، منهم عرب ، ومن المحتمل أنهم من العرب الذين نقلهم كسرى أنو شروان من بلاد العرب إلى كورة أران للدفاع عن بلاده من خطر الخزر ، فبنى لهم الحصون والقلاع ، وأطلق عليها اسم : أبواب الددانية .

(٢٥) فتوح البلدان (٢٩٢ - ٢٩٤) وانظر ابن الأثير (٥ / ١٧٨ - ١٧٩) وتاريخ خليفة ابن خياط (٢ / ٣٦١) .

(٢٦) المسالك والممالك للأصطخري (١٩٠) .

(٢٧) جبل القبق : يمتد في شمالي اقليم إرمينية ، ويتكون من عدة سلاسل تمتد عموماً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بصورة متوازية ، حيث تمتد إلى البحر الأسود (بحر بنطس) وإلى بحر قزوين .

من (اللّان) (٢٨) ، ونزل الآخر على (تُومان شاه) ، فنزل هذا على حكم مروان ، فبعث به مروان إلى هُشام بن عبدالملك في دمشق ، فردّه هشام إلى مروان ، فأعاده مروان إلى مملكته (٢٩) ، بعد أن اطمأن إلى التزام الملك بالعهود والمواثيق التي قطعها على نفسه للمسلمين .

وجبل القَبْق هو جبل القفقاس الكبرى ، وهو جبل منيع جداً ، يبلغ متوسّط ارتفاعه عن سطح البحر بين (٢٧٠٠ متر – ٣٦٠٠ م) ، ويضمّ قمماً يتجاوز ارتفاعها (٤٥٠٠ متر) ، ويبدو أنّ الذين أرادوا الانتقاض على الدولة ، استفادوا من مناعة مناطقهم الجبليّة التي تساعدهم على الدفاع ، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات أمام القوّات الإسلاميّة بالرغم من مناعة بلادهم ، فاستسلموا إلى تلك القوات .

ويبد أيضاً أنّ الاضطرابات التي حدثت في جبال القَبْق كانت اضطرابات طفيفة ، لذلك بعث مروان مَنْ يعالجها من قادته المرؤوسين ولم يتولّ معالجتها بنفسه ، كما أنّ عفوه عن تُومان شاه وإعادته إلى مملكته دليل آخر على أنّ اضطراباته لم تكن خطيرة بدرجة يستحق عليها أيّ نوع من أنواع العقاب ، فتمّ تسويتها بسلام .

٤– وفي سنة ثماني عشرة ومئة الهجرية (٧٣٦ م) ، غزا مروان أرض (وَرْتَنِيْس) (٣٠) ، فدخلها من ثلاثة أبواب ، وأحاط بحصنها إحاطة السِّوار بالمعصم .

---

(٢٨) اللاّن : بلاد واسعة في طرف إرمينية قرب باب الأبواب ، مجاورة للخزر ، أنظر معجم البلدان (٧ / ٣١٦) .

(٢٩) تاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٦٢) وابن الأثير (٥/ ١٨٦) .

(٣٠) ورتنيس : حصن في بلاد سميساط ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٤١٣) ، سمي باسم قائده ورتنيس .

وهرب وَرْتَنَيْس قائد الحصن وترك حصنه الذي سمي باسمه تحت رحمة المحاصِرين ، وتوجّه في هربه إلى الخزر ، فنصب مروان على الحصن المجانيق وأخذ يقصفه قصفاً عنيفاً متواصلاً . ولكنّ ورتنيس قُتل وهو في طريقه إلى الخزر ، فبعث مَن قتله برأسه إلى مروان ، فنصبه لأهل حصنه الذين تأكّد لهم قتله ، فانهارت معنوياتهم ، ونزلوا على حكم مروان الذي قتل المقاتلة وسبى الذريّة (٣١) .

ويبدو أنّ ورتنيس قصد ملك الخزر ليستعين به على المسلمين ، وحرّض رجاله على الثبات في الحصن حتى الرمق الأخير ، ريثما تردهم النجدات معه ، فلما تبيّن لهم أنه قُتل ، لم يبق لهم أمل بالنصر ، فلم يبق أمامهم غير الاستسلام دون قيد ولا شرط .

٥- وفي سنة تسع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٧ م) ، غزا مروان إرمينية ، فدخل من باب (اللّان) ، واخترق هذه الولاية حتى خرج إلى بلاد الخَزَر ، فمرّ بمدينـة (بَلَنْجَر) (٣٢) و (سَمَنْدَر) (٣٣) ، وانتهى إلى مدينة (البَيْضاء) (٣٤) عاصمة خاقان ، فهرب خاقان منها ومن مروان (٣٥) .

ومن المعروف أنّ جبل القَبْق يقطعه ممرّان : الأول عن طريق مدينة باب الأبواب ، والثاني عن طريق باب اللّان الذي يطلق عليه في الوقت الحاضر :

(٣١) تاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٦٣) وابن الأثير (٥ / ١٩٨) ، ورد فيه : ورنيس بدلا من ورتنيس ، وورتنيس هو الصواب ، ولا يزال هذا الاسم شائعاً بين الأرمن حتى اليوم .

(٣٢) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر ، خلف باب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٨/٢)

(٣٣) سمندر : بلد خلف باب الأبواب بثمانية أيام بأرض الخزر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ١٣٠ - ١٣١) .

(٣٤) البيضاء : اسم مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٣٣٦) .

(٣٥) تاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٦٤) وابن الأثير (٥ / ٢١٥) ، وانظر النجوم الزاهرة (١ / ٢٨٢) .

ممر : (دَارْ بِيـْل) أو ممر : (دايال) على اسم مدينتي يمرّ بهما هذا الممر الحيوي الذي سلكه مروان في هذه الحملة .

وكانت هذه الغزوة من غزوات مروان الشّاملة التي قصد بها إبراز قوّة الدولة ومقدرتها على قمع كلّ انتقاض بكفاية وسرعة .

ويبدو أنّ هذه الغزوة أثْمرت في توطيد الأمن والاستقرار في ربوع إرمينية بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للسكّان الأصليين ، فقد كانت سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٨ م) سنة سلام واستقرار في ارجاء إرمينية ، إذ لم يَغْزُ مروان في تلك السنة ، فاستعادت قوّات المسلمين أنفاسها ، وأكملت استحضاراتها استعداداً لجهاد جديد .

كما أنّ هذه الغزوة حقّقت بانتصاراتها استعادة فتح أجزاء كبيرة من إرمينية وبلاد الخَزَر سبق فتحها من الفاتحين الأولين ، ولكنها كانت تنتقض بين حينٍ وآخر إذا وجدت لذلك سبيلاً .

٦- وفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٣٨ م) ، غزا مروان في إرمينية وهو واليها ، فأتى قلعة بيت السّرير ، فقتل وسبى .

ودخل مروان (غُومَسْك) (٣٦) . وهو حصن فيه بيت الملك ، يكون فيه ملك السّرير (٣٧) ، فخرج الملك هارباً حتى أتى حصناً يقال له : (خترج) (٣٨) فيه سرير الذّهب ، فأقام عليه مروان شتوةً وصيفةً محاصراً له ، فصالحه على ألف رأس كلّ سنة ومئة ألف مُدْيٍ .

(٣٦) ورت كذلك في تاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٦٧) ، أما في ابن الأثير (٥ / ٢٤٠) ، فقد وردت : غوميك .

(٣٧) ملك السرير : يدعى وهرار زانشاه ، انظر فتوح البلدان (٢٧٦) .

(٣٨) خترج : وردت كذلك في تاريخ ابن خياط (٢ / ٣٦٧) ، اما في ابن الأثير (٥ / ٢٤٠) فقد وردت : خيزج ، حصن في إقليم السرير ، ولا ذكر له في المصادر البلدانية المتيسرة .

وسار مروان ، فدخل (تُومان) ، فصالحه ملكها تومان شاه . ثم سار مروان ، فدخل أرض (زرِيكران) (٣٩) ، فصالحه ملكها .

ثم سار مروان حتى دخل بلاد (حمزين) (٤٠) ، فأخرب بلاده ، وحصر حصناً له شهراً كاملاً ، فسأله حمزين الصّلح ، فصالحه مروان .

وسار مروان حتى دخل أرض (مسدار) (٤١) ، فافتتحها على صلح .

ثم نزل مروان على (كيْران) (٤٢) ، فصالحه طَبَرْسَرانشاه وفيْلاْن شاه (٤٣) .

وكلّ هذه الولايات على شاطئْ البحر من إرمينية إلى طَبَرَستان (٤٤) .

ومن الواضح أنّ هذه الغزوة كانت لغرض فرض سيطرة الدولة على الذين انتقضوا ، وإظهار قوّتها للذين خالفوا وللذين يترددون في إعلان مخالفتهم لسبب أو لآخر ، والقوّة هي السّبيل لقمع الفوضى وفرض النظام إذا عجزت السياسة عن فرضهما بالحسنى .

وقد تهيّأ لمروان في هذه السنة من الفتوحات أمْرٌ عظيم ، ووقع في قلوب الخزر والترك منه رعب عظيم (٤٥) .

وقد وطّد أركان الأمن والاستقرار في إرمينية ، وأصبح الذين كان دأبهم الانتقاض على الدولة والشّغب عليها وقطع الجزية عنها أو المماطلة في أدائها

(٣٩) زريكران : هكذا وردت في فتوح البلدان (٢٩٣) .
(٤٠) حمزين : هكذا وردت في ابن الأثير (٥ / ٢٤٠) ، اما في تاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٦٧) ، فقد وردت حمرين .
(٤١) هكذا وردت في تاريخ خليفة ابن خياط (٢/ ٣٦٧)، اما في تاريخ ابن الأثير (٥/٢٤٠) ، فقد وردت : مسداز .
(٤٢) كيران : مدينة بإرمينية بالقرب من البيلقان ، انظر معجم البلدان (٧ / ٣٠٥) .
(٤٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٦٧) وابن الأثير (٥ / ٢٤٠) وانظر الطبري (٧/٩٩) .
(٤٤) ابن الأثير (٥ / ٢٤٠) .
(٤٥) العبر (١ / ١٥٣) .

يخافون مروان ويهابونه ويطيعونه وينفّذون أوامره ، كما أصبح للدولة هيبة في نفوس سكّان البلاد الأصليين والوافدين ، لهذا نعمت إرمينية بالسّلام والاستقرار ، وانصرف مروان للبناء والتعمير ، إلى أن عاد أدراجه من إرمينية إلى دمشق ، على رأس جيش ضخم سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة (٧٤٤م) مطالباً بالخلافة .

لقد كان مروان في قيادته فاتحاً من أبرز الفاتحين في دولة بني أُميّة : فتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعدّدة في سنين كثيرة . وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله ، وقاتل طوائف من الناس الكفّار ومن الترك والخزر واللان وغيرهم ، فكسرهم وقهرهم ، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي (٤٦).

في الصّراع الداخليّ

١ ـ من الولاية الى الخلافة

تُوفي هِشام بن عبدالملك بن مروان سنة خمس وعشرين ومئة الهجريّة (٤٧) (٧٤٢ م) ، فتولى الخلافة من بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان ، فكتب إليه مروان بن محمد بيعته ، واستأذنه بالقدوم عليه (٤٨) ، وكان نصّ كتاب البيعة الذي بعث به مروان إلى الخليفة الجديد : « بارك الله لأمير المؤمنين فيما صار إليه من ولاية عباده ، ووراثة بلاده . وكان من تغشّي غَمْرة سكرة الولاية ما حمل هِشاماً على ما حاول من تصغير ما عظّم الله من حقّ أمير المؤمنين ، ورامَ من الأمر المستصعَب عليه ، الذي أجابه إليه المدخولون(٤٩) في آرائهم وأديانهم ، فوجد ما طمع فيه مُستصعباً ، وزاحمته الأقدار بأشدّ

(٤٦) البداية والنهاية (١٠ / ٤٧) .
(٤٧) الطبري (٧ / ٢٠٠) وابن الأثير (٥/ ٢٦١) وتاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٧٢) والعبر (١/ ١٦٠) .
(٤٨) الطبري (٧ / ٢١٦) وابن الأثير (٥ / ٢٦٨) .
(٤٩) المدخول : من في عقله دخل ، أي فساد .

مناكبها . وكان أمير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه ، حتى أزَّره بأكرم مناطق الخلافة ، فقام بما أراه الله له أهلا ، ونهض مستقلاً بما حُمِّل منها ، مثبتة ولايته في سابق الزُّبُر (٥٠) بالأجل المسمّى ، وخصّه الله بها على خلْقه وهو يرى حالاتهم ، فقلّده طَوْقها ، ورمى إليه بأزِمّة الخِلافة ، وعِصم الأمور .

« فالحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته ، ووثائق عُرَى دينه ، وذبّ له عمّا كاده فيه الظّالمون ، فرفعه ووضعهم ، فمن أقام على تلك الخَسِيسة من الأمور أَوْبَق (٥١) نفسه وأسخطَ ربّه ، ومَنْ عدلتُ به التّوبة نازعاً عن الباطل إلى حقٍ وجد الله توّاباً رحيماً .

« أُخبر أمير المؤمنين أكرمه الله ، أني عندما انتهى إليّ من قيامه بولاية خلافة الله ، نهضتُ إلى منبري ، عليّ سيفان مستعدّاً بهما لأهل الغش ، حتى أعلمتُ مَنْ قِبَلي ما امتنّ الله به عليهم من ولاية أمير المؤمنين ، فاستبشروا بذلك ، وقالوا : لم تأتنا خلافة كانت آمالنا فيها أعظم ولا هي لنا أسرّ من ولا ية أمير المؤمنين ؛ وقد بسطتُ يدي لبيعتك فجدّدتها ووكّدتها بوثائق العهود وترداد المواثيق وتغليظ الأيمان ، فكلّهم حسُنت إجابتُهم وطاعتُهم ، فأثِبْهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذي آتاكَ ، فإنك أجودهم جوداً وأبسطهم يداً ، وقد انتظروك راجين فضلك قِبَلهم بالرّحم الذي استرحموك ، وزِدْهم زيادة يَفْضَل بها مَنْ كان قِبَلك ، حتى يظهر بذلك فضلُك عليهم وعلى رعيّتك ؛ ولولا ما أُحاول من سدّ الثّغر (٥٢) الذي أنا به ، لخفتُ أن يحملني الشّوق إلى أمير المؤمنين أن استخلف رجلاً على غير أمره ، وأقدم لمعاينة أمير المؤمنين ، فإنّها لا يعد لها عندي عادل نعمة

(٥٠) الزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب .
(٥١) أوبق نفسه : أي أهلكها .
(٥٢) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

وإن عظمت ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في المسير إليه لأشافهه بأمور كرهتُ الكتاب بها فعل » (٥٣) .

ولا تخلو هذه الرسالة من مجاملة في غير موضعها ، لا يستحقها الخليفة الجديد لأنّه كان صاحب لهوٍ وصيد ولذّات حتى ثقل على النّاس وعلى جنده (٥٤) ، ولكنها تدلّ على أنّ مروان يميل إلى الوليد بن يزيد ويدين له بالولاء ، وقد بقي على ولائه ما بقي الوليد على قيد الحياة .

فقد بلغ مروان وهو في مقر عمله على إرمينية واذربيجان والجزيرة سنة ست وعشرين ومئة الهجريّة (٧٤٣ م) ، أنّ يزيد بن الوليد ابن‌عبدالملك يدعو سرّاً لنفسه ويبث‌دعاته في الأمصار ويبايع الناس سرّاً ، فكتب الى سعيد بن عبدالملك بن مروان ، وكان يدعى : سعيد الخير ، وكان أكبر بني أميّة وأفضلهم حينذاك — يأمره أن ينهي النّاسَ ويكفّهم ويحذّرهم الفتنة ويخوّفهم خروج الأمر عنهم . وأعظم سعيد ذلك ، وبعث بالكتاب إلى العبّاس بن الوليد بن عبدالملك ، فاستدعى العبّاسُ يزيد وتهدّده ، ولكن يزيدَ كتمه أمره ، فصدّقه العباس (٥٥) ، وانتهى الأمر إلى هذا الحد .

واستطاع يزيد بن الوليد بن عبدالملك قتل الخليفة الجديد ، الوليد بن يزيد بن عبدالملك وتولى الخلافة من بعده ، فاضطرب أمر بني أُميّة اضطراباً شديدا .

ولعلّ أخطر الاضطرابات التي انتشرت انتشاراً خاطفاً ، مخالفة مروان بن محمد للخليفة يزيد بن الوليد بن عبدالملك سنة ست وعشرين ومئة الهجريّة ، وإظهار هذا الخلاف .

وبدأ ابن مروان بن محمد وهو عبدالملك بن مروان بن محمد بالوثوب

---

(٥٣) الطبري (٢١٦/٧ — ٢١٧) . (٥٤) الطبري (٧ / ٢٣١) .
(٥٥) الطبري (٧ / ٢٣٨) وابن الأثير (٥ / ٢٨٤) .

على حَرّان والجزيرة فضبطهما بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، ثم كتب إلى أبيه مروان وهو بارمينية يُعْلمه بذلك ويشير عليه بالتّعجيل بالمسير إلى دمشق ، فتهيأ مروان للمسير ، وأنفذ إلى الثغور مَن يضبطها ويحفظها ، وأظهر أنّه يطالب بدم الوليد بن يزيد ، وسار ومعه الجنود ومعه ثابت بن نُعَيْم الجُذاميّ من أهل فلسطين .

وسبب صحبة ثابت ، أنّ هشام بن عبدالملك ، كان قد حبسه ، لأنّ هشاماً أرسله إلى إفريقية لما قتلوا عاماه كُلْثوم بن عِياض فأفسد الجند ، فحبسه هشام . وقدم مروان على هشام في بعض وفاداته ، فشفع بثابت ، فقبل هشام شفاعته وأطلق سراحه ، فاستصحبه معه مروان إلى إرمينية .

ولما سار مروان مسيره هذا ، أمر ثابت بن نُعَيْم مَنْ مع مروان من أهل الشّام بالانضمام إليه ومفارقة مروان ، ليعود بهم إلى الشّام ، فأجابوه إلى ذلك ، واجتمع معه ضعف مَنْ مع مروان ، وباتوا يتحارسون ، ولكن مروان هدّدهم ، فانقادوا له ، فأخذ ثابت بن نُعَيْم وأولاده وحبسهم ، وضبط الجند حتى بلغ حرّان ، ثم سيّرهم إلى الشّام .

ودعا مروان أهل الجزيرة إلى التجنيد ، ففرض لنيِّف وعشرين ألفاً ، وتجَهز للمسير إلى يزيد بن الوليد بن عبدالملك في دمشق .

وكاتبه يزيد ليبايع له ، على أن يولّيه ما كان عبدالملك بن مروان ولّى أباه محمد بن مـروان من الجزيرة وإرمينية وأذربيجان ، فبايعه مـروان ، وأعطاه يزيد ولاية ما ذكر له (٥٦) .

والذي يبدو أنّ مروان تظاهر بالمطالبة بدم الوليد ، لأنّه خشي أن يعزله الخليفة الجديد يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، فلما أمَرّه على الجزيرة وإرمينية

---

(٥٦) الطبري (٧ / ٢٩٧) وابن الأثير (٥ / ٣٠٩ - ٣١٠).

وأذربيجان بايع يزيد وكفى الله المؤمنين شرّ القتال ، وهكذا كان طموح مروان غير المشروع ، هو المحرّك لاقدامه على الخلاف .

والدليل على أنّ طموحه غير المشروع هو الذي دفعه إلى الخلاف ، وحرصه على الولاية التي يحكمها من زمن بعيد أولاً وقبل كلّ شيء ، هو أنّه لم يخالف الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، وكان فاسقاً متهتّكا (٥٧) ، وخالف يزيد بن الوليد بن عبدالملك وكان فيه زُهْدٌ وعدلٌ وخير (٥٨) ، لأنّ الوليد أقرّه على ولايته ، ولانّ يزيد لم يقرّه في بداية أيام خلافته ، ثم أقرّه على ولايته حين علم بمخالفته ، فبايع يزيد ونسي خِلافه وحمَده إلى حين .

ولكنّ يزيد بن الوليد بن عبدالملك تُوفي في هذه السنة ، وهي سنة ست وعشرون ومئة الهجرية بعد أن تولى الخلافة ستة أشهر تقريباً (٥٩) ، فتولّى الخلافة من بعده إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك (٦٠) ، فأظهر مروان خلافه من جديد ، فقد دفعه طموحه غير المشروع إلى الطمع في تولّي أعلى منصب في الدولة الإسلامية ، كأنّ منصبه الحالي لا يرضي طموحه الجّامح بعد اليوم ، حيث كان يرى نفسه أحق بالخلافة من الجالس على العرش .

وسار مروان بالجنود ، وخلّف ابنه عبدالملك في جمع عظيم بالرَّقّة ، فلما انتهى مروان إلى قِنّسْرين ، لقى بها بِشْر بن الوليد بن عبدالملك ، وكان ولاّه أخوه يزيد قِنّسْرين ومعه ، أخوه مَسْرور بن الوليد .

واستعدّ الجانبان للقتال ، فدعاهم مروان إلى بيعته ، فمال إليه يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة في القَيْسيّة وأسلموا بِشْراً وأخاه مَسْروراً ، فأخذهما مروان وحبسهما ، ثمّ سار ومعه أهل قِنّسْرين متوجّهاً إلى حِمْص .

---

(٥٧) العبر (١٦١/١) .
(٥٨) العبر (١٦٢/١) .
(٥٩) الطبري (٢٩٨/٧) .
(٦٠) ابن الأثير (٣١١/٥) .

وكان أهل حمص قد امتنعوا حين مات يزيد من بيعة إبراهيم بن الوليد ابن عبدالملك الذي تولّى الخلافة بعد يزيد بعهدٍ منه ، على أن يتولى الخلافة من بعده عبدالعزيز بن الحجّاج بن عبدالملك (٦١) ، فلم يبايع أهل حمص إبراهيمَ وعبدالعزيز ، فوجّه إليهم إبراهيمُ لقتالهم عبدالعزيز وجند أهل دمشق ، فحاصروا أهل حمص في مدينتهم .

وأسرع مروان في مسيرته باتّجاه حمص ، فلما دنا منها ، رحل عنها عبدالعزيز ، فخرج أهلها إلى مروان وبايعوه وساروا معه نحو دِمَشق .

ووجّه إبراهيم بن الوليد الجنود من دمشق مع سليمان بن هُشام بن عبدالملك ، للقاء مروان وصدّه عن دمشق ، فنزل سليمان موضع : (عين الجرّ) (٦٢) في مئة وعشرين ألفاً ، ونزلها مروان في ثمانين ألفاً .

ودعا مروان أهل دمشق إلى الكفّ عن قتاله وإطلاق سراح ابني الوليد ابن يزيد بن عبدالملك من السِّجن ، وكانا قد سُجنا بعد مقتل أبيهما ، وضمن لهم مروان أنّه لا يطلب أحداً من قَتَلَة الوليد إذا كفّوا عن قتاله ، فلم يجيبوه وجدّوا في قتاله .

واقتتل الجانبان ما بين ارتفاع النّهار إلى العصر ، وكثر القتل بينهما .

وكان مروان ذا رأيٍ ومكيدة ، فأرسل ثلاثة آلاف فارس ، فساروا خلف عسكره ، وقطعوا نهراً كان هناك ، وقصدوا عسكر دمشق ليغيروا فيه ، فلم يشعر سليمان ومَنْ معه وهم مشغولون بالقتال إلاّ بالخيل والبارقة والتكبير في عسكرهم من خلفهم . فانهزم عسكر دمشق ، ووضع أهل حمص السِّلاح فيهم لحنقهم عليهم ، فقتلوا منهم سبعة عشر ألفاً ، وكفّ أهل الجزيرة وأهل قِنّسرين عن قتلهم ، وأتوا مروان من أسراهم بمثل القتلى وأكثر

(٦١) ابن الأثير (٥ / ٣٠٨) .

(٦٢) عين الجر : موضع معروف بسهل البقاع ، بين بعلبك ودمشق ، انظر معجم البلدان (٦/٢٥٤) .

فأخذ مروان عليهم البيعة لولدَيْ الوليد : الحكم وعثمان ، وخلّى عن الأسرى الباقين عدا اثنين من الأسرى تولياً قتل الوليد ، فحبسهما فماتا في السِّجن .

وهرب يزيد بن خالد بن عبدالله القَسْرِيّ فيمَنْ هرب مع سليمان إلى دمشق ، واجتمعوا مع إبراهيم وعبدالعزيز بن الحجّاج ، فقال بعضهم لبعض : إنْ بقي ولدا الوليد : الحكم وعثمان ، حتى يُخْرِجهما مروان ويصير الأمر إليهما ، لم يَسْتَبْقِيا أحداً من قتَلَة أبيهما ، والرأي قتلهما ، فقُتِلا .

وتقدّم جيش مروان كالسّيل الجارف إلى دمشق . فدخلتها خيل مروان أولاً ثم مشاته بعد الخيل ، فهرب إبراهيم وهو الخليفة واختفى ، وانتهب سليمان ما في بيت المال وقسمه في أصحابه وخرج من المدينة ، وهرب أشياع الخليفة واختفوا ، ودخل مروان المدينة لا ينازعه أحد فيها (٦٣) .

وما قَتَلَ الحكَم وعثمانَ وهما ابنا الوليد بن يزيد بن عبدالملك والوريثان الشرعيان للخلافة ، مَنْ قتلهما من أصحاب إبراهيم بن الوليدبن عبدالملك الخليفة المخلوع ، ولكنّ الذي قتلهما هو مروان ، فقد ذبحهما بغير سكين ، حين أجبر أسرى جيش دمشق في معركة : (عين الجرّ) على بيعتهما ، ولا أظنّ أنّ مروان بدرجة من الغباء بحيث يغفل عن خطورة بيعتهما وهما في سجن إبراهيم ، ويبدو أنّه أراد أن يُزيل آخر عقبة أمامه تحول بينه وبين الخلافة ، فأقدم على ما أقدم ليتخلص منهما ، على الرغم من تظاهره بنصرتهما والمطالبة بدم الوليد أبيهما ، وهو في الواقع لا يطالب بغير الخلافة لنفسه ، لأنّه كان يرى أنه أحقّ بها من غيره في حينه .

---

(٦٣) الطبري (٧ / ٣٠٠ – ٣٠٢) وابن الأثير (٥ / ٣٢١ – ٣٢٢) .

وبدأت تمثيليّة بيعة مروان بالخلافة ، إذ لم يبق أحد ينازعه في تولي هذا المنصب الرفيع ، فقد أُتي مروان بالغلامين الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد بن عبدالملك مقتولين وغيرهما فدفنهم ، وأُتي بأبي محمد السفياني الذي نجا من القتل بأعجوبة ، وكان مع ابني الوليد بن يزيد في السجن ، وقد أُتي به في قيوده ، فسلّم على مروان بالخلافة !

وكان مروان يُسلّم عليه يومئذٍ بالإمرة .

واستنكر مروان التّسليم عليه بالخلافة ، ولكن أبا محمد السفياني قال : « إنهما – ويريد الغلامين الحكم وعثمان – جعلاها لك بعدهما » ، وأنشده شعراً قاله الحكَم في السجن ، وكانا قد بلغا و ولد للحكم مولود ، وهذا هو شعر الحكم الذي رواه السفياني لمروان :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ مَرْوَان عنـــّي ... وعَمّي الغَمْـــرَ طال به حنينا(٦٤)
بأني قد ظُلمتُ وصار قـــومـــي ... على قتل الوليد مشايعــينـــا (٦٥)
أيــذهبُ كلُّهـــم بدمــى ومالي ... فــلا غثّاً أصبــتُ ولا سَمينا(٦٦)
ومـــروانٌ بأرض بنـــي نِزارٍ ... كليث الغـــاب مفترسٌ عرينا (٦٧)
أتُنْكَثُ بَيْعتي من أجل أمـــي ... فقد بايعتُم قبلي هجينـــا (٦٨)

---

(٦٤) في الطبري (٧ / ٣١١) : طال بذا حنينا .
(٦٥) في الطبري : متابعينا .
(٦٦) في الطبري : أيذهب كلبهم .
(٦٧) ورد في الطبري بعد هذا البيت الأبيات التالية

الم يحزنك قتل فتى قريـــش ... وشـــقهم عصى المسلمـــينا
ألا فاقر الســـلام على قريـش ... وقيس بالجزيـــرة أجمعينا
وساد الناقص القدري فـــينا ... وألقى الحـــرب بين بني أبينا
فلو شهد الفـــوارس من سليم ... وكعب لم أكن لهم رهـينا
ولـــو شهدت لـيوث بني تميم ... لما بعـــنا تراث بني أبينـــا

(٦٨) بعد هذا البيت في الطبري :

فـليت خؤولتي من غـير كلب ... وكانت في ولادة آخـــرينا

فإن أهْلِكْ أنا وولّي عَهْدِي فمروان أمير المؤمنينا

ثمّ قال : « ابسط يدك أبايعك » .

وسمعه مَنْ مع مروان ، وكان أوّل من بايعه معاوية بن يزيد بن حُصَيْن بن نُمَيْر ورؤوس أهل حِمْص والناس بعده .

ولما استقرّ له الأمر ، رحل إلى منزله بحَرَّان .

وطُلب منه الأمان لإبراهيم بن الوليد بن عبدالملك وهو الخليفة المتنازل عن الخلافة ، وسليمان بن هشام بن عبدالملك ، فآمنهما . وقد وفدا عليه وهو في حَرَّان ، وبايعاه بالخلافة ، وكان سليمان بـ : (تَدْمُر) بمن معه من إخوته ومواليه ، فبايعوا جميعاً مروان بن محمد بن الحَكَم (٦٩) .

وليس المهم تحقيق صحّة نسبة هذه الأبيات إلى الحَكَم ، فالظلال على نسبتها كثيفة قاتمة ، فبالرغم من سذاجة الابيات الشعريّة ، إلاّ أنّها يصعب على الحكم قولها في ظروفه الحرجة وهو بين الحياة والموت وقد بلغ الحلم أو لم يبلغه ، كما يصعب على هذا السفياني حفظ هذا الشعر وهو مهدّد بالموت في السِّجن يلجأ إلى أحد دهاليسه ويغلق عليه الباب ، وخافه السيوف مصلتة تريد رأسه ، فينقذ من القتل وصول جند مروان في تلك اللحظات الحرجة الحاسمة إلى السِّجن .

المهمّ أنّ مروان حقّق ما طمح إليه في تسنّم سدّة الخلافة ، وبعد انتصاره على جيش الخلافة أصبح سيِّد الموقف بدون منازع ، ولو لم يتطوّع السفياني باختلاق ما أعلنه من اساطير ، لتطوّع لإعلان مثلها غيره من النّهازين الخبراء كلّ الخبرة بإسماع السلطان ما (يحبّ) أن يسمع لاما (يجب) أن يسمع ، فأكثر الناس مع (الواقف) لا مع (القاعد) بصرف النظر عن أيّهما يكون

(٦٩) الطبري (٧ / ٣١١ - ٣١٢) وابن الأثير (٥ / ٣٢٣ - ٣٢٤) .

معه الحقّ وأيّهما يكون معه الباطل ، فهم مع (القوي) حتى إذا كان على الباطل ، على (الضعيف) حتى إذا كان على الحق .

وقد ظنّ مروان أنّه بلغ أوج سعادته في تسنّمه الخلافة ، وما درى أنّه بلغ أوّل شقائه في تسنّمها ، فقد انتهت بالخلافة أيام رخائه ، وبدأت بها أيام شقائه ، حتى قُتل شريداً طريداً غريباً محروماً من أبسط حق من حقوق الإنسان : القبر .

٢ ـ أوّل الغيث

أ ـ كانت بيعة مروان بالخلافة سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة (٧٤٤م)، وفي هذه السنة بالذّات ظهر عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا إلى نفسه ، فقاتله جيش الدولة وانتصر عليه ، فلجأ إلى (المدائن) بعد أن أُعطي له الأمان ، ولكنه جمع الجموع فغلب على حُلوان والجبال وهَمَدان وأصبهان والريّ (٧٠) ، واشتبك بعدة معارك طاحنة اندحر فيها ، فهرب إلى أبي مُسْلم الخراساني الذي أعلن الدعوة العباسيّة بخُراسان ، فقتاه أبو مسلم الخراساني سنة تسع وعشرين ومئة الهجرية (٧١) (٧٤٦ م) .

ب ـ وفي هذه السّنة انتقض أهل حِمْص على مروان ، فلما عاد إلى حرّان بعد فراغه من أهل الشّام ، أقام ثلاثة ، فانتقض عليه أهل حمص .

وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نُعَيْم الذي راسلهم محرّضا ، وبعث إليهم مَنْ بتَدْمُر من كَلْب في نحوٍ من ألفٍ من فرسانهم ، فدخلوا حمص ليلة عيد الفطر .

(٧٠) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥ / ٣٢٤ - ٣٢٧) .
(٧١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣٧٠ - ٣٧٣) .

وتوجّه مروان في السّير الى حمص ومعه الخليفة المخلوع ابراهيم بن الوليد بن عبدالملك وسليمان بن هشام بن عبدالملك ، وكان مروان قد آمنهما وكان يكرمهما إكراماً كبيرا .

وبلغ مروان حمص بعد الفطر بيومين ، وقد سدّ أهلها أبوابها ، فأحدق بالمدينة ، و وقف بإزاء باب من ابوابها ، فنادى مناديه الذين عند الباب : « ما دعاكم إلى النكث ؟ ! » ، فقالوا : « إنّا على طاعتك ، لم ننكث ! » ، فقال : « فافتحوا الباب » ، ففتحوا الباب !

ودخلت قوّات مروان حمص في نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، فقاتلهم مَنْ في البلد ، ولكنّ خيل مروان هاجمتهم بشدّة وتكاثرت عليهم .

وخرجت قوّات حمص من باب تَدْمُر ، أحد أبواب المدينة ، فقاتلهم مَنْ عليه من أصحاب مروان ، فقتل عامّة مَنْ خرج منه ، ولم يفلت منهم غير الشّريد .

وقتل مروان جماعة من الأسرى ، وصلب خمسمائة من القتلى حول المدينة ، وهدم من سورها نحو غَلْوَة (٧٢) .

وغير الواضح في هذه المعركة ، هو سبب فتح باب من أبواب المدينة للمهاجمين ، ولا تعليل له إلاّ أن يكون سكّان المدينة غير مجمعين على حرب مروان ، ففتح له الباب الذين كانوا لا يريدون قتاله من أهل حمص ، وأفسحوا له المجال لقتال المخالفين .

وعلى كلّ حال ، فقد كانت قوّات الجانبين غير متكافئة ، وكان التفوق مع جيش مروان ، لذلك انتصر على أهل حمص ، وبالغ في عقابهم الصّارم ، على نقضهم الذي لا مسوّغ له ، بعد أن كانوا معه على أعدائه .

---

(٧٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣١٢ – ٣١٦) وابن الأثير (٥ / ٣٢٨ – ٣٢٩) ، والغلوة : مقدار رمية سهم ، وتقدر بثلاثمائة ذراع إلى إربعمائة ذراع .

ج- وفي هذه السنة أيضاً، سنة سبع وعشرين ومئة، خالفه أهل الغُوْطَة(٧٣) وهي الكورة التي منها دمشق ، وولّوا عليهم يزيد بن خالد القَسْريّ ، وحصروا دمشق .

ووجّه إليهم مروان من حمص أحد قادته في عشرة آلاف مقاتل ، فلما دنَوا إلى المدينة حملوا على المخالفين .

وخرج عليهم مَنْ بالغوطة ، واشتبك الجانبان ، فانهزم أهل الغوطة ، واستباح جيش عسكرهم ، وأحرقوا (المِزَّة) ، وكانت قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نصف فرسخ (٧٤) ، كما أحرقوا قرى اليمانيين المجاورة للغُوطة ، وأُخذ يزيد بن خالد فقُتل . وبُعث برأسه إلى مروان بحمص (٧٥) .

د- وفي هذه السنة أيضاً ، سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة ، خرج ثابت ابن نُعَيْم بعد أهل حمص ودمشق . معلناً خلافه لمروان، وكان مع ثابت في أهل فلسطين .

وتقدم ثابت بمن معه إلى مدينة (طَبَرِيّة) فحاصرها ، وكان عليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم وهو ابن عم مروان بن محمد بن الحكم.

وكتب مروان إلى قائده الذي بعثه إلى الغُوطة يأمره بالمسير إلى أهل فلسطين المخالفين ، فسار إليهم ، فلما قرب منهم خرج أهل طبريّة على ثابت ، فهزموه واستباحوا عسكره .

وانصرف ثابت إلى فلسطين منهزماً ، ولكنّ قائد مروان الذي بعثه لقتاله طارده . فالتقوا واقتتلوا ، فَهُزم ثابت ثانية وتفرّق أصحابه ، وأسر ثلاثة من أولاد ثابت . واستطاع ثابت وابنه رفاعة أن يلوذا بالفرار .

---

(٧٣) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦ / ٣١٤ - ٣١٥) .
(٧٤) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٤٧) .
(٧٥) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣١٣ - ٣١٤) وابن الأثير (٥ / ٣٢٩) .

واستعمل مروان أحد رجاله على فلسطين ، فظفر بثابت وبعثه إلى مروان موثقاً بعد شهرين ، فأمر به وبأولاده الثلاثة ، فقتلوا جميعاً ، ثم حُملوا إلى دمشق ، فأُلقُوا على باب المسجد . ثم صلبهم على أبواب دمشق (٧٦) .

ه — وكان مروان في هذه السّنة قد بايع لابنيه عُبيدالله وعبدالله وزوّجهما ابنتيْ هشام بن عبدالملك ، وجمع كذلك بني أُميّة ، واستقام له الشّام ما عدا تدمُر ، فسار إليها ونزل القَسْطَل (٧٧) ، وبينه وبين تَدْمُر أيّام ، وكانوا قد عوّروا (٧٨) المياه ، فاستعمل المزاد والقِرب والأعلاف والإبل . وكلّمه الأبرش بن الوليد بن عبدالملك وسليمان بن هشام بن عبدالملك وغيرهما ، وسألوه أن يُعذِر إليهم ويحتجّ عليهم ، فأجابهم إلى ذلك . ووجّه الأبرش إليهم أخاه عمرو بن الوليد ، فلم يستجيبوا له ، فقصدهم الأبرش وخوّفهم وحذّرهم ، فأجابوا إلى الطّاعة ، وهرب بعضهم إلى البر مِمّنْ لم يثق بمروان ، ورجع الأبرش إلى مروان ومعه مَنْ أطاع بعد أن هدم سورها (٧٩)

و — وكان مروان في هذه السّنة أيضاً ، قد سيّر يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة بين يديه إلى العراق لقتال الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجيّ ؛ وضرب على أهل الشّام بعثاً ، وأمرهم باللّحاق بيزيد .

وسار مروان إلى الرُّصافة (٨٠) ، فاستأذنه سليمان بن هشام بن عبدالملك ليقيم أياماً ليقوى ويستريح هو ومَنْ معه ، فأذن له مروان بالبقاء .

---

(٧٦) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣١٤) وابن الأثير (٥ / ٣٣٠) .

(٧٧) القسطل : موضع بين حمص ودمشق ، انظر معجم البلدان (٧ / ٨٦) .

(٧٨) عور البئر : أفسدها .

(٧٩) انظر التفاصيل في الطبري (٧/٣١٤–٣١٥) وابن الأثير (٥/٣٣٠ – ٣٣١) .

(٨٠) الرصافة : يريد هنا رصافة الشام التي يطلق عليها رصافة هشام ، غربي الرقة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤ / ٢٥٥) .

وتقدّم مروان إلى (قَرْقِيْسِيَاء) (٨١) وبها ابن هُبَيْرَة ليقدّمه إلى الضحّاك في العراق ، فرجع عشرة آلاف كان مروان قد أَخَذَهم من أهل الشّام لقتال الضحّاك ، فأقاموا بالرُّصافة ، ثمّ دعوا سليمان بن هشام بن عبدالملك إلى خلع مروان ، فأجابهم سليمان إلى ما دعوه إليه وأعلن خلع مروان بن محمّد .

وسار سليمان بإخوته ومواليه مع جند الشام الذين رفضوا السير إلى العراق مع مروان ، فعسكر بقنّسرين وكاتب أهل الشّام ، فأتوه من كلٍّ وجه .

وبلغ الخبرُ مروانَ ، فرجع من قرقيسياء ، وكتب إلى ابن هُبَيْبِرَة يأمره بالمقام في قرقيسياء .

واجتاز مروان في رجوعه بحصن الكامل بين قرقيسياء وقنّسرين ، وكان فيه جماعة من موالى سليمان وأولاد هشام بن عبدالملك ، فأرسل إليهم مروان : « إني أحذّركم أن تعرضوا لأحدٍ ممّنْ يتبعني من جندي ، فإن فعلتم فلا أمان لكم عندي » ، فأرسلوا إليه : إنا لا نتعرّض بأحدٍ ممّنْ معك.

ومضى مروان ، فجعل الذين في حصن الكامل يغيرون على مَنْ يتبعه من أخريات النّاس ، وبلغه ذلك فتغيّظ عليهم .

واجتمع إلى سليمان نحو من سبعين ألفاً من أهل الشام وغيرهم ، وعسكر بقرية (خُسَاف) (٨٢) من أرض قِنّسرين .

وقدم مروان إلى معسكر سليمان بن هشام ، وواقعه عند قدومه مباشرة ، فاشتدّ القتال بين الجانبين ، فانهزم سليمان ومَنْ معه . وطاردتهم خيل مروان

---

(٨١) قرقيسياء : بلد على نهر الخابور (خابور الفرات) قرب الرحبة على ستة فراسخ منها ، وعندها مصب الخابور في الفرات ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ٥٩ – ٦٠) .

(٨٢) خساف : برية بين بالس وحلب ، مشهورة عند أهل حلب وبالس ، وكان بها قرى انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ٤٣٦) .

تقتل وتأسر . واستباح جيش مروان معسكر جيش سليمان ، ثمّ وقف مروان في نقطة للسيطرة على السّابلة ، ووقف ابناه في نقطتين أخريين ، ووقف كَوْثر صاحب شرطة مروان في نقطة رابعة ، وأمرهم ألاّ يؤتوا بأسير إلاّ قتلوه إلاّ عبداً مملوكاً ، فأُحصي قتلاهم يومئذ ما نيّف على ثلاثين ألف قتيل ، وقُتل إبراهيم بن سليمان أكبر ولده وخالد بن هشام المخزومي خال هشام بن عبدالملك وادّعى كثير من الأسرى لجند مروان أنّهم عبيد ، فكفّ عن قتلهم وأمر ببيعهم ، وكان عددهم أكثر ممن أُصيب من عسكرهم .

ومضى سليمان حتى انتهى إلى حِمْص ، وانضمّ إليه مَنْ أفلت ممّنْ كان معه ، فعسكر في حمص وبنى ما كان مروان أمر بهدمه من سورها . وسار مروان إلى حصن الكامل حنقاً على مَنْ فيه ، فحصرهم وأنزلهم على حكمه ، ومثّل بهم وأخذهم إلى الرَّقّة ، فداووا جراحاتهم ، وهلك بعضهم وبقي أكثرهم ، وكانت عدّتهم نحواً من ثلاثمائة .

وسار مروان إلى سليمان ومَنْ معه ، فقال بعضهم لبعض : حتى متى ننهزم من مروان ؟ !

وتبايع سبعمائة من فرسانهم على الموت ، وساروا بأجمعهم مجمعين على أن يبيّتوا مروان إنْ أصابوا منه غِرّة .

وبلغ مروانَ خبرهم ، فتحرّز منهم ، وزحف إليهم في الخنادق على احتراس وتعبية ، فلم يُمكِّنهم أن يبيّتوه .

وكمنوا له في حقل للزيتون في طريقه ، وخرجوا عليه وهو يسير على تعبية ، فوضعوا السِّلاح فيمَنْ معه ، فحشد خيوله التي كانت في المقدمة والمجنبتين ، وقاتلاهم من ارتفاع النّهار إلى العصر ، فانهزم أصحاب سليمان مرة أخرى ، وقُتل منهم نحو من ستّة آلاف .

ولما بلغ سليمان هزيمة رجاله ، خلّف أخاه سعيداً بحمص ، ومضى هو إلى تَدْمُر فأقام بها :

ونزل مروان على حمص ، فحصر أهلها عشرة أشهر ، ونصب عليهم نيِّفاً وثمانين منجنيقاً يُرمى بها ليلاً ونهاراً ، وأهل حمص يخرجون إليه كلّ يوم فيقاتلونه ، وربّما بيّتوا نواحي عسكره في بعض الأحيان .

ولما طال عليهم البلاء ، طلبوا الأمان على أن يمكّنوه من سعيد بن هشام ابن عبدالملك وابْنَيْه عثمان ومروان ومن بعض الذين نصبوا له العداء ، فاستوثق من سعيد وابنيه ، وقتل أعداءه ، .

وقيل : إنّ سليمان بن هشام لما انهزم بخُساف ، أقبل هارباً حتى صار إلى عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز بالعراق ، فخرج معه إلى الضحّاك بن قيس الخارجيّ ، فبايعه وحرّض على مروان ، فقال بعض شعرائهم :

ألـم ترَ أنّ اللهَ أَظْهرَ دينَـهُ وصلّتْ قريشٌ خلفَ بكرِ بنِ وائل(٨٣)

وكان الضّحاك بن قيس من بني شَيْبَان من بكر بن وائل .

ز — وفي هذه السنة أيضاً ، خرج الضّحاك بن قيس الشيباني الخارجي في العراق ، فسار إليه مروان ومعه يزيد بن عمر بن هُبَيْرة الذي قدّمه إلى قرقيسياء ، ولكن فتنة سليمان بن هشام جعلت مروان يعود أدراجه من قرقيسياء ويقضي على فتنة سليمان ، ثم يعود إليها على رأس جيشه ، وكان قد أمر ابن هبيرة بالمقام في قرقيسياء ريثما يعود إليه .

وسبب خروج الضّحاك الخارجي في العراق على الدولة ، نّ الوليد بن يزيد بن عبدالملك حين قُتل ، خرج بالجزيرة حرَوريّ يقال له : سعيد بن بَهْدَل الشّيبانيّ في مئتين من أهل الجزيرة ، فيهم الضّحاك بن قيس الشيباني فاغتنم قتل الوليد واشتغال مروان بالشّام ، فخرج في الجزيرة ثم سار إلى العراق لما بلغه أنّ الاختلاف بها أيضاً ، فمات سعيد بن بهدل في الطريق ،

(٨٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٢٤ — ٣٢٧) وابن الأثير (٥ / ٣٣١ — ٣٣٣) .

واستُخلف الضّحاكُ بن قيس ، فبايعه الشُّراة (الخوارج) ، فأتى أرض الموصل ثمّ (شَهْرَزور) (٨٤)، واجتمعت إليه الصُفريـّة (فرقة من الخوارج) حتى صار في اربعة آلاف .

وهلك يزيد بن الوليد ، وكان عامله على العراق عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز ، فلما تولى مروان الخلافة ، كتب إلى النّضْر بن سعيد الحَرَشِيّ بولاية العراق ، فلم يسلّم ابن عمر إليه العمل .

وشخص النّضْر إلى الكوفة ، وبقي ابن عمر بالحيرة ، فتحاربا أربعة أشهر ، وأمدّ مروانُ النّضْر .

واجتمعت المُضَرِيّة مع النّضر عصبيّة لمروان حيث طلب بدم الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، وكانت أمّ الوليد قيسيّة من مُضَر ، وكان أهل اليمن مع ابن عمر عصبية له ، حيث كانوا يؤيدون يزيد بن الوليد بن عبدالملك في قتل الوليد .

فلما سمع الضّحاك باختلافهم ، أقبل نحوهم وقصد العراق سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة ، فأرسل ابن عمر إلى النّضر : « أنّ هذا لا يريد غيري وغيرك ، فَهَلُمَّ نجتمع عليه » .

وتعاقدا عليه واجتمعا بالكوفة ، وكان كلٌ منهما يصلي بأصحابه .

وأقبل الضّحاك ، فنزل بـ : (النُخَيْلَة) (٨٥)، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فكشف الخوارج ابن عمر وقتلوا أخاه عاصما ، فدخل ابن عمر خندقه ، وبقي الخوارج يحيطونه إلى اللّيل ثم انصرفوا .

---

(٨٤) شهرزور : كورة واسعة في الجبال ، بين أربيل وهمذان ، فيها مدن وقرى كثيرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ٣١٢ - ٣١٤) .

(٨٥) النخيلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٢٧٦ - ٢٧٧) .

وفي اليوم الثاني اقتتل الجانبان قتالاً عنيفاً ، فانهزم أصحاب ابن عمر ودخلوا خنادقهم ، فلما أصبحوا تسالل أصحابه نحو واسِط ، لأنهم رأوا قوماً لم يروا أشد بأساً منهم .

وكان ممن لحق بواسط النّضْر بن سعيد الحَرَشِيّ وغيره من الوجوه ، وبقي ابن عمر فيمَنْ عنده من أصحابه لم يبرح ، فقال له أصحابه : قد هرب الناس ، فعلامَ نُقيم ؟ !

وبقي ابن عمر يومين آخرين لا يرى إلاّ هارباً ، فرحل عند ذلك إلى واسط ، واستولى الضّحاك على الكوفة ودخلها .

ووصل ابن عمر إلى واسط ، فنزل بدار الحجاج بن يوسف الثقفي ، فعادت الحرب بينه وبين النّضر إلى ماكانت عليه قبل قدوم الضحّاك إلى العراق ، النّضر يطلب أن يسلِّم اليه ابن عمر ولاية العراق بعهد مروان له ، وابن عمر يمتنع .

وســـار الضحّاك من الكوفة إلى واسِط ، فلما رأى ابن عمر والنّضر ذلك تركا الحرب بينهما واتّفقا على قتال الضحّاك ، فاستمرّ القتال بين الجانبين ثلاثة أشهر متواصلا .

وقال أحد الرجال لابن عمر : « مارأيتُ مثل هؤلاء ! فلِمَ نحاربهم ونَشْغلهم عن مروان ؟ أعطهم الرِّضا واجعلْهم بينك وبين مروان ، فأنَهم يرجعون عنّا اليه ويوسعون شرّاً، فان ظفروا به فذلك ما أردت وكنتَ عندهم آمنا ، وإن ظفر بهم وأردت خلافه وقتاله قاتلته وأنت مستريح ! » .

ثم إنّ عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز خرج إلى الضحّاك وصالحه وبايعه ، ومعه سليمان بن هشام بن عبدالملك (٨٦) .

---

(٨٦) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٢٧ – ٣٢٩) وابن الأثير (٥ / ٣٣٤ – ٣٣٧) .

ح – وفي هذه السنة أيضاً خلع أهل الأندلس أبا الخُطّار الحُسام بن ضِرار أميرهم .

وسبب ذلك أنه لما قدم الأندلس أميراً ، أظهر العصبية لليمانيّة على المُضَرِيّة فاتفق في بعض الأيام أنه اختصم رجل من كِنانة ورجل من غسّان ، فاستعان الكِناني بالصُّمَيْل بن حاتم بن ذي الجَوْشَن الضِّبابيّ ، فكلّم به أبا الخُطّار ، فاستغلظ أبو الخطّار ، فأجابه الصميل فأمر به فأُقيم وضُرِب قفاه ، فمالت عِمامته ، فلما خرج قيل له : نرى عمامتك مالت ! فقال : « إن كان لي قوم فسيقيمونها ! » .

وكان الصُّميل من أشراف مُضَر ، فلما دخل الأندلس شرف فيها بنفسه وأوليّته ، فلما جرى له ماذكرناه جمع قومه وأعلمهم ، فقالوا له : نحن تَبَعٌ لك ، فقال : « أريد أن أُخرج أبا الخطّار من الأندلس » ، فنصحه بعض أصحابه أن يستعين بأبي عطاء القَيْسيّ ، وكان من أشراف قيس ، وكان يناظر الصُّميل في الرياسة ويحسده ، وقالوا نه : الرأي أنك تأتي أبا العطاء وتشدّ أمرك به ، فانه تحرّكه الحميّة وينصرك ، وإن تركته مال إلى أبي الخطّار وأعانه عليك ليبلغ فيك مايريد ، والرأي أيضاً أن تستعين عليه بأهل اليمن فضلاً عن مَعَدّ (٨٧) .

وسار من ليلته إلى أبي عطاء ، فعظّمه أبو عطاء ، وسأله عن سبب قدومه فأعلمه ، فلم يكلّمه حتى قام فركب فرسه ولبس سلاحه ، وقال له : « انهضِ الآن حيث شئت ، فأنا معك » ، ثمّ أمر أهله وأتباعه باتّباعه .

واستعان الصميل بثَوَابَة بن سلامة الحدّاني ، وكان مطاعاً في قومه ، وكان أبو الخطّار استعمله على إشْبِيْلِيَة وغيرها ثمّ عزله ، ففسد عليه ،

(٨٧) معد بن عدنان ، وكنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، بن نزار بن معد بن عدنان .

فدعاه الصّميل إلى نصره ، ووعده أنه إذا أخرجوا أبا الخطّار صار أميراً ، فأجاب إلى نصره ، ودعا قومه فأجابوه .

وسار أبو الخطّار إليهم من قُرطبة ، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً . وصبر الفريقان ، ثم وقعت الهزيمة على أبي الخطّار ، وقُتل أصحابه أشدّ قتل ، وأُسر أبو الخطّار .

ولما انهزم أبو الخطّار ، سار ثوابة بن سلامة والصُّميل الى قُرْطبة فملكاها واستقرّ ثوابة في الإمارة ، فثار به عبدالرحمن بن حسّان الكلبيّ وأخرج أبا الخطّار من السّجن ، فاستجاش (طلب منهم جيشاً) اليمانيّة ، فاجتمع له خلق كثير . وأقبل بهم إلى قُرطبة ، فخرج إليه ثوابة بمن معه من اليمانيّة والمُضَرِّيّة مع الصُّميل .

ولما تقاتل الطائفتان نادى رجلٌ من مُضَر : يا معشر اليمانيّة ! ما بالكم تتعرّضون للحرب على أبي الخطّار ، وقد جعلنا الأمير منكم ؟ ! يعني ثوابة ، فإنّه من اليمن ، ثم أضاف ، ولو أنّ الأمير منّا ، لقد كنتم تعتذرون في قتالكم لنا ، وما نقول هذا إلاّ تحرّجاً من الدماء ورغبة في العافية للعامة ! فلما سمع النّاس كلامه ، قالوا : صدق والله ، الأمير منّا فما بالنا نقاتل قومنا ؟ فتركوا القتال ، وافترق النّاس ، فهرب أبو الخطّار ولجأ إلى مأمنه ، ورجع ثوابة إلى قُرطبة ، فسمي ذلك العسكر : عسكر العافية (٨٨) .

ط — وفي هــذه السنة أيضاً ، توجّه سليمان بن كثير ولاهز بن قُرَيْظ وقَحْطَبة إلى مكّة ، فلقوا ابراهيم بن محمد الإمام بها ، وأوصلوا إلى مولى له عشرين ألف دينار ومئتي ألف درهم ومسكاً ومتاعاً كثيراً ، وكان معهم أبو مُسْلِم الخُراساني ، فقال سليمان لإبراهيم : « هذا مولاك » .

(٨٨) ابن الأثير (٥ / ٣٣٧ — ٣٣٩) .

وكتب بُكَيْر بن ماهان إلى إبراهيم الإمام ، أنّه في الموت ، وأنّه قد استحلف أبا سَلِمَة حَفْص بن سليمان ، وهو رضى للامر . فكتب إبراهيم الإمام لأبي سَلِمَة يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خُراسان يخبرهم أنّه قد أسند أمرهم إليه . ومضى أبو سَلِمَة إلى خُراسان ، فصدّقوه وقبلوا أمره ، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشّيعة وخُمْس أموالهم (٨٩).

٣ – تصاعد الخلاف

أ – دخلت سنة ثمان وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٥ م) ، فتصاعدت حدّة الخلاف ، وكثر المخالفون نوعاً وعَدَداً ، كأنّ مروان هدفٌ للرّمي في ميدان للرميّ ، تتكاثر عليه السِّهام ، فتصيبه بعضها وتتخطّاه أخرى ، ولكنّها تستنزف قوّته وتؤثّر في معنوياته وتسحبه سحباً إلى مصيره المحتوم .

فقد بلغت الفوضى في خُراسان منتهاها ، ليس من جهة واحدة ؛ بل من جهات عدّة .

ولا يمكن حصر كلّ بواعث الفوضى في خراسان في الحديث عن سيرة مروان ، ولكن لا بأس أن نتطرّق إلى نماذج قليلة منها .

فقد كان يزيد بن الوليد بن عبدالملك قد أعطى الأمان للحارث بن سُرَيْج الذي كان يعيش في بلاد العدو ، فعاد أدراجه إلى بلاد الإسلام .

ولما وليَ ابنُ هُبَيْرة العراق ، كتب إلى نَصْر بن سَيّار بعهده على خُراسان ، فبايع لمروان بن محمد ، فقال الحارث : « إنما آمنني يزيد ولم يؤمنّي مروان ، ولا يجيز مروان أمان يزيد ، فلا آمنه » ، فخالف نصراً .

وأرسل إليه نصر ، يدعوه إلى الجماعة ، وينهاه عن الفُرقة وإطماع العدوالمتربِّص بالمسلمين ، فلم يجبه إلى ما أراد ، وخرج وعسكر مع أصحابه ثمّ أرسل إلى نصر : « اجعل الأمر شُوري » ، فأبى نصر .

(٨٩) الطبري (٣٢٩/٧) وابن الأثير (٥ / ٣٣٩ – ٣٤٠) .

وأمر الحارثُ جَهْمَ بن صفوان ، رأس الجهميّة ، أن يقرأ سيرته وما يدعو إليه على النّاس ، فلما سمعوا ذلك كثُروا وكثر جمعه .

وأرسل الحارث إلى نصر ليعزل صاحب شُرطته ويغيِّر عمّاله ويقرّ الأمر بينهما أن يختاروا رجالاً يسمّون لهم قوماً يعملون بكتاب الله ، فاختار نصر رجلين من أصحابه ، واختار الحارث رجلين من أصحابه أيضاً ، وأمر نصر كاتبه أن يكتب ما يُرضى هؤلاء الاربعة المختارين من السّنن وما يختارونه من العمّال ، فيولّيهم ثغر سَمَرْقَنْد وطَخارستان ، وكان الحارث يُظْهر أنّه صاحب الرّايات السُّود ، فأرسل إليه نصر : « إن كنتَ تزعم أنّكم تهدمون سور دمشق وتزيلون مُلْك بني أُميّة ، فخذ مني خمسمائة رأس ومائتَيْ بعير ، واحمل من الأموال ما شئتَ وآلة الحرب وسِرْ ، فلعمري لئن كنت صاحبَ ما ذكرتَ إني لفي يدك ، وإن كنتَ لستَ ذلك ، فقد أهلكتَ عشيرتك » .

و قال الحارث : « قد علمتُ أنّ هذا حق ، ولكن لا يبايعني عليه مَنْ صحبني ! » ، فقال نصر : « فقد ظهر أنّهم ليسوا على رأيك ، فاذكر الله في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن يهلكون فيما بينكم » .

وعرض عليه نصر أن يولّيه ما وراء النهر (جيحون) ويعطيه ثلاثمائة ألف فلم يقبل ، فسأله نصر أن يبدأ بالكرمانيّ فإن قَتَلَهُ فهو في طاعته ، فلم يقبل أيضاً .

وقدم على الحارث جمع من أهل خُراسان حين سمعوا بالفتنة ، وأمر الحارث أن تُقرأ سيرته في الأسواق والمساجد وعلى باب نصر ، فقُرئت ، فأتاه خلق كثير . وقرأها رجل على باب نصر ، فضربه غلمان نصر ، فنابذهم الحارث وتجهزوا للحرب .

ودلّ رجل من أهل (مَرْو) الحارث على نقب في سورها ، فمضى الحارث إليه ونقبه ودخل المدينة ، فقتل مَن قتل ونهب بيت صاحب شُرطة نصر .

ولكنّ أصحاب نصر هزموا أصحاب الحارث ، فأراد نصر أن يتّفق مع الكرماني على حرب الحارث ولكنه أخفق في مسعاه ، واتّفق الكرماني والحارث على حرب نصر .

ولكن اتفاق الكرماني والحارث لم يدم طويلاً ، إذ سأل الحارثُ الكرمانيَّ أن يكون الأمر شورى ، فأبى الكرماني ، فانتقل الحارث عنه .

ثم إنّ الحارث أتى سور مَرْو فثلم فيه ثلمةً ودخل البلد ، وهاجم الكرمانيّ ، فاشتد القتال بينهما ، فانهزم الحارث ، فقُتل في هزيمته وقُتل كثير من أصحابه .

وصفت مرو لليمن ، فهدموا دور المُضَريّة (٩٠) .

ب – وفي هذه السّنة ، وجّه ابراهيم الإمام أبا مُسْلم الخُراسانيّ ، واسمه : عبدالرحمن بن مُسْلِم ، إلى خُراسان ، وعمره يومئذٍ تسع عشرة سنه ، وكتب إلى أصحابه : « إني قد أمرته بأمرى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإني قد أمّرته على خُراسان وعلى ما غلب عليه بعد ذلك » .

وقدم أبو مسلم الخراساني خُراسان ومعه كتاب إبراهيم الإمام ، فلم يقبل شيعة بني العباس قول أبي مسلم الخراساني ، وخرجوا بعد ذلك إلى مكّة والتقوا عند إبراهيم الإمام ، فأعلمهم رأيه بأبي مُسلم ، وأمرهم بالسّمع والطّاعة له . ثم قال لأبي مسلم : « إنّك رجل منّا أهل البيت ، احفظ وصيتي ! انظر هذا الحيّ من اليمن ، فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فإنّ الله لا يُتمّ هذا الأمر إلاّ بهم . فاتّهم ربيعة في أمرهم ، وأمّا مُضَر فإنّهم العدو القريب الدار ، واقْتلْ مَنْ شككتَ فيه ، وإنْ استطعتَ أن لا تَدَع بخُراسان مَنْ يتكلّم بالعربيّة ، فافعل . وأيّما غلام بلغ خمسة

(٩٠) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٣٠ – ٣٤٤) وابن الأثير (٥ / ٣٤٢ – ٣٤٧) .

أشبار تتهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير) ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمرٌ فاكتفِ به مني » (٩١) .

ولا أعلم توجيهاً أكثر شعوبية وأشد حقداً على العرب ، مثل هذا التوجيه الذي أصدره إبراهيم الإمام لرأس الشعوبيّة أبي مسلم الخراساني .

وكان لهذا التوجيه أثره البالغ في انتقال الحكم عملياً من العرب المسلمين إلى غيرهم ، وكان بداية الانهيار العربي الإسلامي في الدولة ، مما أفقد العرب منزلتهم السّامية المرموقة بين المسلمين .

ج — وفي هذه السنة أيضاً ، نشبت حروب طاحنة بين جيوش الدولة وجيش الضّحاك بن قيس الخارجي .

فقد حاصر الضحّاك بواسط عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز ، فلما طال الحصار على ابن عمر ، أُشير عليه بأن يدفعه عن نفسه إلى مروان ، فأرسل ابن عمر إلى الضحّاك : « إنّ مقامكم عليّ ليس بشيء ! هذا مروان ، فسِرْ إليه ، فإن قاتلته ، فأنا معك » ، فصالحه وخرج إليه وصلّى خلفه ، فانصرف الضحّاك إلى الكوفة ، وأقام ابن عمر بواسط .

وكاتب أهل الموصل الضحّاك ليقدم عليهم ليسلّموها إليه ، فسار في جماعة من جنوده حتى انتهى إلى الموصل ، وعليها يومئذ لمروان عامل من عمّاله

وفتح أهل الموصل البلد للضحّاك ، فدخله وأصحابه ، وقاتلهم عامل مروان ومَنْ معه من أهله وهم عدّة يسيرة حتى قُتلوا ، واستولى الضحّاك على الموصل وكُوَرها (٩٢) .

وبلغ مروان خبره وهو محاصر حِمْص مشتغل بقتال أهلها ، فكتب إلى ابنه عبدالله ، وهو خليفته بالجزيرة ، يأمره أن يسير إلى نَصِيبِيْن في

(٩١) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٤٤) وابن الأثير (٥ / ٣٤٧ — ٣٤٨) .
(٩٢) تاريخ الموصل (٦٩) للأزدي .

مَنْ معه ، يمنعَ الضّحّاك من السيطرة على الجزيرة ، فسار اليها في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف ، وسار الضحاك إلى نَصيبين ، فحصر عبدالله بن مروان فيها ، وكان مع الضّحاك ما يزيد على مئة ألف . ووجّه الضّحاك قائدين من قادته إلى الرّقّة في أربعة آلاف أو خمسة آلاف ، فقاتلهم حماة المدينة ، ووجّه إليهم مروانَ من رحّلهم عنها .

ثم إنّ الضّحّاك قابلجيش مروان المتقدم باتّجاهه بنواحي (كَفَرْ تُوثا) (٩٣) من أعمال مَارِدِيْن ، فقاتله يومه أجمع ، فلما كان عند المساء ، ترجّل الضّحّاك ومعه من ذوي الثبات وأرباب البصائر نحو من ستّة آلاف ، ولم يعلم أكثر أهل عسكره بما كان ، فأحدقت به خيول مروان وألحّوا عليهم بالقتال حتى قتلوهم عند العتمة . وانصرف مَنْ بقي من أصحاب الضّحاك عند العتمة إلى عسكرهم ، ولم يعلموا بقتل الضّحّاك ولم يعلم به مروان أيضاً .

وجاء مَنْ عاينه إلى أصحابه ، فأخبرهم بمقتل الضّحّاك ، فخرج قائد من قوّاده إلى مروان فأخبره ، فبعث مروان رأسه إلى مدائن الجزيرة ، فطيف به فيها (٩٤) .

ولما قُتل الضّحّاك ، بايع أصحابه الخَيْبَرِيّ ، وأقاموا يومئذ وعاودوا القتال بعد الغد ، وصافّوه وصَافّهم ، وكان سليمان بن هشام بن عبدالملك مع الخيبريّ ، وكان قبله مع الضّحّاك في أكثر من ثلاثة آلاف من أهل بيته ومواليه .

وحمل الخيبريّ على مروان في نحوٍ من أربعمائة فارس من الشُراة ، فهزم مروان وهو في القلب . وخرج مروان من العسكر منهزماً ، ودخل

---

(٩٣) كفرتوثا : قرية كبيرة من أعمال الجزيرة ، بينها وبين دارا خمسة فراسخ ، وهي بين دارا ورأس العين ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ٢٦٣) .

(٩٤) الطبري (٣٤٤/٧ - ٣٤٦) وابن الأثير (٣٤٨/٥ - ٣٥٠) وانظر تاريخ الموصل (٦٩ - ٧١) .

الخيبريّ ومَنْ معه عسكره ، ينادون بشعارهم . ويقتلون مَنْ أدْرَكوا ، حتى انتهـوا إلى خيمة مروان نفسه ، فقطعوا أطنابهـا . وجلس الخيبريّ على فرشه . وكانت ميمنـة مروان وعليهـا ابنه عبدالله ثابتـة ، وميسرته وعليها اسحق بن مُسْلم العُقَيْلِي ثابتة أيضاً . فلما رأى أهل العسكر قلّة مَنْ مع الخيبري ، ثار إليه عبيدهم بعمد الخيم ، فقتلوا الخيبريّ وأصحابه جميعاً في خيمة مروان وحولها .

وبلغ مروانَ الخبرُ ، وقد جاز العسكرُ بخمسة أميال أو ستّة منهزماً ، فانصرف إلى عسكره ، وردّ خيوله عن مواقعها ، وبات ليلته في عسكره .

وانصرف أهل عسكر الخيبريّ ، فولّوا عليهم شيبان بن عبدالعزيز اليشكريّ الحروريّ ، فقاتله مروان بعد ذلك بأسلوب الكراديس ، وأبطل الصفّ منذ يومئذٍ (٩٥) .

وأقام شيبان يقاتل مروان، فتفرّق عنه كثير من أصحاب الطّمع ، وبقي في نحو أربعين ألفاً ، فأشار عليه سليمان بن هشام بن عبدالملك أن ينصرف وأصحابه إلى الموصل فيجعلوها ظهرهم ، فارتحلوا وتبعهم مروان حتى انتهوا إلى الموصل.

وعسكر الخوارج شرقي دجلة وعقدوا جسوراً عليها من عسكرهم الى المدينة . فكانت ميرتهم ومرافقتهم منها ، وخندق مروان بإزائهم ، وكان أهل الموصل يقاتلون مع الخوارج ، فأقام مروان ستة أشهر يقاتلهم ، وقيل تسعة أشهر .

وكتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة يأمره بالمسير من قَرْقِيْسياء . بجميع مَنْ معه إلى العراق ، وعلى الكوفة المثنّى بن عِمْران العائذيّ، عائذ قريش ، وهو والٍ للخوارج بالعراق ، فلقى ابن هبيرة بـ (عين التمر) (٩٦) ،

---

(٩٥) الطبري (٣٤٦/٧ – ٣٤٧) وابن الأثير (٣٥٠/٥) وانظر تاريخ الموصل (٧١ – ٧٢)

(٩٦) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة ، بقربها موضع يقال لها : شفاثا ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦ / ٢٥٣) .

فهزمهم ابن هبيرة .

واجتمع الخوارج بالكوفة ، فهزمهم ابن هبيرة من جديد .

واجتمع الخوارج بالبصرة ، فأرسل شيبان إليهم عُبَيْدَة بن سَوَّار في خيل عظيمة ، فالتقوا بالبصرة ، فانهزم الخوارج ، وقُتل عُبَيْدَة ، فاستباح ابن هبيرة عسكرهم ، فلم يكن لهم همّة بالعراق ، فاستولى ابن هبيرة على العراق .

وكان منصور بن جُمْهور مع الخوارج ، فانهزم وغلب على (الماهَيْن)(٩٧) وعلى (الجبل) (٩٨) أجمع .

وسار ابن هبيرة إلى واسِط ، فأخذ ابن عمر وحبسه ، ثمّ وجّه نُباتَة بن حَنْظَلَة إلى سليمان بن حبيب ، وهو على كُوَر الاهواز ، فسمع سليمان الخبر ، فأرسل إلى نُباتة داودَ بن حاتم ، فالتقوا بـ (المرتان) (٩٩) على شاطئ نهر (دُجَيْل) (١٠٠) ، فانهزم الناس وقُتل داود بن حاتم .

وكتب مروان إلى ابن هبيرة لما استولى على العراق ، يأمره بإرسال عامِر بن ضُبارة المُرّيّ إليه ، فسيّره في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف ، فبلغ شيبان خبره ، فأرسل الجَوْن بن كلاب الخارجيّ في جمع ، فلقوا عامراً بـ (السِّن) (١٠١) ، فهزموه ومَنْ معه ، فدخل السِّنّ وتحصّن فيه ، وجعل مروان يمدّه بالجنود على طريق البرّ ، حتى ينتهوا إلى السِّن ، فكثر جمع عامِر .

(٩٧) الماهين : الماهان هما : الدينور ونهاوند ، انظر معجم البلدان (٧ / ٣٧٤) .
(٩٨) الجبل : هي مابين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرمسين الري وما بين ذلك.
(٩٩) المرتان : موضع على نهر دجيل ، ولا ذكر لها في معجم البلدان .
(١٠٠) الدجيل : نهر بالاهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس ، ومعناه : دجلة الصغيرة ، ومخرجه من أرض أصبهان ومصبه قرب عبادان ، وكانت عند دجيل هذا وقائع للخوارج ، وفيه غرق شبيب الخارجي ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٤١-٤٢)
(١٠١) السن : مدينة على نهر دجلة فوق مدينة تكريت ، لها سور وجامع ، وعند السن مصب الزاب الأسفل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ١٥٣ - ١٥٤) .

وكان منصور بن جُمْهور يمدّ شيبان من الجبل بالأموال . فلما كثر مَنْ مع عامر ، نهض إلى الجَوْن والخوارج ، فقاتلهم وهزمهم . وقتل الجون ، وسار عامر مصعداً إلى الموصل .

وانتهى خبر قتل الجون إلى شيبان ومسير عامر نحوه ، فكره أن يقيم بين العسكرين : عسكر مروان من جهة ، وعسكر عامر من جهة أخرى ، فارتحل بمَن معه من الخوارج .

وقدم عامر إلى الموصل ، فسيّره مروان في جمع كثير إثر شيبان مع هذه الوصايا : « إن أقام شيبان أقام ، وإن سار سار ، وألاّ يبدأه بقتال ، فإن قاتله شيبان قاتله ، وإن أمسك أمسكَ عنه ، وإن ارتحل اتبعه » . فكان على ذلك حتى مرّ على (الجبل) ، وخرج من بيضاء (١٠٢) فارس وبها عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب في جمع كثيرة فلم يتّفق شيبان معه على أمر ، فسار حتى نزل (جِيرَفْت) (١٠٣) من كَرْمان .

وأقبل عامر بن ضُبارة حتى نزل بإزاء عبا الله بن معاوية أياماً ، ثمّ ناهضه فانهزم ابن معاوية ولحق بِهَراة .

وسار عامر بمن معه ، فلقي شيبان بجيرَفْت ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت الخوارج واستبيح عسكرهم ، ومضى شيبان إلى سِجِسْتَان فهلك بها وذلك في سنة مئة وثلاثين الهجرية (٧٤٧م) .

وقيل : بل كان قتال مروان وشيبان على الموصل مقدار شهر ، ثمّ انهزم شيبان حتى لحق بفارس، وعامر بن ضُبارة يتبعه . وسار شيبان الى جزيرة ابن

---

(١٠٢) البيضاء : أكبر مدينة في كورة اصطخر ، وسميت البيضاء لأن لها قلعة تبين من بعد ويرى بياضها ، وكانت معسكراً للمسلمين يقصدونها في فتح اصطخر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٣٣٥ - ٣٣٦) .

(١٠٣) جيرفت : مدينة بكرمان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ١٨٩ - ١٩٠) .

كاوان في الخليج العربيّ ، ثم خرج منها إلى عُمان ، فقتله جُلُنْدِيّ بن مسعود بن جَيْفَر بن جُلُنْدِي الأَزْدِيّ سنة أربع وثلاثين ومئة الهجرية (٧٥١م).

وركب سليمان بن هشام بن عبدالملك الذي كان مع شيبان هو ومَنْ معه السّفن إلى السِّند ، ثم لما ولي السفّاح حضر عنده سليمان ، فأعطاه يده فقبّلها ، ثم قتله السفّاح .

وانصرف مروان بعد مسير شيبان عن الموصل إلى منزله بِحَرَّان ، فأقام بها حتى سار إلى الزّاب (١٠٤) .

٤ ــ تفاقم الخلاف :

أ ــ في سنة تسع وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٦ م) تفاقم الخلاف بين مروان من جهة وخُصُومه الكثيرين من جهة أخرى .

فقد أظهر شيعة بني العبّاس دعوتهم ، ولم يعودوا يعملون في الخفاء ، فكتب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني : « إني قد بعثت إليك براية النّصر ، فارجع من حيث لقيك كتابي ، ووجّه إليّ قَحْطَبَة بما معك يوافِيني به في الموسم » .

وانصرف أبو مسلم إلى خُراسان ، وكان في طريقه إلى مكّة للقاء إبراهيم الإمام ، ووجّه قَحْطَبَة إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض .

وقدم أبو مسلم مَرْوَ . فدفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير ، يأمره فيه بإظهار الدعوة ، فنصبوا أبا مسلم وقالوا : رجل من أهل البيت ! ودعوا إلى طاعة بني العبّاس ، وأرسلوا إلى مَنْ قَرُب منهم أو بَعُد ممّن أجابهم ، وأمروهم بإظهار أمرهم .

(١٠٤) انظر التفاصيل في الطبري (٣٤٩ – ٣٥٣) وابن الأثير (٥ / ٣٥٣ – ٣٥٦) .

ووجّه أبو مسلم إلى طَخارستان فما دون بَلْخ يأمر أصحابه بإظهار الدعوة في شهر رمضان ، كما وجّه إلى مَرْو الرُّوذ والطالقان وخُوارزم بإظهار الدّعوة في رمضان ، فإن أعجلهم عدّوهم دون الوقت بالأذى والمكروه ، فقد حلّ لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ويجرِّدوا السّيوف ويجاهدوا أعداء الله ، ومَنْ شغله منهم عدّوهم عن الوقت ، فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت .

وبثّ أبو مسلم دعاته في الناس ، وأظهر أمره ، فأتاه في ليلة واحدة أهل ستين قرية .

ولما كان ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من هذه السنة ، عقد أبو مسلم اللّواء الذي بعث به إبراهيم الإمام الذي يُدْعَى : (الظِلّ) على رمح طوله أربع عشرة ذراعاً ، وعقد الرّاية التي بعث بها إليه ، وهي التي تدعى : (السّحَاب) على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعاً ، ولبسوا السّواد هو وسليمان بن كثير وإخوة سليمان ومواليه ومَنْ كان أجاب الدّعوة ، وأوقدوا النيران لليلتهم لشيعتهم وكانت علامتهم ، فتجمعوا إليه حين أصبحوا ، وتأوّل (الظلّ) و (السّحاب) أنّ السِّحاب يطبِّق الأرض ، وأنّ الأرض كما لا تخلو من الظلّ كذلك لا تخلو من خليفة عبّاسيّ إلى آخر الدّهر .

وقدم على أبي مسلم الدعاة بمن أجاب الدّعوة ، فدخلوا عسكر أبي مسلم .

ولما حضر عيد الفطر أمر أبو مسلم أن يصلي سليمان بن كثير به وبالشِّيعة ، ونصب له منبرا .

فلما قضى سليمان الصّلاة ، انصرف أبو مسلم والشِّيعة إلى طعام قد أعدّه لهم ، فأكلوا مستبشرين .

ووجّه نَصر بن سيّار مولى له إلى أبي مسلم ، فوجّه أبو مسلم أحد قادته إلى مولى نصر بن سيّار ومَنْ معه ، واقتتلوا فانتصر أصحاب أبي مسلم على أصحاب نصر .

واستطاع أحد قادة أبي مسلم أن يغلب على (مَرْو الرُّوذ) ، وقتل عامل نصر بن سيار عليها .

وبثّ أبو مسلم الدّعاة في أقطار خُراسان ، فدخل الناس أفواجاً في شيعته وكثروا ، وفشت الدّعاة بخراسان كلّها (١٠٥) .

ب – ولم يقف أبو مسلم في هذه السنة موقفاً سلبياً من الحرب بين نصر ابن سيار من جهة والكرماني من جهة أخرى .

فقد سيطر الكرماني على مرو ، فأرسل له نصر ثلاثة قادة من قادته بالتعاقب ، فانتصر عليهم أصحاب الكرماني وكبّدوهم خسائر فادحة بالأرواح.

وكان أبو مسلم في أيام الاقتتال بين الجانبين يحرِّض القبائل العربية على بعضها ، وينشر فيها الفتن والاحقاد ، فأثمر تحريضه وأينع .

وأقبل أبو مسلم حتى نزل بين خندق الكرماني وخندق نصر ، فهابه الطرفان .

وبعث إلى الكرماني : « إني معك » ، فقبل ذلك الكرماني ، فانضمّ أبو مسلم اليه ، واشتدّ ذلك على نصر ، وأصبح موقفه حرجاً للغاية .

وارسل نصر إلىالكرماني ينصحهألاّ يغترّ بوعود أبي مسلم الخلابة وجاء في كتابه : « والله إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه ، فادخل مَرْو ونكتب كتاباً بيننا بالصّلح » ، وهو يريد أن يفرِّق بينه وبين أبي مسلم ، فدخل الكرماني منزله في مَرْو ، وأقام أبو مسلم في العسكر .

وأرسل الكرماني إلى نصر : « أخرج لنكتب بيننا ذلك الكتاب » ، فأبصر نصر منه غِرّة ، فوجّه إليه ابن الحارث بن سُرَيح ، وكان الكرماني قد قتل أباه ، في نحوٍ من ثلاثمائة فارس ، فطعن الكرماني في خاصرته فخرّ عن

(١٠٥) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٥٣ – ٣٦٣) وابن الأثير (٥ / ٣٥٦ – ٣٦٣) .

دابّته . وحماه أصحابه ، حتى جاءهم ما لا قِبَلَ لهم به ، فقتل نصر بن سيّار الكرماني ثم صلبه .

وأقبل ابن الكرماني وقد جمع جمعاً كثيراً ، فصار إلى أبي مسلم واستصحبه معه ، فقاتلوا نصر بن سيّار حتى أخرجوه من دار الإمارة ، فمال إلى بعض دور مَرْو . وأقبل أبو مسلم حتى دخل مَرْو ، وأتاه علي بن الكرماني وأعلمه أنّه معه ، وسلّم عليه بالإمرة .

وحين نزل أبو مسلم بين خندق الكرماني خندق نصر ، ورأى نصرٌ قوّته ، كتب إلى مروان بن محمد يعلمه حال أبي مسلم وخروجه وكثرة مَنْ معه ، وانّه يدعو إلى إبراهيم بن محمد الإمام ، وكتب إليه بأبيات :

أرى بَيْنَ الرَّمادِ وَمِيْضَ جَمْرٍ ... وأخشى أنْ يكونَ له ضِرامُ(١٠٦)
فإنَّ النّار بالعُوْدَيْن تُذْكَى ... وأنَّ الحربَ مَبْدَؤها كلامُ(١٠٧)
فقلتُ من التَعجُب ليت شِعْري ... أأيْقاظٌ أميّةُ أم نِيامُ !

فكان جواب مروان : « إنَّ الشّاهد يرى مالا يرى الغائب ، فاحْسِم الثُؤلول قِبَلَك » ، فقال نصر : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنّه لا نَصْرَ عنده » .

وكتب نصر إلى يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة يستمدّه ، وكتب إليه هُبَيْرَة يستمدّه ، وكتب إليه بأبيات شعر :

أَبْلِغْ يَزِيْدَ وخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ ... وقد تَبَيَّنْتُ ألاَّ خَيْرَ في الكَذِبِ
إنَّ خُراسانَ أَرْضٌ قد رأَيْتُ بها ... بَيْضاً لوافْرِخَ قد حُدِّثْتَ بالعَجَبِ
فِراخُ عامَيْنِ إلاَّ أنّها كَبِرَتْ ... لمّا يَطِرْنَ وقد سُرْبِلْنَ بالزَّغَبِ

(١٠٦) في الطبري (٧ / ٣٦٥) : فأحج بأن يكون له ضرام .
(١٠٧) في الطبري : وإن الحرب مبدؤها الكلام .

إلاّ تداركْ بخيل الله مُعْلمـــــةً   ألْهَبْنَ نيرانَ حرْبٍ أيّما لَهبِ(١٠٨)

فقال يزيد : « لا تُكثر ، فليس له عندي رجل » !

ولما قرأ مروان كتاب نصر ، الذي وصل كتابه مع وصول رسول لأبي مسلم إلى إبراهيم الإمام ، وقد عاد من إبراهيم ومعه جوابه لأبي مسلم يسبّه فيه ويلعنه حيث لم ينتهز الفرصة من نصر والكرْمانيّ إذ أمكناه ، ويأمره ألاّ يَدع متكلِّماً بالعربية في خراسان إلاّ قتله فلما قرأ مروان الكتاب ، كتب إلى عامله بالبَلْقَاء ليسير إلى (الحُمَيْمَة) (١٠٩) وليأخذ إبراهيم بن محمد ، فيشدّه وثاقاً ويبعث به إليه ، ففعل ذلك ، فأخذه مروان وحبسه (١١٠) .

وكان مروان معذوراً ، كما كان يزيد بن عمر بن هُبَيْرة عامل مروان على العراق معذوراً أيضاً ، فقد كان كلّ واحد منهما مشغولاً بمعالجة الفتن والاضطرابات الناشبة في ارضه ، فكان على نصر بن سيّار أن يصطلى بناره ، دون انتظار المعونة العاجلة أو الآجلة من أحد .

ج- وفي هذه السنة أيضاً ظهر أمر أبي مسلم وسار إليه الناس ، وجعل أهل مَرْو يأتونه ولا يعرض لهم نصر ولا يمنعهم ، وأبو مسلم في خباء ليس له حرس ولا حُجّاب . وعَظم امره عند الناس ، وقالوا : ظهر رجل من بني هاشم ، له حلم ووقار وسكينة ، فانطلق إلى أبي مسلم فتية من أهل مَرْو يطلبون الفقه ، فسألوه عن نسبه فقال : « خيري خير لكم من نسبي » ، وسألوه أشياء من الفقه فقال : « أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هــذا ونحن إلى عونكم أحوج منا إلى مسألتكم ، فاعفونا » .

---

(١٠٨) الثؤلول : بثر صغير صلب مستدير ، يظهر على الجلد كالحمصة أو دونها .

(١٠٩) الحميمة : بلد من أرض السراة من إعمال عمان في أطراف الشام ، منزل بني العباس ، انظر معجم البلدان (٣ / ٣٤٦) .

(١١٠) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٦٧ - ٣٧١) وابن الأثير (٥ / ٣٦٣ - ٣٦٦).

وعادوا أدراجهم خائبين ، لا يعرفون لأبي مسلم نسبا ، ولا يجدون عنده فقها .

ووجد نَصْرُ العربَ متفرقين ، كأنّهم لا يشعرون بالخطر المحدق بهم ، فقال شعراً يخاطب به العرب ويحثّهم على الإتّفاق معه على حرب أبي مسلم :

أبْلِغْ ربيعةَ في مَرْوٍ وفي يَمَنٍ ... أن اغضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ
ما بالكم تُنشبون الحربَ بينكُمُ ... كأنّ أهل الحِجَى عن رأيكم غُيُبُ
وتتركونَ عدوّاً قد أحاطَ بكم ... ممّنْ تأشّبَ لا دِيْنٌ ولا حَسَبُ
لا عُرْبَ مثلكُمُ في النّاس نَعْرِفُهُمْ ... ولا صَرِيْحَ موالٍ إنْ هُمُ نُسِبُوا
مَنْ كان يَسْأَلُنِي عن أصلِ دينهم ... فإنّ دينَهُمُ أنْ تَهْلِكَ العَرَبُ
قومٌ يقولون قولاً ما سمعتُ بِهِ ... عن النّبِيّ ولا جاءَتْ بِهِ الكُتُبُ

وعزم العرب على الاتّفاق لمحاربة أبي مسلم دفاعاً عن أنفسهم ، ولكنهم اتّفقوا على ألاّ يتّفقوا ، فما زال أمرهم في هبوط ، وأمر أبي مسلم في صعود ، حتى استطاع اكتساحهم لا لقوّته التي لا تُقهر ، ولكن لتفرّقهم الذي لا يلتئم (١١١) .

د ــ وفي هذه السنة لم تقتصر الفوضى على خُراسان ، بل شملت معظم أجزاء الدولة ، فقد غلب عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب على فارس وكُوَرَها ، فلما قدم ابن هُبيرة العراق والياً ، بعث إليه مَنْ يحاربه ، فانتصر عليه ، وهرب ابن معاوية إلى أصحاب أبي مُسلم ، فأمر بقتله (١١٢) .

وبلغ الاستهتار بسلطة الدولة والعبث بهيبتها مبلغاً جعل الخوارج يحضرون موسم الحج وعلى رأسهم أبو حمزة الخارجي ، معلنين الخلاف لمروان وآل

(١١١) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٦٣ – ٣٦٧) وابن الأثير (٥ / ٣٦٦ – ٣٧٠) .
(١١٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٧١ – ٣٧٤) وابن الأثير (٥ / ٣٧٠ – ٣٧٣).

مروان ، فأخلى عامل مروان مكة المكرّمة ، ودخلها أبو حمزة بغير قتال (١١٣)

وقصد عامل مروان المدينة المنورة ، فبعث جيشاً من المدينة لقتال أبي حمزة ، وكان جيش المدينة مترفاً لا علم له بالحرب ولا يصبر عليها ، فقضى عليه أبو حمزة قضاءً مبرما ، ودخل المدينة المنوّرة ،ومضى عاملها وهو عبدالواحد ابن سليمان بن عبدالملك بن مروان إلى الشّام .

وخرج أبو حمزة من المدينة المنوّرة يريد الشّام ، فالتقى في الطريق بجيش مروان الذي بعثه لقتاله ، فقُتل أبو حمزة وكثير من رجاله (١١٤) .

هـ — وفي هذه السنة أيضاً ، مات أمير الأندلس ثوابة بن سلامة ، فاختلف الناس : المُضَريّة أرادت أن يكون الأمير منهم ، واليمانيّة أرادت أن يكون الأمير منهم ، فبقوا بغير أمير .

وخاف الصُّمَيْل الفتنة ، فأشار بأن يكون الوالي من قريش ، فرضوا كلّهم بذلك ، فاختار لهم يوسف بن عبدالرحمن الفِهْرِيّ ، وكتبوا إليه بما اجتمع عليه الناس من تأميره ، فلم يوافق على تسنّم هذا المنصب الرّفيع ، فقالوا له : « إنْ لم تفعل وقعت الفتنة ، ويكون إثم ذلك عليك » ، فأجاب حينئذٍ ، وسار إلى قُرطبة فدخلها ، وأطاعه النّاس .

فلما انتهى الامر إلى أبي الخطّار حول ولاية يوسف قال : « إنّما أراد الصُّمَيْل أن يصير الأمر إلى مُضَر » ، وسعى في النّاس حتى ثارت الفتنة بين اليمن ومُضَر .

وحين رأى يوسف نشوب الاختلاف ، فارق قصر الإمارة بقرطبة وعاد إلى منزلة .

(١١٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٧٤ – ٣٧٦) وابن الأثير (٥ / ٣٧٣ – ٣٧٥) .
(١١٤) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٩٣ – ٣٩٩) وابن الأثير (٥ / ٣٨٨ – ٣٩١) .

واجتمعت اليمانيّة إلى أبي الخطّار ، واجتمعت المضريّة إلى الصُّميل ، وتزاحفوا واقتتلوا أياماً كثيرة لم يكن بالأندلس قتال أعظم منه ولا أعنف فانجلت الحرب عن هزيمة اليمانية .

ومضى أبو الخطّار منهزماً ، فاستتر في رحى كانت للصُّميل ، فدُلّ عليه ، فأخذه الصُّميل وقتله .

ورجع يوسف بن عبدالرحمن إلى قصر الإمارة في قُرطبة ، وازداد الصُّميل شرفاً ، وكان اسم الإمارة ليوسف والحكم إلى الصُّميل !

وخرج على يوسف بن عبدالرحمن ابن علقمة اللخميّ بمدينة أَرَبُونَة ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى قُتل وحُمل رأسه إلى يوسف .

وخرج عليه عُذْرة المعروف بالذِّمّي ، وإنّما قيل له ذلك لأنّه استعان بأهل الذِّمّة ، فوجّه إليه يوسُف عامرَ بن عمرو ، وهو الذي تنسب إليه مقبرة عامر من أبواب قُرطبة ، فلم يظفر به وعاد مفلولاً ، فسار إليه يوسف ابن عبدالرحمن ، فقاتله وقتله واستباح عسكره (١١٥) .

٥ ــ الفيضان

أ ــ كانت سنة ثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٧ م) سنة الفيضان بالخلاف والفتن والاضطرابات والقلاقل وسفك الدماء بالنسبة لمروان والدولة ، فقد ضاعت المقاييس وتردّت الأحوال وشاعت الفوضى وذهبت هيبة الخلافة والدولة ، وأصبح الخلاف هو القاعدة والأمن هو الاستثناء .

فقد دخل أبو مسلم الخُراسانيّ مَرْو وبايعه الناس بها ، وأصبح الحاكم بأمره في خُراسان كلّها .

واتّفق علي بن الكرماني مع أبي مسلم ، وكان السبب في ذلك أنّ ابن

(١١٥) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥ / ٣٧٥ ــ ٣٧٦) .

الكرماني ومَنْ معه وسائر القبائل العربية بخراسان لما عاقدوا نَصْراً على أبي مسلم ، عظم عليه وجمع أصحابه لحربهم ، فكان سليمان بن كَثير بإزاء ابن الكرماني ، فقال له سليمان: « إنّ أبا مسلم يقول لك : أما تأنف من مصالحة نصر ، وقد قتل بالأمس أباك وصلبه ؟ ! ما كنت أحسبك تجامع نصراً في مسجد تصليان فيه ! ! » ، فأحفظه هذا الكلام ، ورجع عن رأيه ، وانتقض صلح العرب .

وبعث نصر إلى أبي مسلم ، يلتمس منه أن يدخل مع مُضَر ، وبعث أصحاب ابن الكرماني ، وهم ربيعة واليمن ، إلى أبي مسلم بمثل ذلك ، وراسلوه بهذا أياماً ، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين حتى يختار أحدهما ، وأمر أبو مسلم شيعته أن تختار ربيعة واليمن ، فإنّ الشّيطان – كما قال لهم – في مضَر ، لأنهم أصحاب مروان وعمّاله وقتلة يحيى بن زيد .

وقدم الوفدان ، فجلس أبو مسلم وأجلسهم ، وجمع عنده من شيعته سبعين رجلاً ، ليختاروا أحد الفريقين ! .

وقام سليمان بن كثير من شيعته ، فتكلم ، وكان خطيباً مفوّهاً ، فاختار ابن الكرماني وأصحابه ، وقام آخر فاختارهم أيضاً ، ثم قام ثالث فقال : « إنّ مُضَر قتلة آل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأعوان بني أُميّة وشيعة مروان وعمّاله ، ودماؤنا في أعناقهم ، وأموالنا في أيديهم ، ونصر بن سيّار عامل مروان ينفّذ أموره ويدعو له على منبره ويسميه : أمير المؤمنين ، ونحن نبرأ إلى الله عزّ وجلّ أن يكون نصر على هدًى ، وقد اخترنا عليّ بن الكرماني وأصحابه » ، فوافق السبعون من شيعة أبي مسلم على هذا الكلام ، واختاروا ابن الكرمانيّ وأصحابه .

ونهض وفد نصرعليهم الكآبة والذلّة ،ورجع وفد ابن الكرمانيّ منصورين.
وعاد أبو مسلم إلى مقرّه ، وأمر الشيعة أن يبنوا المساكن ، فقد أغناهم

الله من اجتماع كامة العرب عليهم .

وارسل ابن الكرماني إلى أبي مسلم ، ليدخل مدينة مرو من ناحيته ، وليدخل هو وعشيرته من الناحية الأخرى ، فأرسل إليه أبو مسلم : « إني لستُ آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على محاربتي ، ولكن ادخلْ أنتَ ، فأنْشِبِ الحربَ مع أصحاب نصر » .

ودخل ابن الكرماني ، فأنشب الحربَ ، وبعث أبو مسلم أحد قادته في خيل ، فدخلوا مَرْو ، ونزل قائد أبي مسلم في قصر الإمارة ، ثم بعثوا إلى أبي مسلم ليدخل إليهم ، فدخل مرو ، والفريقان يقتتلان !

ومضى أبو مسلم إلى قصر الإمارة ، وأرسل إلى الفريقين : أن كفّوا ، ولينصرف كلّ فريق إلى عسكره ، فتوقّف الاقتتال ، وصفت الأمور في مرو لأبي مسلم .

وأمر أبو مسلم بأخذ البيعة من الجند ، وكانت البيعة : أبايعكم على كتاب الله وسنّة رسوله محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطّلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام ، وعلى تسألوا رزقاً ولا طعماً حتى يبتدئكم به ولاتكم » (١١٦) .

وخرج نصر بن سيّار من مرو لآخر مرّة ، ولم يَعُد إليها بعد خروجه الأخير أبدا .

وما كان أبو مسلم الخراساني يؤمن بالشّعار البرّاق الذي رفعه ، وهو الشّعوبي الحاقد ، ولكنه رفع هذا الشّعار ليستقطب به الناس تحت لوائه ، لأنّ الناس أصبحوا لا يثقون بالدولة ورجالها ، فاستهواهم شعار أبي مسلم وشيعته ، دون أن يعرفوا في حينه أنّ أبا مسلم وأصحابه أشدّ ضلالاً من الدولة ورجالها ،

(١١٦) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٧٧ - ٣٨٥) .

فلما اكتشفوا حقيقة أبي مسلم وأنصاره الذين كان شعارهم الحقيقي : القضاء على كلّ عربي في خراسان، كان الوقت المناسب قد ضاع إلى الأبد !

وهكذا أرادوا النجاة إلى طريق الحق، فضلّوا ضلالاً بعيدا .

ب – وبدأت في هذه السنة التصفيات الجسدية بالنسبة للعرب ، لا فرق بين المتعاونين مع ابي مسلم والذين كانوا يقاتلون نصراً كما كان أبو مسلم يقاتله ، وبين الذين كانوا محايدين أو كانوا غيرمتعاونين معه .

فقد كان شيبان بن سَلِمَة الخارجيّ يقاتل نصراً بالتعاون مع ابن الكرمانيّ، لأنّ نصراً من عمّال مروان ، وشيبان يرى رأي الخوارج ، ومخالفة ابن الكرمانيّ نصراً لانّ نصراً قتل أباه، ولأن نصراً مُضَرِيّ ، وابن الكرمانيّ يمانيّ ، وبين الفريقين من العصبية ما هو مشهور. فلما صالح ابن الكرماني أبا مسلم على ما تقدم وفارق شيبان، تنحّى شيبان عن مَرْو إذ علم أنه لا يقوى على حرب أبي مسلم وحليفه ابن الكرمانيّ، بعد أن غادر نصر مرو إلى الأبد .

ولمّا استقام الأمر لابي مُسْلم في مَرْو ، أرسل إلى شيبان يدعوه إلى البيعة ، فقال شيبان : « أنا أدعوك إلى بيعتي ! » ، فأرسل إليه أبو مسلم : « إن لم تدخل في أمرنا ، فارتحل عن منزلك الذي أنت به ! » .

وأرسل شيبان إلى ابن الكرمانيّ يستنصره، فرفض ابن الكرماني أن ينصره. وبعث أبو مسلم أحد قادته، فقتل شيبان وعدداً من بكر بن وائل العرب(١١٧).

وثنّى أبو مسلم بقتل عليّ بن الكرمانيّ وأخيه عثمان بن الكرمانيّ . فقد اتّفق أبو مسلم أن يقتل حليفه عليّ بن الكرمانيّ ويقتل قائده المدعو : أبو داود عثمان الكرماني ، فقتل ابو داود عثمان وقتل من أصحابه العرب خلقاً كثيراً أما أبو مسلم قد أمر عليّ الكرمانيّ أن يسمّي له خاصته . ليوليّهم ويأمر لهم

(١١٧) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٨٥ – ٣٨٦) وابن الأثير (٥ / ٣٨٢ – ٣٨٣).

بجوائز وكسوات ، فسمّاهم له ، فقتله أبو مسلم وقتل أصحابه جميعاً(١١٨) !

وهذا هو مصير الذي يوالي أعداء قومه على قومه !

وغلب أبو مسلم على خُراسان ، وبعث عمّاله على البلاد ، فقتل قَحْطَبةُ ابن شبيب أحد قادة أبي مسلم بضعة عشر ألفاً ، وقتل قائد آخر من قادته ثلاثين ألفاً (١١٩) كلهم من العرب .

ج- ولم تتوقف في هذه السنة التصفيات الجسديّة التي نفّذها أبو مسلم بالعرب المسلمين عند هذا الحد ، بل امتدّت إلى جُرْجان أيضاً .

فقد أقبل قَحْطَبة إلى جُرْجان ، وكان فيها نُباتة بن حَنْظَلة عامل يزيد ابن هُبَيْرَة عليها ، فقال قَحطبة : « يا أهل خُراسان ! أتدرون إلى مَنْ تسيرون ؟ ! ومَنْ تقاتلون ؟ ! إنّما تقاتلون بقيّة قوم حرقوا بيت الله تعالى ! » .

وقدم قَحطبة ، فنزل بإزاء نُباتة ، ومعه نَصْر بن سيّار ، وقد خندقوا عليهم ، فلما رآهم أهل خُراسان هابوهم وتكلموا في ذلك وأظهروه ، لأنّ قوّات نُباتة كانت في عدّة لم ير النّاس مثلها . وبلغ قَحطبة خوف جيشه من جيش الدولة ، فقام فيهم خطيباً فقال : « يا أهل خُراسان ! هذه البلاد كانت لآبائكم ، وكانوا يُنْصَرون على عدوّهم ، لعدلهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلموا ، فسخط الله عزّ وجلّ عليهم ، فانتزع سلطانهم وسلّط أذلّ أمّة كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، وكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم ، ثمّ بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرّ والتّقوى من عترة رسول الله ، فسلّطكم عليهم لينتقم منهم بكم ، لتكونوا أشدّ عقوبة ، لأنكم طلبتموهم بالثأر ، وقد عهد

---

(١١٨) الطبري (٧ / ٣٨٦ - ٣٨٨) وابن الأثير (٥ / ٣٨٣ - ٣٨٥) .

(١١٩) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٨٨ - ٣٩٠) وابن الأثير (٥ / ٣٨٦ - ٣٨٧) .

إليّ الإمام أنكم تلقونهم في مثل هذه العدّة ، فينصركم الله عزّ وجلّ عليهم ، فتهزمونهم وتقتلونهم » .

والتقى الفريقان يوم الجمعة من شهر ذي الحجة ، فقال قَحطبة لأصحابه : « إنّ الإمام أخبرنا أنكم تُنصرون على عدوكم هذا اليوم من هذا الشّهر » ، فاقتتلوا قتالاً شديداً . فقتل من أهل الشّام عشرة آلاف من العرب المسلمين ، وقتل نُباتة ، وبعث إلى أبي مسلم برأسه (١٢٠) .

وكان نصّ رسالة أبي مسلم إلى قَحطبة : « أما بعد ، فناهض عدوّك ، فإنّ الله عزّ وجلّ ناصرك ، فإذا ظهرت عليهم فأثخن في القتل » (١٢١) .

وهذا هو بيت القصيد : أن يُثْخن في قتل العرب المسلمين .

ولم تكد تجفّ دماء العرب المسلمين في جُرجان ، إلاّ وقتل قَحْطبة بن شبيب من أهل جُرجان ما يزيد على ثلاثين ألفاً ، لأنّه بلغه عنهم بعد قتل نُباتة أنّهم يريدون الخروج عليه ، فدخل إليهم واستعرضهم وقتل منهم صبراً هذا العدد الضخم من الرجال (١٢٢) .

د ـ وكأن هذه التصفيات الجسدية للعرب المسلمين في خراسان وما وراء النّهر وجُرجان والمشرق الإسلامي عامة لم تكن كافية في هذه السّنة ، فقد كان في الحجاز حرب بين جيش الدولة والخوارج تكبّد فيها الجانبان خسائر جسيمة (١٢٣) ، وكان في اليمن حروب طاحنة بين جيش الدولة وجيش عبدالله بن يحيى الملقب بطالب الحق تساقط من الجانبين خسائر فادحة(١٢٤)

---

(١٢٠) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٩١ – ٣٩٣) وابن الأثير (٥ / ٣٨٧ – ٣٨٨).

(١٢١) الطبري (٧ / ٣٩٢) .

(١٢٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٠١ – ٤٠٢) وابن الأثير (٥ / ٣٩٢ – ٣٩٣) .

(١٢٣) الطبري (٧ / ٣٩٣ – ٣٩٩) .

(١٢٤) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٠٠) وابن الأثير (٥ / ٣٩٢) .

وهكذا تكسّرت النّصال على النّصال ، وكان العرب المسلمون هم الخاسرين في هذا الصّراع المرير .

٦ – الطوفان

أ. ودخلت سنة إحدى وثلاثين ومئة الهجرية ، فأصبح الفيضان المتمثل بالفوضى والانحلال في الدولة فيضاناً ، فقد استمكن أبو مسلم الخُراساني من خُراسان والمشرق الاسلامي ، ومات نصر بن سيّار الذي لم يقصّر في الدفاع عن خُراسان وفي فضح أخطار عمليات أبي مسلم وسوء نيته وحقده الدفين على العرب المسلمين ، فكشف قبل غيره مبكراً مايهدف اليه أبو مسلم في دعوته الشعوبيّة بالخطب والرسائل النثرية والشعرية أيضاً التي وجهتها إلى مروان وعامله على العراق ابن هُبَيْرَة وقادة العرب المسلمين في خراسان وفي المشرق الاسلامي ، ولكن جهوده وجهاده ذهبت أدراج الرياح ، لأنّ الدولة وبخاصة رئيسه المباشر ، وهو ابن‌هبيرة لم ينصره كما ينبغي وكان قادراً على نصره بلا مراء ، ولأنّ الناس في خُراسان انجرفوا بتيار شعارات أبي مسلم الزائفة التي لم يلتزم بحرف منها ، فلما اشتد عضده بدأ بتصفية أنصاره وأعدائه من العرب والمسلمين ، وحينذاك قدم الذين عاونوه من العرب المسلمين حين لاينفع الندم .

ولعلّ موت نصر بن سيّار هو المؤشر الرئيسي للطوفان الجارف الذي أتى على الدولة وعلى العرب المسلمين ، فاقتلع الدولة من جذورها ، وجعل من العرب المسلمين مواطنين من الدرجة الثانية ، وجعل من الشعوبيين مواطنين من الدرجة الأولى (١٢٥) .

---

(١٢٥) انظر تفاصيل موت نصر بن سيار في الطبري(٧/٤٠٣–٤٠٤) وابن الأثير(٥/ ٣٩٥ – ٣٩٦) .

ب. ولما مات نصر ، تقدّمت قادة بني العبّاس إلى (الرَّيّ) (١٢٦) ، فدخلها الحسن بن قَحطبة بدون مقاومة تقريباً .

وحين استقرّ أمر قادة أبي مسلم بالريّ ، هرب أكثر أهلها لميلهم إلى بني أمية ، فأمر أبو مسلم بمصادرة أملاكهم وأموالهم .

وأخذ قَحطبة أمره في الريّ بالحزم والاحتياط وضبط الطرق ، وكان لايسلكها أحد إلاّ بجواز منه .

وبلغ قَحطبة أنّ بـ (دَسْتَبى) (١٢٧) قوماً من الخوارج وصعاليك تجمعوا بها ، فوجّه إليهم أحد قادته في عسكر كثيف ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ظفر بهم ، فتحصّن عددٌ منهم حتى آمنهم ، وأقام معه بعضهم وتفرّق بعضهم .

وكتب أبومسلم إلى ملك طَبرستان يدعوه إلى الطّاعة وأداء الخراج ، فأجابه إلى ذلك .

وكتب إلى صاحب (دُنْبَاوَنْد) (١٢٨) بمثل ذلك ، فأجابه : إنّما أنتَ خارجيّ ، وإنّ أمرك سينقضي » .

وغضب أبو مسلم ، وكتب إلى أحد قادته بالرَّيّ يأمره بالمسير إلى دنباوند وقتاله ، إلى أن يذعن بالطّاعة .

وسار إليه القائد وراسله ، فامتنع من الطّاعة وأداء الخراج ، فأقام القائد محاولاً إخضاعه ، ولكنه عجز عن ذلك لوعورة بلاده وصعوبتها ، وكان صاحبها يرسل إلى قائد أبي موسى كل يوم عدّة كثيرة من الدَيْلَم يقاتله

---

(١٢٦) الري : مدينة مشهورة تعتبر قصبة بلاد الجبال ، بينها وبين نيسابور مئة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً ، انظر معجم البلدان (٤ / ٣٥٥) .

(١٢٧) دستبى : كورة كبيرة مقسومة بين الري وهمذان ، انظر معجم البلدان (٤ / ٥٨) .

(١٢٨) دنباوند : جبل بنواحي الري ، انظر معجم البلدان (٤ / ٨٩) .

في عسكره ، وأخـــذ عليه الطرق ، ومنع المِيرَة ، وكثرت في أصحاب ذلك القائد الجراح والقتل ، فلما رأى أنّه لايبلغ غرضاً عاد إلى الرَّيّ بخُفَّي حُنَيْن .

ولما ورد كتاب قَحطبة على أبي مسلم بنزوله الرّي ، ارتحل أبو مسلم عن مَرْو ونزل نَيْسَابور .

وأما قَحطبة ، فإنّه سيرّ ابنه الحسن بعد نزوله الرَّيّ بثلاث ليالٍ إلى هَمَذان ، فسار عنها حماتها من أتباع الدولة إلى (نَهَاوَنْد) (١٢٩) ، وفرض الحصار عليها الحسن بن قُحطبة (١٣٠) .

ج – وفي هذه السنة قتل عامِر بن ضُبارة أكبر قادة الدولة بعد نصر ابن سيّار ، في معركة حاسمة بين جيش الدولة وقوّات أبي مسلم الخُراساني

فقد ذكرنا أنّ ابن ضُبارة هزم عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ، فهرب الأخير إلى خُراسان وسلك إليها طريق كَرْمان ، فسار ابن ضُبارة في أثره .

وبلغ ابن هبيرة مقتلُ نُباتة بن حَنْظلة بجُرجان ، فكتب إلى ابن ضُبارة وإلى ابنه داود بن يزيد بن عمر بن هُبيرة أن يسيرا إلى قحطبة ، وكانا في كَرمان ، فسارا في خمسين ألفاً ، ونزلوا بأصبهان ، وكان يقال لعسكر ابن ضُبارة : عسكر العساكر .

وبعث قَحطبة إليهما جماعة من القوّاد ، وعليهم جميعاً مُقَاتِل بن حكيم العَكّيّ ، فساروا حتى نزلوا مدينة (قُمَّ) (١٣١) .

---

(١٢٩) نهاوند : مدينة عظيمة في قبلة همذان ، بينهما ثلاثة أيام ، انظر التفاصيل في معجم البلدنا (٨ / ٣٢٩ – ٣٣٢) .

(١٣٠) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٠٤ – ٤٠٥) وابن الأثير (٥ / ٣٩٧ – ٣٩٨) .

(١٣١) قم : مدينة تذكر مع قاشان ، تقع بين اصبهان وساوة ، بينها وبين ساوة اثنا عشر فرسخاً ومثله بينها وبين قاشان انظر معجم البلدان (٧ / ١٥) .

وبلغ ابن ضُبارة نزول الحسن بن قحطبة بنهاوند ، فسار ليعين مَن بها من أصحاب مروان ، فأقبل قَحطبة من الرَّيّ حتى لحق مقاتلَ بن حكيم العَكّيّ .

وتوجّه قَحطبة نحو ابن ضبارة وداود بن يزيد بن هبيرة ، وكان عسكر قَحطبة عشرين ألفاً .

وأمر قَحطبة بمصحف فنصب على رمح ، ونادى : « ياأهل الشّام ! إنّا ندعوكم إلى مافي هذا المصحف ! » فشتموه وأفحشوه في القول ، لأنهم يعلمون أنّ قوله يخالف عمله .

وأمر قَحطبة أصحابه بالحملة ، فحمل العَكّيّ على جيش ابن ضُبارة ؛ فانهزم أهل الشّام بدون مقاومة تذكر ، فقُتلوا قتــلاً ذريعاً بلا هوادة ولا رحمه .

وانهزم ابن ضُبارة حتى دخل عسكره ، وانهزم ابن هبيرة ايضاً ، فأتبع قَحطبة ابن ضُبارة وقتله .

وأصاب قَحطبة عسكر ابن ضبارة ، فأخذ منه مالا يُعلم قدره من السّلاح والمتاع والرّقيق والخيل ، ومارُئى قط عسكر فيه أصناف الأشياء مافي هذا العسكر ، كأنّه مدينة كاملة .

وكانت هذه المعركة بشهر رجب من هذه السنة بنواحي أصبهان (١٣٢)

وقد أثرت هذه المعركة في معنويات جيش الدولة فانهارت ، وفي معنويات قوات أبي مسلم فارتفعت ، كما تحسنت القضايا الادارية في جيش أبي مسلم اثراء ماغنموه من عسكر ابن ضبارة .

د. وفي هذه السنة ، وبعد انتصار قَحطبة في أصبهان على جيش الدولة

---

(١٣٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٠٥ – ٤٠٦) وابن الأثير (٥ / ٣٩٨ – ٣٩٩) .

وقتل قائد من أبرز قادتها ، كتب قَحطبة إلى أبنه الحسن هو يحاصر نَهاوند يبشره بانتصاره وقتل ابن ضُبارة ، فكبّر أصحاب ابن قَحطبة ، ففتّ ذلك في عضد المحاصَرين في نهاوند من قوّات الدولة ، فاقترح أحد قادتهم أن يخرجوا لقتال ابن قَحطبة قبل أن يأتيه أبوه أو مدد من عنده ، فاذا أخفقوا تفرّقوا في البلاد ، كلّ واحد أو مجموعة في البلد الذي يأويهم ويأمنون فيه على أرواحهم .

ولكنّ الرَّجّالة من المحاصَرين قالوا : تخرجون وأنتم فرسان على خيول وتتركوننا ؟ ! .

وأقام قَحطبة على أصبهــان عشرين يوماً ، ثم سار فقــدم على ابنه بنَهاوند ، فحصرهم ثلاثة أشهر : شعبان ورمضان وشوّال ، ووضع عليهم المجانيق ، وضيّق عليهم الحصار .

وأرسل إلى أهل الشّام يدعوهم إلى الاستسلام وأعطاهم الأمان ، ففتحوا له الباب .

وخرج الذين لم يوافقوا على الاستسلام ، فدفع قَحطبة الأسرى إلى قادته ، ثم أمر فنودي : مَنْ كان بيده أسير ممَنْ خرج إلينا ، فليضرب عنقه ، وليأتنا برأسه .

وقُتل الأسرى ، فلم يبق أحد ممَنْ كان قد هرب من أبي مسـلم إلاّ قُتل ، إلاّ أهل الشّام ، فأنّه وَفى لهم وخلّى سبيلهم ، وأخذ عليهم عهداً ألاّ يمالئوا عليه عدواً .

ولما حاصَر قَحطبة نَهاوند ، أرسل ابنه الحسن إلى (بُرْج القَلْعَة)(١٣٣) ،

---

(١٣٣) برج القلعة : برج بينه وبين حلوان مرحلة ، وهو من حلوان إلى جهة همذان ، انظر معجم البلدان (٨ / ١٦) .

فاستولى على (حُلْوان) (١٣٤) التي انسحب منها حماتها (١٣٥) .

هـ. وفي هذه السنة أيضاً استمر تطبيق الخُطّة المرسومة لتطهير خُراسان وماحولها من بلاد المشرق الاسلامي بالتدريج من العرب المسلمين ، والتقدّم لتطهير العراق من قوّات الدولة ، والاستيلاء عليها من قبل قوّات أبي مسلم الخُراساني ، وبعد الاستيلاء على بلاد الجبال ، جاء دور منطقة شَهْرَزُوْر فبعث قحطبة للاستيلاء عليها أربعة آلاف مقاتل بقيادة قائدين من أهل خُراسان ، فنزلوا على فرسخَين من شهرزور في العشرين من ذي الحجة ، وقاتلوا عثمان ابن سفيان الذي كان على مقدّمة عبدالله بن مروان بن محمد بن الحكم وهو ابن الخليفة بعد يوم وليلة من نزولهم ، فانهزم أصحاب عثمان وقُتل عثمان ، وأقام قائداً قَحطبة في بلاد الموصل .

وسيّر قَحطبة العساكر مدداً لقائديه ، فاجتمع معهما ثلاثون ألفاً .

ولما بلغ مروانَ خبر هذه الهزيمة ، وكان يومها بحرّان ، سار منها ومعه جنود أهل الشّام والجزيرة والموصل ، وحشر معه بنو أُميّة أبناءهم ، وأقبل حتى نزل نهر الزّاب الكبير (١٣٦) .

و. وفي هذه السّنة أيضاً ، خرج يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة نحو قَحطبة في عدد كثير لايُحصى ومعه حَوْثرة بن سُهَيْل الباهِليّ ، وكان مروان أمدّ به ابن هُبَيْرَة .

وسار ابن هُبَيرة حتى نزل (جَلُولاء) (١٣٧) ، واحتفر الخندق

---

(١٣٤) حلوان : حلوان العراق ، وهي في آخر حدود السواد ، بين جلولاء وهمذان ، ، انظر معجم البلدان (٣ / ٣٢٢) .

(١٣٥) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٠٧ - ٤٠٩) وابن الأثير (٥ / ٣٩٩ - ٤٠٠) .

(١٣٦) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٠٩) وابن الأثير (٥ / ٤٠٠ - ٤٠١) .

(١٣٧) جلولاء : منطقة من مناطق السواد في طريق خراسان ، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ ، تقع على نهر عظيم يمتد إلى بعقوبة (نهر ديالى) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ١٢٩ - ١٣٠) ، ومكانها معروف اليوم .

الذي كانت العجم قد احتفرته أيام معركة جلولاء في الفتح الاسلامي سنة ست عشرة الهجرّية (٦٣٧ م) ، وأقام ابن هُبيرة في هذا الخندق .

وأقبل قحطبة حتى نزل (قَرْمِيْسِيْن) (١٣٨) ، ثمّ سار إلى حُلوان ، ثمّ إلى (خَانِقِيْن) (١٣٩) وأتى (عُكْبَرَاء) (١٤٠) ، وعبر دجلة ومضى حتى نزل (دِمِمَّا) (١٤١) دون (الأنبار) (١٤٢) .

وارتحل ابن هبيرة بمن معه منصرفاً مبادراً إلى الكوفة لمواجهة قَحطبة وقدّم حَوْثرة في خمسة عشر ألفاً إلى الكوفة .

وقيل : إنّ حوثرة لم يفارق ابن هُبَيْرة ، والأول أصحّ ، لأنّ ابن هبيرة لابدّ أن تكون له مقدّمة ، وحوثرة يومئذ أبرز قادته ، فمن المعقول أن يعهد إليه بهذا الواجب دون غيره من القادة .

وأرسل قَحطبةُ طائفة من أصحابه إلى الأنبار ، وأمرهم باحدار مافيها من السفّن إلى (دِمِمَّا) ليعبروا الفرات ، فحماوا إليه كلّ سفينة هناك ، فقطع قحطبةُ الفرات حتى صار في غربيّه ، ثم سار يريد الكوفة ، حتى انتهى إلى الموضع الذي فيه ابن هُبَيرَة .

(١٣٨) قرميسين : بلد بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً ، قرب الدينور ، وهي بين همذان وحلوان ، على جادة الحج ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ٦٣) .

(١٣٩) خانقين : بلد من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد ، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال ، ومن قصر شيرين إلى حلوان ستة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ / ٣٩٢ - ٣٩٣) ، وهي مدينة عراقية معروفة اليوم .

(١٤٠) عكبراء : بليدة من نواحي دجيل بغداد ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦ / ٢٠٣) .

(١٤١) دما : قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد عند الفلوجة ، انظر معجم البلدان (٨٣/٤) .

(١٤٢) الأنبار : مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ ، انظر معجم البلدان (١ / ٣٤٠ - ٣٤٢) ، وهي قريبة جداً من مدينة الفلوجة المعروفة اليوم وأطلا لها قائمة معروفة .

وخرجت هذه السنة (١٤٣) ، وجاءت السنة الجديدة ، وكانت المنصرمة سنة أصبحت المبادرة خلالها بيد قوّات أبي مسلم الخراساني ، وفقدت الدولة المبادرة فيها نهائياً ، وكانت سنة انتصارات بالنسبة لقوّات أبي مسلم ، وسنة اندحارات بالنسبة لقوات الدولة ، مما جعل قوات أبي مسلم تتمتّع بالمعنويات العالية ، وقوّات الدولة تعاني من انهيار معنوياتها .

٧ – الكارثة

أ. دخلت سنة اثنتين وثلاثين الهجريّة (٧٤٩ م) ، وهي سنة الكارثة التي قضت على دولة وجاءت بدولة جديدة : قضت على الدولة التي كان العرب المسلمون فيها مواطنين من الدرجة الأولى ، وجاءت بدولة أصبح فيها العرب المسلمون مواطنين من الدرجة الثانية ، فانقضى عهد الدولة الواحدة ، وحلّ عهد الدول المتفرقة ، وانقضى عهد الفتح ومضى إلى غير رجعة ، وابتدأ عهد الدفاع المُسْتَكِنّ ، وتكاثرت الهزائم والمصائب والنكبات على العرب المسلمين في كل مكان .

لقد سقطت الدولة العربية في هذا العام ، والعرب مادة الاسلام بلا مراء.

فقد عبر قَحطبة هذه السنة في شهر المحرّم لثمانٍ مضين منه ، نهر الفرات وصار في غربيّة ، وكان ابن هُبيرة قد عسكر في فم الفرات من أرض الفَلّوجَة التي تقع على الفرات غربي بغداد وعلى مسافة ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة ، وقد اجتمع إليه فلول جيش ابن ضُبارة ، وأمدّه مروان بحَوْثَرة الباهليّ ، فقال حوثرة وغيره لابن هُبَيرة : « إنّ قَحطبة قد مضى يريد الكوفة ، فاقصد أنتَ خُراسان ، ودَعْه ومروان ، فإنّك تكسره ، وبالحريّ أن يتبعك » ، فقال : « ما كان ليتبعني ويدع الكوفة ، ولكنّ الرأي أن ابادره إلى الكوفة » .

(١٤٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤١٠) وابن الأثير (٥ / ٤٠١ – ٤٠٢) .

واستعمل ابن هبيرة على مقدّمته حوثرة ، وأمره بالمسير إلى الكوفة ، وكان الفريقان يسيران على جانبي الفرات .

وقال قحطبة لرجاله : « إنّ الامام أخبرني أن لي في هذا المكان وقعة ، يكون النّصر فيها لنا » .

ونزل قحطبة (الجباريّة) (١٤٤) في طريقه إلى الكوفة ، وقد دلّوه على مخاضة ، فعبر منها وقاتل حوثرة ، فانهزم أهل الشّام .

ولكنّ جيش قَحطبة فَقَدَ قَحطبة ، فقال أصحابه : مَنْ كان عنده عهد من قحطبة ، فليخبرنا به ! فقال مُقاتل بن مالك العَتَكِي : « سمعتُ قحطبة يقول : إن حدثَ بي حَدَثٌ ، فالحسن ابني أمير الناس » .

وبايع النّاس حُمَيْد بن قَحطبة لأخيه الحسن ، وكان قد سيّره أبوه في سريّة ، فأرسلوا إليه وأحضروه ، وسلّموا إليه الأمر .

ولما فقدوا قَحطبة بحثوا عنه فوجدوه في جدول وحرب بن سالم بن أحْوَز قتيلين ، فظنوا أنّ كلّ واحد منهما قد قَتَل صاحبه .

وقاتل أهل خرُاسان ، فانهزم أهل الشّام .

ولما انهزم حوثرة لحق بابن هبيرة ، فانهزم ابن هبيرة بهزيمته ، ولحقوا بواسِط وتركوا عسكرهم بما فيه من الأموال والسِّلاح (١٤٥) .

ولايمكن أن نطلق تعبير : معركة ، على هذا الذي حدث بين الجانبين ، فلم يكن هناك قتال بالمعنى الصحيح ، بل كان هناك هزيمة منكرة أو فضيحة على أصدق تعبير ، فما كادت مقدّمة ابن هُبيرة تنهزم ، إلاّ انهزم الجيش كلّه وعلى رأسه قائده ابن هبيرة ، وهذا إن دلّ على شيءٍ ، فانما يدلُ

---

(١٤٤) الجبارية : لاذكر لها في معجم البلدان ، والظاهر أنهـا تقع بين الفلوجة والكوفة على الفرات .

(١٤٥) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤١٤ – ٤١٧) وابن الأثير (٥ / ٤٠٣ – ٤٠٤).

على انهيار معنويات جيش الدولة وسوء قيادتها وتغلغل الدعوة العباسيّة بين صفوفها سراً .

وقد كان قتل قحطبة وتغيّبه عن قيادة أصحابه مدة كان خلفه فيها بعيداً عن ساحة القتال فرصة ذهبية بالنسبة لجيش الدولة ، ولكن ابن هبيرة لم ينتهزها في تحطيم قوّات أبي مسلم ، وكان في شغل شاغل عنها بالهزيمةِ التي تقبّلها بدون قتال تقريباً .

إن هذه المعركة خير مؤشر على أنّ الدولة القائمة تسير بخطىً حثيثة إلى الزوال .

ب. ولعلّ أوضح دليل على انهيار الدولة القائمة ماحدث بالكوفة ، فقد خرج محمد بن خالد بن عبدالله القَسْرِيّ بالكوفة مسوِّداً قبل أن يدخلها الحسن ابن قَحْطَبَة ، وأخرج عنها عاملَ ابن هبيرة ، ثم دخلها الحسن .

وكان من خبره ، أن محمّداً خرج بالكوفة ليلة عاشوراء مسوِّداً وعلى الكوفة زياد بن صالح الحارثي ، وعلى شُرَطه عبدالرحمن بن بشير العجليّ . وسار محمّد إلى قصر الامارة بالكوفة ، فارتحل زياد ومَنْ معه من أهل الشّام ، ودخل محمد القَصر .

وسمع حَوْثرة الخبر ، فسار نحو الكوفة ، فتفرّق عن محمّد عامّة مَنْ معه لما بلغهم الخبر ، وبقي في نفرٍ يسيرٍ من أهل الشّام ومن اليمانيين الذين كانوا قد هربوا من مروان ، وكان معه مواليه أيضاً .

وأرسل أبو سَلِمَة الخَلاّل ، ولم يظهر بعد ، إلى محمد يأمره بالخروج من القصر تخوّفاً عليه من حَوْثَرَة ومَنْ معه ، ولم يبلغ أحداً من الفريقين هلاك قَحطبة بَعْدُ .

وبلغ حوثرة تفرّق أصحاب محمد عنه ، فتهيّأ للمسير نحوه .

وبينما محمّد في القصر ، إذ أتاه بعضُ طلائعه فقال له : « قد جاءت خيل من أهل الشّام ، فوجّه إليهم عدّة من مواليه ، فناداهم الشّاميّون : نحن بَجِيْلة وفينا مليح بن خالد البَجَلِيّ ، جئنا اندخل في طاعة الأمير ، فدخلوا ! !

ثمّ جاءت خيل أعظم منها مع رجل من آل بَحْدَل ، فلما رأى ذلك حوثرة من صنع أصحابه ، ارتحل نحو واسِط .

وكتب محمّد بن خالد من ليلته إلى قَحطبة ، وهولا يعلم بهلاكه ، يُعْلِم أنّه قد ظفر بالكوفة .

وقدم رسول محمّد بن خالد على الحسن بن قحطبة ، فلما دفع إليه كتاب محمد بن خالد ، قرأه على النّاس ، ثم ارتحل نحو الكوفة ، فأقام محمد بالكوفة يوم الجمعة والسّبت والأحد ، وصحبّه الحسن بن قَحطبة يوم الاثنين .

وقيل : إنّ الحسن بن قَحطبة أقبل نحو الكوفة بعد هزيمة ابن هُبَيْرَة ، وعليها عبدالرحمن بن بشير العجليّ ، فهرب عنها ، فسوّد محمّد بن خالد وخرج في أحد عشر رجلاً ، وبايع الناسُ .

ودخل الحسن بن قَحطبة الكوفة من الغد ، فأتوا أبا سَلِمَة ، وهو من بني سَلِمَة ، فاستخرجوه ، فعسكر بالنُخَيْلَة (١٤٦) يومين ، ثم ارتحل إلى (حَمّام أعْيَن) (١٤٧) ، ووجّه الحسن بن قَحطبة إلى واسِط لقتال ابن هُبيرة .

وبايع النّاس أبا سَلِمَة حفصَ بن سليمان مولى السُّبَيْع ، وكان يقال له : وزير آل محمّد ، واستعمل محمّدَ بن خالد بن عبدالله القَسْرِيّ على الكوفة ، وكان يقال له : الأمير ، حتى ظهر أبو العبّاس السفّاح .

---

(١٤٦) النخيلة : موضع قرب الكوفة ، على سمت الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٢٧٦ - ٢٧٧) .

(١٤٧) حمام أعين : موضع بالكوفة مشهور ، منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص ، انظر معجم البلدان (٣ / ٣٣٤) .

ووجّه أبوسَلِمَة إلى المدائن حُمَيْد بن قحطبة في قوّاد ، وبعث المُسَيّب ابن زهير وخالد بن برمك إلى (ديرْ قُنَى) (١٤٨) ، وبعث إلى (عين التمر) وإلى الأهواز وبها عبدالواحد بن عمر بن هُبيرة ، فخرج عنها عبدالواحد إلى البصرة .

كما بعث إلى البصرة أيضاً أحد قادته ، ولكن قائدها دافع عنها ، فانهزم قائد أبي سَلِمَة ، وكان قائدها سلم بن قتيبة الباهلِيّ الذي ظلّ في البصرة حتى أتاه قتل ابن هُبيرة ، فتخلّى عنها (١٤٩) .

ويبدو أنّ انتشار الدعوة للعباسيين سرّاً ، هي التي أدّت إلى ضعف مقاومة رجال الدولة عن دولتهم في العراق واستسلامهم بشكل أو بآخر بدون مقاومة تذكر لقادة أبي مسلم ، وسيرهم تحت ألويتهم وتأييدهم لهم في الناحيتين العسكرية والادارية ، ولعلّ بقاء ونشاط أبي سلِمة في الكوفة سرّاً مكتوماً ، دليل على حذقه في الأعمال السريّة وحذره ويقظته ، فلم يعرف شأنه أحد من رجال الدولة إلاّ بعد أن انسحب قادة الدولة من الكوفة وتسلّمها العبّاسيون ، وحينذاك فقط ظهر ابو سَلِمَة كأقوى رجل في الدولة المرتقبة .

ج — وفي هذه السنة ، سار أبو العبّاس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العبّاس من (الحُمَيْمَة) إلى الكوفة بعد استسلامها لقادة أبي مسلم الخُراساني . وكان سبب مسيره على رأس بني العبّاس من آل بيته ، أنّ إبراهيم الامام لما أخذه رسول مروان إلى السِّجن الذي تُوفي فيه ، نعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبدالله بن محمّد وبالسّمع والطّاعة له ، وأوصى إلى أبي العبّاس وجعله الخليفة بعده .

---

(١٤٨) دير قنى : دير على ستة عشر فرسخاً من بغداد منحدراً بين النعمانية ، وهو في الجانب الشرقي ، معدود من أعمال النهروان ، بينه وبين دجلة ميل ، وعلى دجلة مقابله مدينة صغيرة يقال لها : الصافية ، وقد خربت ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤ / ١٦٤) .

(١٤٩) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤١٧ — ٤٢٠) وابن الأثير (٥ / ٤٠٤ — ٤٠٧).

فسار أبو العبّاس ومَنْ معه من آل بيته إلى الكوفة ، حتى قدموها في شهر صفر ، وشيعتهم من آل خُراسان بظاهر الكوفة بحمّام أعْيَن ، فأنزلهم أبو سَلِمَة الخلاّل دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم ، وكتم أمرهم نحواً من أربعين يوماً من جميع القوّاد والشّيعة .

وبويع لأبي العباس عبدالله بن محمد يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول (١٥٠) من سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩م).

وهكذا أصبح للدولة الاسلامية خليفتان : أمويٌّ وعباسيّ ، فكان لابد من تصفية الحساب بينهما ليذهب خليفة ويبقى خليفة .

وسار مروان من حَرَّان على رأس عشرين ومئة الف إلى الزاب الكبير (١٥١) للقاء قائد قَحطبة الذي استولى على شَهْرَزور وهو أبو عَوْن عبدالملك ابن يزيد الأزديّ ، فوجّه أبو سَلِمَة إلى أبي عَوْن ثلاثة من قادته ، مع كلّ قائد ثلاثة آلاف مقاتل .

ولما ظهر أبو العبّاس السفّاح وبويع له بالخلافة ، بعث إلى أبي عَوْن قائدين من قادته ، مع الأول منهما ألفان ، ومع الثاني ألف وخمسمائة، ثم بعث قائداً ثالثاً في ألفين ، ثم أردفهم برابع ومعه خمسمائة ، ثم قال أبو العبّاس : « مَنْ يسير إلى مروان من أهل بيتي ؟ » ، فقال عبدالله بن عليّ : « أنا » ، فسيّره إلى أبي عَوْن ، فقدم عليه ، فتحوّل أبو عون عن سرادقه وخلاّه له ومافيه .

فلما كان لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومئة ، سأل عبدالله بن عليّ عن مخاضة في الزّاب ، فدلّ عليها ، فأمر عُيَيْنَة بن

---

(١٥٠) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٢١ - ٤٣١) وابن الأثير (٥ / ٤٠٨ - ٤١٧).

(١٥١) الزاب الكبير : هو الزاب الأعلى ، بين الموصل وأربيل ، ويجري بين الجبال والأودية ، وماؤه شديد الحمرة ، ويوم الزاب بين مروان وبني العباس كان على الزاب الأعلى بين الموصل وأربيل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤ / ٣٦٣ - ٣٦٥) .

موسى أحد قادته المرؤوسين ، فعبر في خمسة آلاف ، فانتهى إلى عسكر مروان ، فقاتلهم حتى أمسوا ، ثمّ رجع إلى عبدالله بن عليّ .

واصبح مروان ، فعقد الجسر وعبر عليه ، فنهاه وزراؤه عن ذلك ، فلم يقبل . وسيّر ابنه عبدالله بن مروان ، فنزل اسفل من عسكر عبدالله بن عليّ ، فسرّح إليه عبدالله بن علي قائداً من قادته يدعى : المخارق في أربعة آلاف .

والتقى الجانبان ، فثبت جيش مروان ، وانهزم أصحاب المخارق. وثبت المخارق ، فأُسر هو وقسم من جماعته ، فسيرّهم قائد مروان إلى مروان مع رؤوس القتلى .

ولما بلغت الهزيمة عبدالله بن عليّ ، أرسل إلى طريق المنهزمين مَنْ يمنعهم من دخول معسكره ، لئلا يؤثروا في معنويات رجاله ، فبقوا خارج ميدان القتال (١٥٢) .

وأشار أبو عَوْن على عبدالله بن علي ، أن يبادر مروان بالقتال ، قبل أن ينتشر خبر هزيمة المخارق بينهم ، فيفتّ ذلك في أعضادهم ، فنادى عبدالله ابن عليّ في جيشه بلبس السّلاح والخروج إلى الحرب .

و سار عبدالله إلى مروان . وجعل على ميمنته أبا عَوْن ، وعلى ميسرته الوليد ابن معاوية ، وكان عسكره عشرين ألفاً ، وقيل : اثني عشر ألفاً ، وقيل غير ذلك .

وأرسل مروان إلى عبدالله يسأله الموادعة ، فرفض عبدالله وأنشب القتال . وأمر مروان ألاّ تبدأهم قواته بالقتال ، ولكنّ الوليد بن معاوية بن مروان ابن الحكم ، وهو ختن مروان بن محمد على ابنته تحرّش بهم ، فغضب مروان وشتمه .

(١٥٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٣٢ - ٤٣٣) وابن الأثير (٥ / ٤١٧ - ٤١٨) .

و قاتل الوليد بن معاوية بن مروان أبا عَوْن ، فانحاز أبو عون إلى عبدالله ، فقال موسى بن كعب أحد قادة عبدالله بن عليّ : « يا عبدالله ! مرِ النّاس فلينزلوا » ، فنودى : الأرضَ . . . الارضَ . . فنزل النّاس وأشرعوا الرِّماح وجَثَوْا على الرُّكب فقاتلوا جيش مروان ، وجعل أهل الشام يتأخّرون كأنهم يُدفعُون دفعاً .

واشتدّ بين الجانبين القتال .

وقال مروان لقُضاعه : انزلوا ، فقالوا : قـل لنبي سُلَيْم فاينزلوا ، فأرسل إلى السّكاسك : أن احملوا ، فقالوا : قل لبني عامرٍ فليحملوا ! وأرسل إلى السكـون أن احملوا ، فقـالوا : قل لغَطَفَان فليحملوا ! وقال لصاحب شرطتـه : انزل ، فقال : والله ما كنت لاجعـل نفسي غرضاً . قال : أما والله لأسوءنّك ! فقال : ودِدْتُ والله أنك قدرتَ على ذلك ! ! ..

وكان مروان ذلك اليوم لا يدبِّر شيئاً إلاّ كان فيه الخللُ ، فأمر بالأموال فأخرجت ، وقال للنّاس : « اصبروا وقاتلوا وهذه الأموال لكم » ، فجعل ناس من النّاس يصيبون من ذلك ، فقيل له : إنّ النّاس قد مالوا على هذا المال ، ولا نأمنهم أن يذهبوا به ! فأرسل إلى ابنه عبدالله : أن سِرْ في أصحابك إلى مؤخّر عسكرك ، فاقتل مَن أخذ من المال وامنعهم ! !

ومال عبدالله بن مروان برايته وأصحابه ، لينفِّذ أمر والده مروان في حماية المال ، فقال الناس : الهزيمةَ . . . . الهزيمة ! فانهزم مروان وانهزموا ، وقُطع الجسر ، وكان مَنْ غرق يومئذٍ أكثر ممن قُتل .

وكانت هزيمة مروان بالزّاب يوم السّبت لإحـدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة (١٥٣) .

---

(١٥٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٣٢ – ٤٣٥) وابن الأثير (٥ / ٤١٧ – ٤٢١) .

وكانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة ، فقد بدأت دولة جديدة هي دولة بني العباس ، وأنْهَت دولة قديمة هي دولة بني أُميّة ، وكان المتوقَّع أن يكون فيها القتال استقتالاً من الجانبين المتقاتلين ، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك ، فما قاتل جيش مروان ، ولا صبر على القتال ساعات ، وانهزم بدون قتال جماعي تقريباً ، وربما قاتل أفراد منه فأحسنوا القتال ، ولكنّ القتال الفردي لا تأثير له في سير المعركة. والقتال الجماعي وحده هو الذي له تأثير في سير المعركة ونتائجها .

ونعود إلى أسباب هزيمة مروان في هذه المعركة الحاسمة وشيكاً ، عند الحديث عن سمات مروان قائداً في فقرة القائد .

الإنسان

١ـ لما هُزم مروان في معركة الزاب الحاسمة ، هرب من ساحه المعركة ، وعبر نهر دجلة من مدينة (بَلَد) (١٥٤) حتى أتى مدينة حرّان ، فأقام بها نيِّفاً وعشرين يوما .

وسار عبدالله بن علي العباسيّ حتى أتى الموصل ، فدخلها وعزل عامل مروان عليها واستعمل عليها عاملاً جديداً ، وذلك بُعَيْد معركة الزّاب مباشرة .

وسار في أثر مروان ، فلما دنا منه حمل مروان أهله وعياله ومضى منهزماً وخلّف بمدينة حرّان ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن الحكم وتحته أمّ عثمان ابنة مروان .

وقدم عبدالله بن عليّ حرّان ، فلقيه أبان مسوِّداً مبايعاً له ، فبايعه ودخل في طاعته فأمّنه ومَنْ كان معه بحرّان والجزيرة .

(١٥٤) بلد : مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل ، بينها سبعة فراسخ ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً ، ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٢٦٥) .

ومضى مروان إلى حِمْص ، فلقيه أهلها بالسّمع والطّاعة ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم غادرها ، فلما رأى أهل حمص قلّة مَن معه . طمعوا فيه و هو مرعوب منهزم ، فأتبعوه بعدما رحل عنهم ، فلحقوه على أميال من المدينة .

ورأى مروان غبرةَ الخيل ، فوضع لهم كميناً ، فلما جاوزوا الكمين صافّهم مروان فيمَن معه وناشدهم ألا يقاتلوه ، فأبوا إلا قتاله . وقاتلهم مروان وأتاهم الكمين من خلفهم ، فانهزم أهل حِمْص وقُتلوا حتى انتهوا إلى قريب المدينة .

وأتى مروان دمشق ، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان ، فخلّفه فيها وقال : « قاتلهم حتى يجتمع أهل الشّام » .

ومضى مروان حتى أتى فلسطين ، فنزل (نهر أبي فُطْرس) (١٥٥) . وقد غلب على فلسطين الحَكَم بن ضبعان الجُذامي ، فأرسل مروان إلى عبدالله بن يزيد بن رَوْح بن زنباع الجُذاميّ فأجاره .

وكان السفّاح قد كتب إلى عبدالله بن عليّ يأمره باتباع مروان ، فسار في أثره حتى أتى الموصل ، فتلقّاه مَنْ بها مسوّدين وفتحوا له المدينة ، ثم سار إلى حرَّان فتلقّاه أهلها مسوّدين أيضاً ، فهدم عبدالله الدّار التي حُبس فيها إبراهيم الإمام . وسار عبدالله من حرَّان إلى (مَنْبِج) (١٥٦) وقد سوّدوا ، فأقام بها وبعث إليه أهل (قِنّسْرِيْن) (١٥٧) ببيعتهم ، وقدم عليه أخوه عبدالصّمد بن علي ، أرسله السفّاح مدداً له في أربعة آلاف ، فسار بعد قدوم

---

(١٥٥) نهر أبي فطرس : موضع قرب مدينة الرملة من أرض فلسطين ، والنهر مخرجه من أعين في الجبل المتصل بنابلس ويصب بالبحر الميت ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٣٣)

(١٥٦) منبج : مدينة كبيرة واسعة ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ، انظر معجم البلدان (٨ / ١٦٩) .

(١٥٧) قنسرين : مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ١٦٧ - ١٧٠) .

عبدالصّمد إلى قنّسرين بيومين ، وكانوا قد سوّدوا ، فأقام يومين . وسار إلى حِمْص وبايع أهلهـا وأقام بها أياماً . ثم سار إلى (بَعْلَبَكّ) (١٥٨) فأقام بها يومين . ثمّ سار فنزل (المِزَّة)(١٥٩) مزّة دمشق ، وهي قرية من قرى الغوطة ، فقدم عليه أخوه صالح بن علي مدداً له .

وحاصر عبدالله بن علي دمشق ، فدخلها عَنْوَة يوم الاربعاء لخمس مضين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريّة .

وأقام عبدالله بن عليّ في دمشق خمسة عشر يوماً ، ثم سار يريد فلسطين . فلقيه أهل الأُردن وقد سـوّدوا . وأتى نهر أبي فُطْرُس وقد ذهب مروان ، فأقام عبدالله بفلسطين ، فأتاه كتاب السفّاح يأمره بإرسال صالح بن علي في طلب مروان .

وانطلق صالح حتى بلغ (العَرِيْش) (١٦٠) ، فأحرق مروان ما كان حوله من علف وطعام .

وسار صالح ، فنزل نهر النّيْل ، ثمّ سار حتى أتى (الصَّعِيْد)(١٦١) ، وبلغه أنّ خيلاً لمروان يحرقون الأعلاف ، فوجّه إليهم قوّة من قوّاته ، فأُخذوا وقُدم بهم على صالح وهو بـ (الفُسْطَاط) (١٦٢). وسار فنزل موضعاً يقال

---

(١٥٨) بعلبك : مدينة قديمة فيها آثار قديمة ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام من جهة الساحل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٢٢٦) .

(١٥٩) المزة : قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نصف فرسخ ،انظر معجم البلدان (٨ / ٤٧) ، وهي اليوم ضاحية من ضواحي دمشق الحديثة .

(١٦٠) العريش : مدينة كانت أول عمل من أعمال مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦ / ١٦٢ - ١٦٣) .

(١٦١) الصعيد : بلاد واسعة كبيرة بمصر ، فيها عدة مدن عظام منها مدينة أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ٣٦٠ - ٣٦١) .

(١٦٢) الفسطاط : مدينة في مصر بناها عمرو بن العاص فاتح مصر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦ / ٣٧٧ -٣٨٤) ، وهيمدينة القاهرة القديمة حول جامع عمرو بنالعاص الموجود حالياً .

له : (ذات السّلاسل) (١٦٣)، وقدّم أبا عَوْن عامر بن اسماعيل الحارثيّ وشُعْبَة بن كثير المازنيّ في خيل أهل الموصل ، فلقوا خيلاً لمروان فهزموهم وأسروا منهم رجالاً ، فقتلوا بعضاً واستحيوا بعضاً. وسألوهم عن مروان فأخبروهم بمكانه على أن يؤمنوهم. وساروا فوجدوه في كنيسة في (بوصير)(١٦٤) فوافوه ليلاً وكان أصحاب أبي عَوْن قليلين، فقال عامر بن إسماعيل : « إنْ أصبحنا ورأوا قلّتنا أهلكونا ولم ينجُ منّا أحد » ، وكسر جفن سيفه ، وفعل أصحابه مثله ، وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا ، وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه . وصاح صائح : « صُرِع أمير المؤمنين » ، فابتدروه، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة فاحتزّ رأسه ، فأخذه عامر وبعث به إلى أبي عَوْن، وبعثه أبو عَوْن إلى صالح بن عليّ، فسيّره صالح إلى أبي العبّاس السفّاح.

وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجّة ، ورجع صالح إلى الشّام، وخلّف أبا عَوْن بمصر ، وسلّم إليه السّلاح والأموال والرّقيق .

وحين وصل رأس مروان إلى السفّاح سجد شكراً لله .

ولما قُتل مروان ، هرب ابناه عبدالله وعُبَيْد الله إلى أرض الحبشة ، فلقوا من الحبشة بلاء شديداً : قاتلهم الحبشة ، فقُتل عبيدالله ونجا عبدالله في عدّة ممّنْ معه ، فبقي إلى خلافة المهديّ ، فأخذه نَصْر بن محمّد بن الأشعث عامل فلسطين للمهدي ، فبعث به الى المهديّ .

ولما قُتل مروان كان عمرُه ستاً وخمسين سنة قمريّة ، إذ ولد سنة ست وسبعين الهجريّة ، وقتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية ، وأربعاً وخمسين سنة شمسيّة (١٦٥) ، إذ ولد سنة (٦٩٥ م) وقتل سنة (٧٤٩ م) .

---

(١٦٣) ذات السلاسل : لاذكر لها في معجم البلدان ، ويبدو أنها في الصعيد .

(١٦٤) بوصير : هي قرية بوصير قوريدس من كورة الأشمونين ، إحدى كور الصعيد الأدنى غربي النيل ، وهي القرية التي قتل بها مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية ، انظر معجم البلدان (١ / ٢٦١) و (٢ / ٣٠٦) .

(١٦٥) ورد أن عمره حين قتل اثنتان وستون سنة ، وقيل إن عمره تسع وستون سنة، ولا يصح =

وكانت ولايته على الخلافة حين بويع إلى أن قُتل خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوماً .

وكان يكنّى : أبا عبدالملك ، وكان أبيض أشهل شديد الشّهلة ، ضخم الهامة ، كثّ اللّحية أبيضها ، رَبْعَة ، وكان حازماً شجاعاً إلاّ أنّ مدّته انقضت فلم ينفعه حزمه ولا شجاعته (١٦٦) .

وكان كثير المروءة ، كثير العُجب ، يعجبه اللّهو والطّرب ، ولكنّه كان يشتغل عن ذلك بالحرب (١٦٧) .

أولاده : عبدالملك ، وعبدالرحمن ، وعثمان ، وعبدالله ، وعُبَيْدالله ، وعبدالغفّار ، ويزيد . وأبو عثمان ، ومحمد . وأبان (١٦٨) .

نزل حرّان من أرض الجزيرة ، وكان جميع مَنْ مَلَكَ قبله من بني أميّة ينزلون دِمَشْق ، ومنهم مَنْ كان يَتَبَدّى ، وكانت أيامه كلّها فتناً وحروباً ، ولم تصفُ له الأمور (١٦٩) ، فما استراح لحظة بعد أن تولّى الخلافة ، وقاتل في عـدة جبهات داخليّة : جبهة بني أميّة المخالفين وجبهة بلاد الشام ، وكان المفروض أن تكون هاتان الجبهتان له لا عليه . كما قاتل في جبهة الحجاز واليمن والأندلس ، والعراق وخُراسان وبلاد المشرق الإسلامي كافة ، ولعلّ أخطر الجبهات التي قاتل فيها هي جبهة خُراسان بخاصة وجبهة المشرق الإسلامي بعامة ، فهذه هي الجبهة التي قَضَت عليه خليفةً وعلى دولة الأُمويين في الشّام ، وأدّت فيما أدّت إليه إلى قيام الدولة العباسيّة .

= هذا ، لأن مولده معروف وسنة قتله معروفة أيضاً ، وهو كما ذكرنا في أعلاه .

(١٦٦) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٤٣٧ - ٤٤٣) وابن الأثير (٥ / ٤٢٤ - ٤٢٩) وابن كثير (١٠ / ٤٤ - ٤٦) ، وانظر العبر (١ / ١٧٤) .

(١٦٧) ابن كثير (١٠ / ٤٧) .

(١٦٨) جمهرة أنساب العرب (١٠٧) وانظر العقدالفريد (٤ / ٤٦٩) .

(١٦٩) التنبيه والأشراف (٣٢٥) .

٢- وينبغي أن نفرّق بين مروان الوالي ، ومروان الخليفة ، فبقدر ما كان مروان الوالي موفّقاً في عمله إدارياً وقائداً وإنساناً ، كان مروان الخليفة غير موفق في عمله إدارياً وقائداً وإنساناً .

فقد استعمل هشام بن عبدالملك على الجزيرة وأذربيجان وإرمينية ابن عمّه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم سنة أربع عشرة ومئة الهجرية كما علمنا ، خلفاً لمَسْلَمَة بن عبدالملك مروان .

وكان سبب ذلك ، أنّه كان في عسكر مَسْلَمَة بإرمينية حين غزا الخزَر ، فلما عاد مَسْلَمَة من غزوته سار مروان إلى الخليفة هشام ، فلم يشعر به حتى دخل عليه ، فسأله عن سبب قدومه ، فقال : « ضِقْتُ ذرعاً بما أذكره ، ولم أرَ مَنْ يحمله غيري ! » ، قال : « وما هو ! » ، قال مروان : « قد كان من دخول الخزَر إلى بلاد الإسلام ، وقتل الجرّاح (١٧٠) وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين . ثمّ رأى أمير المؤمنين أن يوجّه أخاه مسلمة ابن عبدالملك إليهم ، فوالله ما وطئ من بلادهم إلاّ أدناها ، ثمّ إنّه لمّا رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك ، فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر ، فاستعدّ القوم وحشدوا ، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية ، وكان قُصاراه السّلامة ، وقد أردتُ أن تأذن لي غزوة أُذهب بها عنّا العار وأنتقم من العدوّ » . قال هشام : « قد أذنتُ لك » ، وقال : « وتمدّني بمئة وعشرين ألف مقاتل » ، قال : « وقد فعلتُ » ، قال : « وتكتم هذا الأمر عن كلٍّ واحد ! » ، قال : « قد فعلتُ ، وقد استعملتك على إرمينية » (١٧١) .

وكان مروان قد خرج متخفياً عن مسلمة إلى هشام (١٧٢) ، أي أنّه عاد من الجبهة الأماميّة في حالة الحرب دون إذن مسلمة ودون علمه ! !

---

(١٧٠) هو الجراح بن عبدالله الحكمي ، الذي قتله الخزر سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية في إقليم اللاّن من أقاليم إرمينية بالقرب من مدينة الباب (دربند) على بحر الخزر .

(١٧١) ابن الأثير (١٧٧/٥). (١٧٢) ابن خلدون (٣ / ١٩٧) .

وفي رواية أخرى : لما أقبل مسلمة ، زحفت اليه الخزر . فلم يشعر مسلمة حتى طلعوا عليه ، فقاتلهم وحال بينهم الليل . وبات المسلمون يحيون . وانصرف الخزر ، وقتل مسلمة واستخلف مروان بن محمد(١٧٣) .

والتناقض بين الروايتين واضح ، فإنَّ مسلمة عاد إلى دمشق بعد أن قتل خاقان ملك الترك وأقوى عاهل في المنطقة ، وعاد مسلمة بعد أن أحكم أموره في إرمينية (١٧٤) ، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذاً ، بل العكس هو الصحيح وقد تغلغل مسلمة بالعمق في بلاد الخزر ، فكيف لم يطأ من بلادهم إلاّ أدناها ! !

أما الادّعاء بأنّ مسلمة كتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر ، أفسح فيها المجال للخزر بإكمال استعداداتهم وإنجاز حشودهم ، فليس معقولاً ولا منطقياً ، إذا لا يمكن أن يتصرّف أيّ قائد مسؤول في الدنيا هذا التصرّف : يُنذر عدوّه بالحرب ، ويفسح المجال له للاستعداد ، ثم يتراخى عنه ثلاثة أشهر ! !

أما أنّ مسلمة لم تكن له نكاية بالخزر ، فهذا ما يدحضه سير القتال المسجّل في التاريخ العربي الإسلامي بالتفصيل ، ويدحضه ما أنجزه مسلمة في حرب الخزر بالذّات .

يبقى ما ورد عن خروج مروان متخفياً من مسلمة إلى هشام ، فهذا ما لا يمكن أن يحدث بالنسبة للجنديّ الاعتيادي البسيط ، إذ لا يمكن أن يعود إلى أهله أو يترك موقعه إلاّ بإذن من قائده ، فكيف بمثل مروان ، وقد كان الرجل الثاني من جيش مسلمة بعد مسلمة وابن عمّه وأقرب المقرّبين إليه وأحد قادته الأقربين ؛ والمفروض أن يراه كلّ يوم ويتّصل به ، ولا يمكن أن يغيب عن مجلسه يوماً أو بعض يوم دون أن يعرف غيابه ! ! !

(١٧٣) تاريخ خليفة ابن خياط (٢ / ٣٥٩) .
(١٧٤) ابن الأثير (٥ / ١٧٩) .

ولو كان مروان مبيّتاً الوشاية بابن عمّه مسلمة ، لاستأذنه في القفول إلى دمشق بحجّة أو بأخرى ، فيعود أدراجه إلى دمشق ، إذ ليس من المعقول أن يعود من مدينة (الباب) على بحر الخزر إلى دمشق ، والمسافة بين البلدين شاسعة ، والوقت الذي تقطع به تلك المسافة طويل ، ثمّ يبقى أمر عودته سرّاً مكتوماً على مسلمة ، فلا يعرف عن رحيل مروان وغيابه شيئاً .

كما أنّ العلاقة الوثيقة بين مسلمة ومروان من جهة ، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومسلمة من جهة أخرى ، تجعل من الصعب على مروان أن يشيَ بمسلمة ، وتجعل من الصعب على هشام أن يتقبّل وشاية مروان ، وخاصة أنها تناقض الواقع والحقائق النّاصعة ولا يمكن أن يصدّقها عاقل !

كلّ ذلك يجعلنا نعتمد الرواية الثانية ، وهي أنّ مسلمة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام ، قفل راجعاً ، واستخلف مروان على الجيش وعلى ولايته ففي هذه السنة : سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، قفل مسلمة بن عبدالملك عن مدينة (الباب) بعدما هزم خاقان وبنى (الباب) ، فأحكم ما هنالك ، فولى هشامُ إرمينية وأذربيجان والجزيرة مروان (١٧٥) .

ويبدو أنّ مسلمة بعد عودته من إرمينية ، اقترح على هشام أن يولّي مروان مكانه ، فاستجاب هشام لاقتراح مسلمة المنطقيّ المعقول .

ولم يكن هشام ليعزل مسلمة الذي كان الرّجل الثاني في الدولة الأُموية بعد هشام وشيخ بني أُميّة ودماغهم المفكر بدون رغبة مسلمة في التخلي عن ولايته . وليس من المعقول أن يعزل مسلمة لعدم كفايته ، لأنّ كفاية مسلمة فوق الشبهات ، ولأنّ هشام بن عبدالملك ولاّه لكفايته المتميِّزة ، حتى يُعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية في ظروف حرجة للغاية ، هي ظروف النكسة التي راح ضحيتها القائد الجرّاح الحَكَميّ .

---

(١٧٥) الطبري (٧ / ٩٠) .

ومما يلفت النّظر ، أنّ مسلمة لم يَغْزُ ولم يتولّ ولاية منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، حتى توفّاه الله سنة عشرين ومئة الهجريّة أو سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرِية .

و غياب مسلمة عن تحمّل أعباء الجهاد في الفتح واستعادة الفتح ، في تلك الظروف التي قلّ فيها القادة المتميّزون ، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض – بمثل هـذا الفرض – ليس طبيعياً ، بالرغـم من ثقة هشام المطلقة بمسلمة . وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ .

والذي يبدو أنّ تخلّي مسلمة عن الجهاد كان لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته، فتخلّى عن الجهاد مُكرها لاعتلال صحته وإصابته بالمرض الذي أقعده عن مواصلة الجهاد .

وعلى كلّ حال ، فقد تولّى مروان إرمينية وأذربيجان والجزيرة لكفايته المتميِّزة ، فقد كان الرجل الثاني في القيادة الفعايّة بعد مسلمة ، فلما تخلّى مسلمة عن قيادته وولايته ، طوعاً واختيارا ، كان مروان هو الرجل المناسب للعمل المناسب الذي يخلف مُسْلَمَة بن عبدالملك ، وقد أثبتت المعارك التي خاضها وإدارته القادرة لولايته أنّه كان عند حسن ظنّ هشام به ، وأنّه لم يخيِّب ظنّه بل جعل ظنّه يصبح يقينا .

وكان مروان في أيام ولايته يتّسم بالطموح ، يحبّ السّلطة ويحرص عليها ، ويوالي مَنْ يُرضي طموحه ويعادى من لا يرضي طموحه .

وقد كان موقفه من يزيد بن الوليد بن عبدالملك حين علم أنّه يدعو سرّاً لنفسه ويعتزم أن يقود ثورة مسلّحة على الخليفة القائم الوليد بن يزيد بن عبدالملك، موقفاً مشرِّفاً حقاً . فكتب إلى شيخ بني أميّة وكبيرهم في حينه سعيد بن عبدالملك يحذِّره مغبّة اللّعب بالنار والفتنة ويخوِّفه نتائج هذا الشّغب الذي يؤدي إلى خروج الأمر عن بني أُميّة كافة ، لأنّه يفرّق كلمتهم ويُشتّت شملهم ويزرع بينهم الحقد والعداوة والبغضاء .

وعلم يزيد بن الوليد بمحاولة مروان أن يثنيه عن الثورة على الخليفة القائم، ولكن يزيد مضى في تنفيذ مخطّطه، فاستولى على السلطة بعد قتل الوليد بن يزيد خليفةً بيده مقاليد السُّلْطة والأمور.

وأعلن مروان خلافه ليزيد بن الوليد، ولكنه نسي خلافه حين أبقاه يزيد على ولايته، مما يدلّ على أنّ خلافه كان دفاعاً عن منصبه لا دفاعاً عن المبادئ.

ولما مات يزيد بن الوليد، أعلن خلافه من جديد على إبراهيم بن الوليد الذي تولّى الخلافة بعد يزيد، ويبدو أنّه تمادى به طموحه، ففتق فتقاً في العائلة المالكة لم يستطع رتقه أبدا، فكأنّه حفر قبره بيديه، فخسر حتى القبر لما أصبح بحاجة إلى القبر، وخسر الأُمويون الخلافة التي كان مروان أحد أسباب زوالها عنهم.

ولما استُخلف مروان، دخل عليه الشّعراء يهنئونه بالخلافة، فتقدّم إليه طُريح بن إسماعيل الثّقفيّ خال الوليد بن يزيد بن عبدالملك، فقال: «الحمد لله الذي أنْعم بك على الإسلام إماما، وجعلك لأحكام دينه قِواما، ولأُمّة محمّد المصطفى جُنّةً ونِظاما...»، ثم أنشد:

تَسوء عِداك في سَدادٍ ونَعْمَةٍ خلافتُنا تِسْعينَ عاماً وأشهرا

فقال مروان: «كم الأشهر؟»، فقال: «وفاء المئة يا أمير المؤمنين، تبلغ فيها أعلى درجة، وأسعد عاقبة، في النُّصْرة والتّمكينِ»، فأمر له بمئة ألف درهم!

ثمّ تقدّم إليه ذو الرُّمّة مُتَحانياً كَبْرَةً (١٧٦)، قد انحلّت عمامتهُ مُنحدرةً على وجهه، فوقف يُسوّيها. فقيل له: تقدّم، قال: إنّي أجلُّ أمير المؤمنين أن أخطُب بشَرفه مادحاً بلَوْثة عِمامتي»، فقال مروان:

(١٧٦) أي أنه طعن في السن، فتقوس ظهره.

« ما أمّلتُ أنّه قد أبقت لنا منك ميّ ولا صيدح (١٧٧) في كلامك إمتاعا»، قال : « بلى والله يا أمير المؤمنين ، أردُ منه قَراحا ، والأحسن امتداحا » ، ثمّ تقدّم فأنشد شعراً يقول فيه :

فقلت لها : سيري أمامكِ سيّدٌ تَفَرّعَ من مَرْوان أو من محمّد

فقال له : « ما فعلَتْ ميّ ؟ » ، فقال : « طُويت غدائرها ببُرْدٍ بَلِي ، ومحا التُّرب محاسن الخدّ » ، فالتفت مروان إلى العبّاس بن الوليد بن عبدالملك فقال : « أما ترى القوافي تنثال انثيالا ، يُعطى بكلٍّ مَنْ سَمّى من آبائي ألف دينار » ، فقال ذو الرُّمّة : « لو علمتُ لبلغتُ به عبد شمس (١٧٨) !

واستمتع مروان بما قيل في مدحه ، ثم ذهبت زفّة الخلافة بعد أيام شهر العسل القصيرة ، فلما انقضت أيامه لم يرثه أحد ، وهكذا على صاحب السلطان ألاّ يفكّر إلاّ بانقضاء سلطانه ، ليعرف كيف يحصل على السلطان ، عليه وكيف يعمل بعد الحصول عليه ، والعاقبة للمتقين .

إن طموح مروان غير المشروع ، قاده إلى السلطة وإلى الهلاك أيضاً .

ليس من شك في كفايته الادارية المتميزة والياً ، فقد أحسن في عمله كلّ الاحسان . ونعمت الأقطار التي كان يديرها بالأمن والاستقرار ، وكان حازماً ذكياً لايكلّ ولايملّ من العمل المتواصل والجهد الجهيد .

وكان بليغاً في تعليقاته وفي رسائله ، فقد كتب إلى نصر بن سيار في أمر أبي مُسلم : « الظّاهر يدلّ على ضعف الباطن ، والله المستعان » .

ووقّع إلى ابن هُبَيْرَة أمير العراق : « الأمرُ مضطرب ، وأنت نائم ، وأنا ساهر » ، وكتب إلى حوثرة حين وجهه إلى قَحطبة : « كُنْ من بَيات المارقة على حَذر » .

(١٧٧) مي : صاحبة ذي الرمة ، وصيدح : ناقته .
(١٧٨) العقد الفريد (١ / ٣١٩ - ٣٢٠) .

ووقع حين أتاه غرق قَحطبة وانهزام ابن هُبَيْرة : « هذا والله الإدبار وإلاّ فمن رأى مَيْتاً هَزم حيّاً ! » .

وكتب جواباً لأبيات نصر بن سيّار إذ كتب إليه :

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيْضَ جَمْرٍ ويُوشكُ أن يكون له ضِرَامُ :

« الحاضر يَرى مالا يَرى الغائب ، فاحسم الثُّوْلول » (١٧٩) ، فكتب نصر : « الثُّؤْلول قد امتدّت أغصانُه ، وعظُمت نِكايته » ، فوقّع مروان : « يداكَ أوْكَتَا ، وفوكَ نَفَخ » (١٨٠) .

لقد كانت نهاية مروان مأساة من المآسي ، وماجنى عليه غير نفسه الأمارة بالسّوء . فيداه أوْكَتَا وفوهُ نفخ ، كما قال مروان في أحد توقيعاته !

ولعلّ مصير مروان المؤلم والمحزن معاً ، يكون عبرة للذين يقودهم طموحهم غير المشروع لتولي السلطة بأيّ شكل وأسلوب ، دون التفكير في النتائج القريبة والبعيدة ، فكم من سلطة أودت بصاحبها وأردته وأودت بغيره وجرّت عليه وعلى غيره الويلات والمصائب ! .

ومن السّهل في كثير من الأحيان الحصول على السلطة بطريقة أو بأخرى ، والصّعوبة في الاحتفاظ بها ، لتفيد لا اتضر ، ولتبني لا لتهدم ، ولتعمّر لا لتخرّب ، ولا خير في سلطة يقتصر دورها على الضرر والهدم والتخريب .

تلك هي مجمل عبرة مروان بن محمّد لمن يريد أن يعتبر .

---

(١٧٩) الثؤلول : الخراج ، وقيل : هو بثر صغير صلب مستدير في صور شتى .

(١٨٠) هذا مثل ، وأصله أن رجلا كان في جزيرة ، فأراد أن يعبر على زق لم يحسن إحكامه ، حتى إذا توسط البحر ، خرجت منه الريح ، فلما أشرف على الغرق ، استغاث بآخر ، فقال هذا المثل : يداك شدتا فم الزق (الجراب) ، وفوك نفخه ، انظر العقد الفريد (٤ / ٢١٠) .

القائد

١ ـ أسباب الهزيمة

أ ـ العصبيّة العربيّة :

تعصّب الأمويون للعرب ، وتجلىّ ذلك في معاملتهم للمسلمين من غير العرب معاملة كانت تختلف الاختلاف كلّه عن معاملتهم للعرب المسلمين ؛ يسمّون المسلم غير العربي (المولى) ، وهي تسمية تشعر بسيادة العنصر العربيّ المسلم ، ولا يسوّون بين العربي المسلم وغير العربي المسلم في العطاء ومناصب الدولة العليا ، وينظرون إلى غير العرب نظرة احتقار وازدراء .

وهذه العصبية للعرب ، ألّبت الأعاجم في البلاء المفتوحة على العرب وأشعلت في نفوسهم عصبية مناوئة للعصبية العربيّة وهي العصبيّة الأعجميّة أو الشعوبيّة ، فأدّت هذه العصبية من الجانبين إلى إثارة الضّغائن والأحقاد في صفوف الأمة الاسلاميّة الواحدة ، فتفرّق الشّمل المجتمع وتصدّعت الوحدة المتماسكة .

وكان من نتائج هذه العصبيّة في الجانبين : استقطاب الأعاجم تحت لواء الدّعوة العباسيّة التي بدأت سنة مئة الهجريّة (٧١٩ م) وشبّت وترعرعت في خُراسان حتى أصبحت قوّة ضاربة في عهد مروان ، فاستطاعت السيطرة على خُراسان وسائر المشرق الاسلامي والعراق ، واستطاع جيشها إحراز النصر على جيش مروان ، لأنّه جيش له (قضيّة) يقاتل من أجل تحقيقها ، ولم تكن لجيش مروان (قضية) يقاتل من أجل تحقيقها والدفاع عنها ، ولا عبرة بتعداد الجنود والمقاتلين ، فالنّصر لأصحاب (القضية) والهزيمة لمن لا (قضيّة) له .

وقد كان جيش العباسيين (منظماً) ينخرط في تنظيم واحد . له مبادئ معينة يلتزم بها وأهداف معروفة يسعى إلى تحقيقها ، بعكس جيش

مروان الذي تربطه سجلاّت الديوان وحدها وهي ربطة الأرزاق .

والقوّة القليلة المنظّمة ، تنتصر على القوّة الكبيرة غير المنظّمة ، وهذا ماحدث بالنسبة لاندحار جيش مروان وانتصار جيش الدعوة العباسيّة عليه .

والعصبية العربية هي التي حدت بالشعوبيين إلى تنظيم صفوفهم تحت شعارات معيبة لتحقيق أهداف معيّنة ، هي القضاء على العنصر العربيّ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ب ـ العصبية القبلية :

وهي عصبيّة أضيق نطاقاً من العصبية العربيّة ، ولكنّها أبلغ ضرراً وأشدّ خطراً من العصبية العربية ، لأنها تجعل من كلّ قبيلة أمة مستقلّة ، وهي تقتضي من أفراد القبيلة أن يتعاونوا ولو على الباطل ، وأن ينصروا المظلوم منهم والظّالم ، ومعنى ذلك أنّها تفرّق العرب وتجعل بأسهم بينهم شديداً .

وبلغ من خطورة العصبيّة القبليّة وآثارها المدمّرة ، أنها كانت سبباً من أهم أسباب قتل خليفة من الخلفاء الأُمويين ، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

فقد قُتل خالد القَسْرِيّ وهو من اليمانية ، والوليد بن يزيد من المُضَرِبّة ، والعصبية القبليّة بين مُضَر واليمن على أشدّها حينذاك ، فسُرّ الوليد بمقتل القَسْرِيّ وأظهر التشفيّ والشماتة ، وتجلىّ ذلك في قصيدة له قال فيها :

شَدَدْنا مُلكَنا ببني نِـزارٍ ... وَقَوَّمْنـا بهم مَنْ كان مالا

وهذا خـالدٌ أضْحَى قَتيْـلاً ... ألاَ مَنَعوه (١٨١) إنْ كانوا رِجالا

ولكنّ المـذلّةَ ضَعْضَعَتْهُم ... فلم يَجِدوا لذلّتهم مقالا (١٨٢)

---

(١٨١) الضمير في : منعوه ، يرجع إلى اليمانية .

(١٨٢) الأخبار الطوال للدينوري (٣٣٣) .

وهي قصيدة طويلة كان لها في نفوس اليمانيّة أسوأ الأثر ، فاجتمعوا في مدن الشّام ، واتّجهوا في جموع من اليمانية كبيرة إلى الخليفة في دمشق وخرج الوليد إليهم في جموع من المضريّة ، واقتتلوا اقتتالاً عنيفاً حاقت بها الهزيمة بمضر ، فتحصّن الوليد بقصره ، ولكنهم تسلّقوا عليه القصر وقتلوه (١٨٣) ، فتولى الخلافة يزيد بن الوليد الذي استعان باليمانيّة .

وكما تعصب الوليد بن يزيد للمضريّة على اليمانية ، تعصّب مروان للمضرية على اليمانية أيضاً ، فلجأ اليمانية إلى أحضان دعاة بني العبّاس ، وكانوا في جيشهم ، بينما كان المضريّون في جيش مروان ،وهكذا كان الأعاجم واليمانية مع العباسيين ، وكانت مضر وحدها مع مروان ، وكان المفروض أن يكون العرب المسلمون كلّهم مع مروان .

ج ـ العصبية العائلية :

خالف مروان سلفه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، فقـــاد جيشه من إرمينية والجزيرة إلى العاصمة دمشق ، واستطاع بالقوة أن يجعل إبراهيم يخلع نفسه ويتولّى مروان الخلافة ، فشقّ بذلك شقاً في العائلة الأمويّة لم يستطع رتقه أبداً .

وقد انضم كثير من بني أُميّة إلى أعداء مروان ، فقاتلوا في صفوفهم، وبلغ الانشقاق حدّاً جعل قسماً منهم ينضّم حتى إلى صفوف الخوارج وغيرهم كما مرّ بنا في الحديث على : الصّراع الداخليّ .

وكما خالف مروان سلفه إبراهيم بن الوليد ، خالفه عدد غير قليل من بني أُميّة وحاربوه حرباً لا هوادة فيهـــا ، أدّت فيما أدّت إليه إلى استنزاف قوّاته الضاربة .

(١٨٣) الأخبار الطوال للدينوري (٣٣٣) .

كما أنّ قسماً من بني أُمية خالفوه في المناطق التي كانوا يتوّاون إدارتها، كما فعل عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، الذي شق عصا الطّاعة على مروان . وقاتل في العراق قوّات مروان .

وكان المفروض أن يكون بنو أُميّة مع مروان لا عليه ، وكانوا يومئذٍ قوة ضخمة لا يُستهان بها عَدَداً ومَدَدا .

وللإنصاف نذكر أنّ أوّل مَن شَقّ صفوف الأمويين قبل مروان ، هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، الذي قاد ثورة على الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وقتله في قصره ، وتولّى الخلافة من بعده .

د ـ انحلال الضبط :

نعني بالضبط أو الانضباط أو الطّاعة ، تنفيذ أوامر القائد دون تردّد وعن طيبة خاطر .

وقد انهار الضّبط في الجيش الأموي وفي الدولة . فلا الجنود ينفذون اوامر القائد ، ولا الناس يخضعون للسلطة .

ولعلّ من أسباب انحلال الضبط وانهيــاره، حرب الاستنزاف بين جيش الدولة وبين أعداء الدولة التي طالت كثيراً ، فأصبحت الحرب هي القاعدة والسّلام هو الاستثناء ، وكلما طالت الحرب زاد التذمر وضعف الضبط .

ولعلّ من أسبابه الدعوة السرّية للعباسيين التي استمالت إلى جانبها كثيراً من الناس ، وأصبح معتنقو هذه الدعوة رَتَلاً خامساً بين صفوف جيش الحكومة ومكاتبها وبين افراد الشعب ، يثيرون الاشاعات ، ويثبّطون العزائم ، وينشرون الفوضى والارتباك .

ومن مظاهر انحلال الضبط ، أنّ مروان يولّي والياً على العراق ، فلا

ينصاع السلف للخلف ، ويؤدي الخلاف الناشب إلى الاقتتال بين الوالي السّابق والوالي الجديد .

ومن مظاهره ، ماحدث في الأندلس من حرب طاحنة بين مُضَر واليمن ، وتولية الأندلس أميراً لا بأمر الخلافة بل بأمر من مراكز القوّة في الأندلس ! !

ومن مظاهره ، ماحدث من اقتتال بين جيش الدولة والخارجين عليها في الحجاز واليمن ، مما أدىّ إلى ارتباك مواسم الحج ارتباكاً شديداً .

أما في خُراسان والمشرق الاسلامي فقد كانت سلطة الدولة في إجازة طويلة !

وكلّ هذا الانحلال ، أدىّ إلى ترديّ معنويات جيش الدولة وإلى انهيار الضبط فيه ، وتجلّى هذا الانحلال في الضبط ، بما ظهر في معركة الزّاب الحاسمة ، فما أصدر مروان أمراً إلى قوّاته المحاربة إلاّ ولم يُنَفّذ أمرهُ باستهتار عجيب !

وبلغ العصيان حدّاً في تلك المعركة الحاسمة لم يبلغه في معركة أخرى ، فالقبائل رفضت تنفيذ أوامر مروان دون استثناء ، حتى الرجل الذي كان على شرطته ، عصى أوامره عصياناً فاضحاً ، والمفروض أنّ مثل هذا الرّجل من أقرب المقربين إلى الخليفة ومن أخلص المخلصين له ، ولكنّه آثر العافية على الخطر ، كأنّه كان واثقاً من أنّ الهزيمة النكراء ستحلّ بمروان وشيكاً .

والجيش الذي يصاب بانحلال الضبط وانهيار المعنويات ، لاينتصر أبداً .

والدولة التي تفقد هيبتها ، لايمكن أن تبقى أبداً .

هـ ـ تجاوز الاحتياط :

حشد مروان جيشه في الزاب لخوض معركته الحاسمة ، وكان من

حقّه وواجبه أن يحشد كلّ القادرين على حمل السّلاح من أنصاره لخوض تلك المعركة الحاسمة .

ولكنّه كان عليه أن يفكّر في معارك أخرى ، يقاوم بها بالعمق أنصار العباسيين .فإذا انهزم في معركة الزّاب ، فينبغي أن يخوض معارك أخرى في حلَب ودمشق وفلسطين وفي مصر ، ويفكّر باعداد قوّات احتياطية ، تدافع عن الدولة في معارك متعاقبة ، وألاّ ينتهي في معركة واحدة كما حدث . ثم يصبح بعد هزيمته شريداً طريداً ، ليست لديه قوات احتياطيّة تدافع عنه ، وعن الدولة كما ينبغي .

والظّاهر أنّ مروان لم يفكر باعداد قوّات احتياطية . تقاتل في حالة هزيمته في لقائه الأول والأخير ، ولهذا كانت معركة الزاب هي معركته الأولى والأخيرة ، ثم انتهى أمره وأمر الدولة بعد الهزيمة ، وأصبح همّه الحفاظ على حياته كأيّ إنسان ، يهرب من بلد إلى آخر ، وقوّات العباسيين تطارده ، إلى أن استطاعت قتله في الصّعيد من أرض مصر ، فانتهى خليفة وانتهت دولة الأمويين .

إن إهمال إعداد قوات احتياطية خطأ فاحش لايُغتفر لمروان ، دفع ثمنه حياته ومصير دولته .

٢ ـ سماته القياديّة

لاينبغي أن يُحكم على سمات مروان القياديّة بمناقشة معركة الزّاب الحاسمة التي خسرها مروان ، لأنّه خاض معارك كثيرة من معارك الفتح واستعادة الفتح وتوطيد أركان الأمن الداخلي ، فينبغي استنتاج سماته القيادية من دراسة معاركه كافة لامن دراسة معركة واحدة .

ويبدو أنّ مروان كان قائداً متميزاً في مزاياه القيادية حين كان والياً على إرمينية وأذربيجان والجزيرة ، ونتائج معاركه التي خاضها هناك تؤيّد

مزاياه القياديّة المتميزة وتشهد عليها ، فتح فتحاً جديداً ، واستعاد فتح مناطق شاسعة انتقضت على الدولة ، وأعاد الأمن والاستقرار والنظام إلى ربوع الأقاليم التي يتولىّ حكمها ، وسرّ نجاحه في مهمته قائداً وإدارياً ، أنّه كان متفرّغاً للواجبات القيادية والادارية ، لاتشغله السياسة العليا عن هاتين المهمتين .

فلما تولى مروان الخلافة ، خفَتَ بريقُ قيادته بالتدريج ، لأنّه شُغل بتوطيد الأمن الداخلي ، ومقاومة الثورات المحليّة ، في معارك طاحنة يخسر الجانبان فيها بالاقتتال ، ولا رابح فيها لجانب دون آخر لأنّ السيوف العربية والاسلامية ، أصبحت على العرب المسلمين لا على أعدائهم ، فتوقّف الفتح واستعادة الفتح ، وتنفّس أعداء المسلمين الصعداء ، فقد أصبح المسلمون بأسهم بينهم شديداً ، يحسبهم غيرهم جميعاً وقلوبهم شتى !

لقد كان مروان قائداً لامعاً حين تفرّغ للقيادة والادارة ، ولكنه أصبح قائداً مهزوماً حين تفرّغ للسياسة وأصبحت القيادة من واجباته الثانوية .

وقد شهد المؤرخون على كفاية مروان القيادية في مدّة ولايته على إرمينية وأذربيجان والجزيرة من سنة اربع عشرة ومئة الهجرية إلى سبع وعشرين ومئة الهجرية ، فذكروا : أنه فتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعدّدة في سنين كثيرة. وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله ، وقاتل طوائف من النّاس الكفّار ومن الترك والخزر واللان وغيرهم ، فكسرهم وقهرهم . وقد كان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي (١٨٤) ، ذكره الخليفة أبو جعفر المنصور مرّةً فقال: «لله درّه ! ما كان أحزمه وأسوسه وأعفّه عن الفيء» (١٨٥)

وكان مروان مجرّباً صابراً على التّعب والنصب (١٨٦) ، وكان شجاعاً حازماً إلاّ أنّ مدّته انقضت فلم ينفعه حزمه ولا شجاعته (١٨٧) .

---

(١٨٤) البداية والنهاية (١٠/ ١٧).
(١٨٥) العبر (١ / ١٧٨) .
(١٨٦) التنبيه والأشراف (٣٢٨) .
(١٨٧) ابن الأثير (٥ / ٤٢٩) .

تلك هي سماته القياديّة التي نوّه بها المؤرخون والتي برزت أيام ولايته ، ولم تَتَخَلَّ عنه بالطبع هذه السِّمات المتميِّزة بعد أن تولّى الخلافة ، ولكنّ السياسة طغت عليها فغطّتها بحجاب كثيف وحجبتها عن الانظار .

لقد كان قائداً فاتحاً ، حريصاً على الغزو أعظم الحرص ، منتصراً على أمم شتى من الترك والخزر واللان وغيرهم ، شجاعاً بطلاً مقداماً حازماً ، صابراً على التعب والنّصب ، أميناً على الغنائم .

والحصول على المعلومات عن العدو ، مهمّة شاقة للغاية ، تعمل عدّة أجهزة من أجهزة الجيش على تحقيقها ، كالعيون والأرصاد ومفارز الاستطلاع المختلفة والاستطلاع الشخصيّ ، وقد تميّز مروان بقابليته الفذة على حزر تعداد عدوّه بسرعة وسهولة ويسر وبمنتهى الدقّة أيضاً .

ذكر كاتب مروان مُصْعَب بن الرّبيع الخثعَميّ قال : « لما انهزم مروان وظهر عبدالله بن عليّ العبّاسيّ على الشّام ، طلبتُ الأمان فآمنني ، فإني يوماً جالس عنده ، وهو مُتّكئٌ ، إذ ذكر مروان وانهزامه ، قال : أشهدتَ القتال؟ قلت : نعم أصلح الله الأمير ! فقال : حدّثني عنه : قلت . لمّا كان ذاك اليوم قالى لي : احزر القومَ ! فقلتُ : إنّما أنا صاحب قلم ، ولستُ صاحب حرب ، فأخذ يمنة ويسرة ونظر فقال : هم اثنا عشر ألفاً ! فجلس عبدالله ، ثمّ قال : ماله قاتله الله ! ما أحصى الديوان يومئذٍ فضلاً عن اثني عشر ألف رجل(١٨٨).

والقائد الذي يتمتّع بهذه المزيّة في معرفة تعداد عدوّه ، يستطيع أن يُعدّ خطّته على هدى وبصيرة ، لأنّه أحرز أهمّ المعلومات عن عدوّه ، فيختصر الطريق في إعداد خطّته السريعة السّليمة لمصاولة ذلك العدو .

وهذه المزيّة إن دلّت على شيء ، فإنما تدل على ذكاء القائد وتمتّعه بالتجربة العملية في تطبيق علومه العسكريّة النظريّة .

---

(١٨٨) الطبري (٥ / ٤٣٩) .

ومن دراسة المعارك التي خاضها مروان ، نستطيع أن نستنتج أنّه كان حذراً يقظاً ، لا يسير إلاّ على تعبية ، ليحرم العدو من مباغتة قواته ، فلا يستطيع عدوّه أن يباغته في الحرب .

فقد حاول رجال سليمان بن هشام بن عبدالملك أن يبيّتوا جيش مروان . فلم يفلحوا في محاولتهم .

وكان مروان ذا رأي ومكيدة ، ولعلّ إرساله ثلاثة آلاف فارس ، التفوا حول حَماة ودمشق عندما أراد مروان الاستيلاء عليهما ، فضربوا جيش دمشق في وقت لا يتوقعونه ومن مكان لا يتوقّعونه أيضاً ، دليل على ما يتمتّع به مروان من رأى ومكيدة في إعداد خططه العسكريّة وتنفيذها (١٨٩) .

وكان تنفيذه لخطّة الالتفاف التي أعدّها مروان مباغتة كاملة بالمكان والزّمان معاً .

وما دمنا في مجال الحديث عن المباغتة ، التي هي أهمّ مبدأ من مبادئ الحرب على الإطلاق ، فقد باغت مروان الخزر في بلادهم ، بإظهاره مهادنتهم علناً ؛ واستعداده لحربهم سرّاً، وتأخير وفدهم، ثم ترحيلهم على طريق طويلة، بحيث وصلوا إلى ملك الخزر في الوقت الذي وصل إليه مروان ، دون أن يترك له الوقت الكافي للاستعداد ، ممّا أدّى إلى اندحار الخزر اندحاراً كاملاً وانتصار مروان انتصاراً مؤزّراً ، لأنّ مروان باغت الخزر بالزمان مباغتة لم تترك أمامهم غير الرضوخ إلى مروان (١٩٠) .

وقد كان في مدّة ولايته على إرمينية وأذربيجان والجزيرة ، يطبّق مبدأ : اختيار المقصد وإدامته ، تطبيقاً جيداً ، فكان مقصده في معاركه كسر شوكة

---

(١٨٩) انظر التفاصيل في الطبري (٧ / ٣٠٠ – ٣٠٢) وابن الأثير (٥ / ٣٢١ – ٣٢٢) .

(١٩٠) انظر فتوح البلدان (٢٩٢ – ٢٩٤) وابن الأثير (٥ / ١٧٨ – ١٧٩) وتاريخ خليفة ابن خياط (٢ / ٣٦١) .

المخالفين في ولايته وإعادتهم إلى طاعة الدولة، وفرض هيبة الدولة في المناطق التي يحكمها : فنجح في تحقيق مقصده أعظم النّجاح .

وكان يطبّق مبدأ : التعرّض تطبيقاً مثالياً فلا يكاد يسمع بحشود معادية في منطقة من مناطق ولايته المترامية الأطراف ، إلاّ ويبادر إلى التعرّض ، لإحباط نياتها في الانتقاض والثورة .

وكان يطبّق مبدأ : حشد القوّة ، فيحشد رجاله في المكان المناسب والزّمان المناسب بكميّة من المقاتلين والمعدّات كافية لتحقيق المقصد المطلوب ، فما خاب في معركة واحدة في مدة ولايته ، وانتصر في جميع المعارك التي خاضها بسهولة ويسر على أعدائه .

وكان يطبّق مبدأ : الاقتصاد في المجهود ، فلا إسراف في الحشد ولا تقصير فيه ، بل يقتصر على حشد القوّات المناسبة لتنفيذ المقصد المناسب .

وكان يطبّق مبدأ : الأمن ، فكان حَذِراً يقظاً لا يسير إلاّ على تعبية ، يعجز عدوّه عن تبييته أو مباغتته ، وعلى العكس من ذلك ، فقد استطاع مروان في كثير من عمليّاته العسكرية مباغتة أعدائه وتبييتهم .

وكان يطبّق مبدأ : المرونة ، فلم تكن خططه التّعبويّة جامدة ، بل كانت مرنة يحوّرها بحسب ظروف المعركة وتطوّرها .

وكان يطبّق مبدأ : التعاون ، بين قوّاته التي يقودها ، وبين هذه القوّات والقوّات المحليّة للبلاد المفتوحة ، ويعتبر مروان أوّل مَنْ نَظّم واجبات القوّات المحليّة للتعاون مع قوّاته الأصلية بحيث تعرف كل قوّة من تلك القوّات المحلية واجبها بالضّبط ، دون التباس أو غموض .

وكان يطبّق مبدأ : إدامة المعنويات بالنصر ، فنجح في ذلك نجاحاً باهراً يوم كان والياً، ولكنه لم ينجح في إدامة المعنويات بعد أن أصبح في قمة السُّلطة العليا خليفة للمسلمين .

وكان يطبّق مبدأ : الأمور الإدارية . تطبيقاً رائعاً . فلم يعرف عن جيش قاده في وقت من الاوقات أنّه جاع أو عطش أوعانى نقصاً من شؤونه الإدارية .

تلك هي قابلية مروان المتميّزة في تطبيق : مبادئ الحرب .

أما سجاياه القيادية الأخرى . فقد كان سريع القرار . وكانت قرارته صحيحة سليمة في كلّ معاركه التي خاضها عدا معركة (الزّاب) ، فقد كانت قراراته خاطئة للغاية . لأنّه كان مرتبكاً في هذه المعركة ، أمله بالنصر قليل ، ومعنوياته منهارة . ولأنّ رجاله تخلّوا عن تنفيذ أوامره في أحرج الأوقات وأخطرها .

وكان شجاعاً بطلاً ، لا غبار على شجاعته الشخصيّة ، إلاّ في معركة الزاب ، فقد انهزم من ساحة المعركة ، فلطّخ سيرته بعار الهزيمة التي لا تناسب خليفة من الخلفاء ، لذلك رفض أهل الموصل السّماح له وللمنهزمين من رجاله أن يسمحوا لهم بعبور نهر دجلة عن طريق مدينتهم ، لأنّهم لم يصدّقوا أنّ الخليفة يمكن أن ينهزم فقال قائلهم لرجانه المنهزمين معه : كذبتُم ! أمير المؤمنين لا يفر .(١٩١) .

وكان ذا إرادة قويّة ثابتة ،يتحمّل المسؤولية كاملةً دون تردّد أو تملّص ، يتمتع بمزيّة سبق النّظر ، فيحسب لكل أمرٍ حسابه ويُعدّ له عدّته ، ويتمتّع بشخصية قويّة نافذة .

ولعلّ من أبرز سماته القيادية ، هي مزية تحمل المشاق والصبر عليها ، فقد كان : « صابراً على التّعب والنّصب » (١٩٢) .

ولكنّه لم يكن يتبادل الثقة الكاملة بينه وبين رجاله ، ولا المحبة المتبادلة ، لأنه كان : « ظالماً »(١٩٣) ، « صارما » ، (١٩٤) ، وكان يُغرى بين القبائل

---

(١٩١) ابن الأثير (٥ / ٤٢٤) .

(١٩٢) التنبيه والأشراف (٣٢٨) .

(١٩٣) العبر (١ / ١٧٨) .

(١٩٤) البداية والنهاية (١٠ / ٤٧) .

ويُغضب بين العشائر ، واصطفى قيس عَيْلان وانحرف عن اليمن وبادأها العداوة . فصارت عليه إلباً ، وعليه حربا (١٩٥) .

لهذا تخلّى عنه رجاله في أحرج الأوقات والظروف : في معركة الزّاب الحاسمة ، ولم يقاتل ولاته على المدن والأمصار كما ينبغي ، بل استسلموا دون مقاومة تذكر لجيش بني العبّاس . .

لقد كان النّاس يهابون مروان ويخافونه خوفاً شديداً حين كان في السلطة قوياً ، لأنه كان ظالماً لا يبالي بالقتل والصَلْب ، حتى لقد صَلّب الموتى والقتلى أيضاً ، كما جرى في معركة حِمْص عندما نكث أهلها ، فقد صلب خمسمائة من القتلى حول المدينة ، وهدم قسماً من سور المدينة (١٩٦) انتقاماً من أهلها .

وبالغ في القتل مبالغة جعلت القلوب التي حوله تتغيّر عليه سرّاً وتظهر له الولاء علناً ، أما الذين كانوا مع الاعداء ، فقد قاتلوه بعنف وشدّة ، لأنّه صدّع قلوبهم بالظلم والتعصب والانتقام .

ولكن حين أصبح ضعيفاً ، وبدت بوادر انهيار سلطته ، خلع الناس عنهم لباس الخوف ، وكشفوا له ولأعوانه نياتهم ، فهؤلاء الذين بقوا حول مروان مضطرين اضطراراً ، ولم يستطيعوا التخلّي عنه نظراً لظروفهم الخاصة أو لأسباب قاهرة ، وهم أهل الشام ، أقرب المقربين إلى بني أُميّة وحماة دولتهم وقاعدتهم الأمنية ، بذلوا قصارى جهدهم للتخلّص من مروان ، فقدم جنودهم إلى سليمان بن هشام بن عبدالملك بن مروان ، وكان في جيش مروان ، فاتصلوا به سراً وحسّنوا له خلع مروان وشجّعوه عليه ، وقالوا له : « أنت أرضى عند النّاس من مروان وأولى بالخلافة » ، فأجابهم إلى ذلك ، فسار بإخوته ومواليه معهم ، فعسكر بقنّسرين ، وكاتب أهل الشّام ، فأتوه من كلٍ وجه (١٩٧)

---

(١٩٥) التنبيه والأشراف (٣٢٨) . (١٩٦) ابن الأثير (٥ / ٣٢٩) .
(١٩٧) ابن الأثير (٥ / ٣٣١) .

وبلغت درجة بغض مروان من أبناء شعبه ، أنّ قسماً من بني أميّة لجأوا إلى أعدائهوقاتلوه إلى جانبهم ، حتى أنّ قسماً منهم لم يتورّع من اللجوء للخوارج والصّلاة خلفهم والقتال إلى جانبهم ، لامحبة بهم بل كرهاً لمروان .

والقائد الذي لا يحبّه رجاله ولا يثقون به ، لا يمكن أن ينتصر أبدا .

ولعلّ مروان وما حاق به ، يكون عبرة للمعتبرين .

وأخيراً ، فلم يكن مروان يتمتع بقابلية اختيار الرجل المناسب ، فظهر هذا النقص فيه أيام خلافته ، لأنّه كان بحاجة إلى كفايات عالية تسيطر على أرجاء الدولة الشاسعة ، فولى مَنْ لا كفاية لديه ، وحرم أصحاب الكفايات . فأسلمه قادته وولاته الإمّعات إلى مصيره المؤلم.

لقد نجح مروان قائداً وإدارياً مرؤوساً ، وأخفق خليفة .

مروان في التاريخ

يذكر التاريخ لمروان ، أنّه فاتح قُونِيَة من أرض الرّوم ، وكَمَّخ من أرض الجزيرة . ويذكر له ، أنّه استعاد فتح كثير من إرمينية وأذربيجان والجزيرة ، ووطّد أركان الأمن والاستقرار فيها .

ويذكر له أنّه تولّى إرمينية وأذربيجان والجزيرة ثلاث عشرة سنة ، نعمت فيها تلك المناطق بالهدوء والاستقرار والأمن بشكل لم تنعم به من قبله ولا من بعده.

ويذكر له ، أنّه مزّق بني أميّة إرضاء لطموحه غير المشروع في تولي الخلافة ، فلما تولاها كانت وبالاً عليه وعلى الدولة القائمة .

ويذكر له ، أنّه كان يخافه الناس حين كان قوياً في سلطته . فلما ضعف تخلّى عنه الناس وأسلموه لأعدائه .

ويذكر له أنّه كان قائداً لامعاً وإدارياً حازماً في ولايته ، لأنّه كان متفرّغاً للقيادة والإدارة حسب .

فلما تولّى الخلافة شغلته السياسة عن واجباته إدارياً وقائدا ، فأتلف نفسه وأودى بآل بيته وقرض الدولة القائمة .

إنّه مضى إلى غير رجعة ، ولكنّ عبرته في التّاريخ باقية ما بقي التّاريخ .

التراث الزراعي عند العرب

الدكتور يوسف عز الدين

(عضو المجمع)

كان العالم كله يعتمد اعتماداً كليا على المنتجات الزراعية وكانت حضارة الانسانية الأولى قائمة على الزراعة التي تعتمد على المياه والأرض الخصبة وقد حبانا الله تعالى في وطننا العربي بكل ما يتمناه الانسان من وفرة في المياه وخصب في الأرض وقد نشأت الحضارة القديمة في العراق ومصر واليمن والشام ومنها انتشرت الى العالم بفضل الزراعة .

ولأهمية الزراعة في التاريخ القديم عزا الفلاح في العراق ومصر تعلمها واجادتها الى الآلهة التي علمتهم أساليبها وصناعة أدواتها وأسلوب الحراثة والفلاحة والحصاد وقد خصصت شريعة حمورابي جانباً منها للزراعة والري. والطريف أنها وضعت عقاباً لمن يعذب الحيوانات والماشية . ومن هذين القطرين تعلم اليوناني الزراعة وقد تحدث عنها هيرودتس واسترابون ووصفا أساليبها ومقدار نجاح الزراعة وتقدمها في العراق ومصر .

وقد برع العرب بالزراعة والصناعات التي تحتاجها كأدوات الحراثة والدراسة والتذرية والارواء . وقد بقي الشرق رائدا من رواد الصناعة الزراعية ففيه ازدهرت جنائن بابل وجبال اليمن وغوطة دمشق ووادي النيل . ولما دخل

---

* محاضرة القيت في كلية الزراعة ، جامعة الملك سعود ، الرياض في ١٩٨٣/٥/٢٤ المصادف ١١ رجب الاصم ١٤٠٣ هـ .

العرب الأندلس نقلوا معهم فنون الزراعة التي طورت حياة الاندلس وأثرت أهله بالخير والحضارة ومن الطريف أن يحدثنا ابن الفقيه الهمذاني عن تطور الزراعة وتقدمها واختلاف الاثمار في الانتاج الزراعي فيقول في (صفة جزيرة العرب) إن أنواع العنب كانت أكثر من عشرين صنفاً وقال الفقيه الهمذاني راويا عن محدث (انه يعرف بمدينة السلام نيفا وسبعين نوعاً من التفاح ثم عــدها وتبسم أخو المتحدث ثــم قال كــذا وكــذا زيادة عــلى ما قال أخوه بنحو اربعمائة نوع وتسعة أنواع ...) وهو دليل على اهتمام الزارع والفلاح بالأرض والاشجار واستنبات أنواع جديدة . وقد أنعم الله على الانسانية كلها بأنواع كثيرة من النباتات والاشجار فقال في محكم كتابه (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء . فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان(١) دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) (٢)

وقال تعالى :

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) (٣) .

وقد شجع النبي صلى الله عليه وسلم على الزراعة وحث على ممارستها فقد قال : (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو انسان الا كان له به صدقة) ومن يدرس الصحاح والمسانيد يجد الأحاديث النبوية الشريفة كثيرة في هذا الصدد .

---

(١) القنوان قال ابن عباس هي العراجين – الخضر الطري الغض المتراكب كالسنابل في الحنطة والشعير .
(٢) الانعام : ٩٨ .
(٣) يس : ٣٣ ، ٣٥ .

كما حرص الرسول الكريم على إحياء الارض الموات وجعلها لمن احياها .
وقد سارت الدول الاسلامية في ضوء هذا طوال حياتها فجعل عمر بن الخطاب الارض لاصحابها وحرمها على الفاتحين ايستمر اصحابها في زراعتها ، وقد كانت الدولة تساعد الزارع وتوفر له المتطلبات الضرورية للارض .

فلو قرأنا كتاب الخراج لأبي يوسف والأحكام السلطانية للماوردي وغيرها من كتب التراث الإسلامي التي تتحدث عن الزراعة لوجدنا أنظمة الزراعة في الإسلام تحث على تشجيع الفلاح فهي لا تأخذ الخراج من الأرض إلا مرة واحدة وإن زرعت مرات عديدة وتعينه متى أصابه الضرر أو أصيبت زراعته بالتلف أو قضت عليها الآفات والحشرات وما كانت تطالبه بضرائب عن العلف والبقل والخصروات والقطن والكتان .

لذلك ازدهرت الزراعة وتنعم الناس بالخيرات بعد أن أخذت الدولة الاسلامية على عاتقها حفر الانهار والترع وبناء الجسور والقناطر وبلغ نظام الري في الدولة الاسلامية الذي ساد الشرق والغرب مرحلة من دقة الهندسة وإحكام الصناعة مازال مضرب المثل فكانت بعض الانهار تعبر نهر دجلة إلى الضفة الاخرى بعبّارات محكمة الهندسة واتخذت بعض هذه الانهار أداة لنقل البضائع والمواد الأولية والزراعية الى المدن المختلفة .

ثم ان الدولة كانت مسؤولة عن تنظيف الانهار وكريها وتخليصها من الاوشاب والاوساخ والاعشاب وصيانتها لتكون المياه سريعة الجريان ولتسهل مهمة الزراع والفلاح .

وكان الناظر إلى اراضي العراق من بعيد يراها سوداء من كثافة الخضرة حتى سميت بأرض السواد فما تخلو الارض من شجرة أو حقل أو بستان أو حديقة . لأن وسائل الري كانت متقنة ووصول المياه كان سهلاً .

وهل ينسى التاريخ الزراعة القديمة وأسلوب ري الجنائن المعلقة .

التأليف والمؤلفون :

وقد ألف العرب عدة كتب في الزراعة والفلاحة دلت على الاسلوب العلمي والعملي الذي صاحب هذه المؤلفات وقد طبع بعضها ومازال بعضها مخطوطاً وقد تحدثت عن النباتات بأنواعها وزراعتها وغرسها وفسائلها وبذورها وأساليب التقليم والتلقيح والتشذيب وخصصت أجزاء للازهار والرياحين دلت على مقدار رهافة الذوق وحسن الاختيار . وبحثت هذه الكتب في الارض وانواعها وأشكالها وألوانها وخصائص هذه الالوان والانواع وتحدثت عن السماد وأنواعه الحيواني والنباتي وفوائد الاسمدة ومقاديرها لكل شجرة أو نبتة أو زهرة كما وجدنا الزراع يفرقون بين أنواع المياه وأثرها في سقاية النباتات مثل مياه الامطار والآبار والعيون والانهار دون أن يملكوا الوسائل التقنية أو المختبرات التي وجدت في هذه القرن .

وفي الأندلس وصل علم الزراعة مرحلة متطورة جراء التجارب العملية التي كان يجريها الفلاح المسلم على أنواع الاشجار والازهار ولم يكتف بما كان لديه من أشجار وبذور وانما استورد بذوراً لنباتات لم تكن تزرع في الاندلس جلبها من الشرق الأدنى وأخذ يقارن بين اصنافها المختلفة وخصائصها المتباينة واهتم بالنباتات الطبية اهتماماً واضحاً .

وقد خصص عبدالرحمن الناصر حديقة خاصة بزراعة النباتات الطبية وأرسل في طلب بذورها من كل مكان في العالم وزرعها في هذه المزرعة وتتبع نموها وراقب فوائدها وأجرى عليها الاموال للعناية بها وتطويرها .

وقد كان العلماء يرحلون من مكان إلى آخر للاستفادة من الخبرات فقد ذهب ابن البيطار من الاندلس إلى المشرق وكان يناقش العشابين والزراع والصيادلة في زراعة النباتات الطبية حتى عُيّن رئيساً للعشابين والصيادلة في مصر واستقر مع تلميذه ابن أبي أصيبعة وعرف كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية .

ومن الكتب التي ألفت في الزراعة والفلاحة والحيوان مالا يمكن أن أحصره فهي ماتزال مخطوطة في أكثرها ولكن يمكن أن أذكر نماذج منها ومنها يستدل على مقدار العناية بالفلاحة واهتمام الزراع المسلم بها وبالحيوانات المختلفة التي كانت تخدم حياته .

١ـ الفـــلاحة — لابن البصال (محمد بن ابراهيم) سمى البصال نسبة الى زراعة البصل وطبع كتابه محققاً في تطوان سنة ١٩٥٥ وهو رائد من رواد فن الزراعة التطبيقية .

٢ـ كتاب الفلاحة — لابن الاشبيلي

٣ـ الفلاحة الاندلسية — لابن العوام (علي بن محمد) وقد قام بنفسه بتجارب زراعية وابحاث فردية سجلها في كتابه .

٤ـ الفلاحـــة — لابن الحجاج (احمد بن محمد) (٤) .

٥ـ الفلاحة النبطية — لابن وحشية وهو معلمة زراعية في المياه والزراعة وأوقاتها وهندستها ولا يهمنا نسبة الكتاب بقدر ما فيه من علم .

٦ـ كتاب النباتات — أبو حنيفة الدينوري طبع في لايدن ١٩٥٣ .

٧ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات .

للقزويني

٨ـ زهرة البستان ونزهة الاذهان

لأبي عبدالله محمد الغرناطي (ابن حمدون الاشبيلي)

(٤) حقق (المقنع في الفلاحة) لابن حجاج الاشبيلي صلاح جرار وجاسم ابو صفية باشراف الدكتور الدوري ونشره مجمع اللغة العربية الاردني .

وامتاز الكتاب بالتجربة والتطبيق وشدة الملاحظة فقد كان المؤلف يذكر تجاربه الخاصة ولم يكتف بذلك انما أراد الاستزادة من معارفه فذهب الى المشرق . كما نذهب نحن الى أمريكا والغرب - واحتك بالزراع بل وصل الى بحر الخزر وعاد الى الاندلس مطبقاً جميع ما شاهده واستفاد كثيرا من سفراته وللأسف لم يجد الباحثون نسخة كاملة منه فما زال الكتاب كثير المعلومات يستفيد منه الزارع المعاصر وبخاصة دراسته للأرض والماء والبذور والفسائل والسماد بأنواعه الحيواني والنباتي وزراعة البقول والخضر والأزهار والرياحين .

ولم يقف التأليف عند فترة من الزمن أو عهد من عهود الاسلام انما وجدنا من ألف متأخراً مثل عبدالغني النابلسي الذي توفي سنة ١١٤٣هـ وطبع هذا الكتاب في دمشق سنة ١٩٧٧ وقد سماه (كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة) والكتاب تجربة حقلية بأسلوب علمي اتخذ فيه وسيلة اللمس والشم والذوق والنظر اذ هي أدوات المختبر العلمي للفلاح وبها يختبر الوسائل والأدوات معرفة الأرض وغرس الشجر والزهر والتقليم والتطعيم ويفحص الاختلافات بين البذور والبقول .

وقد وجدت بعض حكام اليمن يؤلفون في الزراعة والبيطرة مساهمة في نشر الوعى الزراعي وتثقيف الزراع فقد ألف معهد الدين عمر بن يوسف الرسولي المتوفى سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) عدة كتب في الزراعة والطب والفلاحة فقد ورد في ترجمته أسماء الكتب التالية :

١- الثقافة في علم الفلاحة .

٢- الجامع في الطب .

٣- ملح الملاحة في معرفة الفلاحة .

٤- المعتمد في الادوية المفردة .

٥- المغني في البيطرة (٥) .

وقد ألف عباس بن علي بن داود (الملك الأفضل) المتوفى (٧٧٨ هـ - ١٣٧٦ م) . (بغية الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين) ذكر فيه أنواع الأراضي والمياه والزراعة وأوقاتها والاشجار وغرسها وآفاتها وخزن الحبوب ولا يمكن أن أقف على جميع ما كتب عن الزراعة والبيطرة وتربية الحيوانات ولكني أريد أن ألفت النظر الى ان العرب في مختلف بلادهم وعلى مستوى الطبقات قد اهتموا بالزراعة وأولوها العناية الكافية ويمكن أن نذهب الى أية مكتبة ونفحص المخطوطات والمطبوعات فسنجد صدق ما قلت.

الغرب و الزراعة :

وكل ما اتمنّاه ، وأنا في حرم كلية الزراعة موئل هذا الفن الاصيل، انتقوم بجمع هذه المخطوطات والمطبوعات التي تحدثت عن الزراعة الاسلامية وتخصص لها مكانا في مكتبتها ان لم تكن قد قامت بالعمل وأطمع في تخصيص بعض المحاضرات المقارنة بين ما وصل اليه العرب والمسلمون وبين ما وصلت اليه العلوم الزراعية المعاصرة فليعرف الطلاب بأن تراثهم الأصيل لم يترك شيئاً علميا لم يدرسه ولتعود الثقة بقدرات الاجداد ثم الانتفاع بالخبرات الزراعية والعلمية القديمة في بناء زراعي نابع من تربتنا وبيئتنا والاستفادة من الغرب ومعداته وآلاته المتطورة في تطوير حياتنا الزراعية .

ولرب قائل يقول لماذا لا نأخذ الفكر الزراعي الغربي المتطور ونطبقه على الارض العربية ونترك كل ما جاء به العرب وجوابي واضح وصريح أن الفلاح العربي المسلم طبق على بيئته ومحيطه خبرته وعرف تربته واستفاد من تجربته من الهواء والماء والشمس والرطوبة كما استفاد الغربي من محيطه فيجب أن نستفيد من التجارب العربية والغربية في آن واحد لان الاختلاف واضح بين الغرب والشرق في تنوع المحصول وجودته باختلاف المحيط والتربة والمياه .

(٥) حكام اليمن المؤلفون المجتهدون ، تأليف عبدالله الحبشي ١٩٧٩ بيروت ص ١١٥ .

ولا ننسى أن الغرب مدين لنا بكل حضارته وفكره وتطوره العلمي ويكفى أن ندرس علم الزراعة في الاندلس فسنجدها ما تزال تستعمل الاسماء العربية بفضل زراعة المسلمين وتطور هذا العلم في بلادهم .

وكان من فضل العرب والمسلمين على الغرب ادخال الأدوية الطبية الزراعية التي تطورت فيما بعد الى التحضيرات الكيماوية لأن العرب لم يتركوا شيئاً الا ذكروه بل رسمت النباتات الطبية بدقة وثبتت ألوانها المختلفة في مؤلف (رشيد الدين الصوري) .

العناية بالحيوان :

ولم تكن الزراعة وحدها مجال عناية العرب والمسلمين فقد كان للحيوان عناية خاصة حتى عند الأدباء والكتاب حسب مصطلح اليوم لأن العالم كان واسع الاطلاع على معارف علمه موسوعيا في ثقافته فلا نعجب إن وجدنا العالم الطبيب خبيرا بالزراعة والزراع خبيرا بالموسيقى واللغة والأدب اذ لم يكن عصر الاختصاص قد بدأ ففي الحيوان نجد حياة الحيوان الكبرى للدميري والحيوان للجاحظ وعجائب المخلوقات للقزويني وسنجد العالم العربي يعنى بالأدب والزراعة والصناعة والحيوان فهو يصف الكائنات الحية في مختلف رتبها وأصنافها وأشكالها والبيئات التي تعيش فيها سواء أكانت تعيش في البر أم في الماء أو كانت برمائية وبالطبع لم تقسم حسب المفهوم العلمي الحديث فهم يرون كا ما يطير من الفراشة واليراعة والطير والخفاش وترتب حسب الحروف الابجدية ولكنهم لم يتركوا من الحيوانات والحشرات والنباتات شيئاً كالنمل والنحل والعقرب والزنبور والحلزون والاسماك وجميع أنواع الزواحف واللبائن الا أحصوها ووصفوها وذكروا فوائدها ومضارها . وبلغوا مرحلة في الدقة العلمية والوصف الباهر ما أثار الاعجاب .

وليس غريباً على الباحث المسلم أن يهتم الحيوان لانه جزء من حياته فقد ألف الجاحظ (الحيوان) وألف الدميري (حياة الحيوان الكبرى) وهذان الكتابان مطبوعان ينهل منهما كل باحث في الأدب واللغة وعلم الحيوان ولكن لا بد من أن أذكر (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني) والمؤلف من سلالة أنس بن مالك وولد في قزوين وغلبت عليه شهرة البلدة وقد سافر الرجل الى الشام والعراق واصبح قاضيا في العراق زمن المستعصم وبذلك نجد في بحثه صدق القاضي وامانة المؤمن في تأليفه .

فقد درس حياة النبات والحيوان ورتب مؤلفه حسب البيئة التي يعيش فيها الحيوان فحيوانات الماء تختلف عن حيوانات البر وبالطبع لم يأخذ بنظرة العلم اليوم ولفت نظره حجم الحيوان وحركته وطيرانه لذلك عد الخفاش والبراعة من الطيور وحسب الحوت والاسماك من نسق واحد لانه رتب حسب المعرفة القديمة .

ولكن الدقة العلمية في إبعاد الاساطير والخرافة القديمة خير شفيع لـه في البحث فهو لم يترك حيوانا من الحيوانات أو حشرة من الحشرات سواء أكانت من الزواحف أو اللبائن الا ذكرها .

وسارت هذه الدقة في كتابه لما تحدث عن الاشجار والنباتات والأزهار .

في أوروبا :

وعندما درست في أوربا وجدتها تتسع بخيرات كثيرة من الاطعمة والمزروعات النادرة وتلتذ بمختلف الفاكهة والخضروات مع أنها لم تكن تعرف شيئاً عنها قبل الاحتكاك بالمشرق العربي والتراث الزراعي الاسلامي فالرز والسكر والقطن والزعفران والنخيل والاعناب والخيار والقرع والرقي (البطيخ الأحمر) والبطيخ والليمون والبرتقال والخوخ والمشمش الى آخر القائمة الكبيرة من مفاخر هذه الفاكهة والنباتات لم يكن يعرفها الأوربي البدائي ولم يكن

يسمع بها لانها أنواع لم يرها ولم تقدر مخيلته على تصورها وقد بقيت بعض هذه الأسماء كما جاءت من اللغة العربية أو بعض الامالات والتحريف الذي يناسب اللغة التي نقل اليها .

وقد كان للحروب الصليبية فضل على الغرب فقد حملت روح الحضارة الاسلامية الى أوربا وكان للأندلس أثر كبير في نشر الثقافة الاسلامية الى جانب الفن الزراعي . ومكتبة الاسكوريال خير شاهد على ما وصل اليه فن الزراعة ففيها كثير من كتب الزراعة منها كتاب ابي زكريا الاشبيلي الذي يقف أمام دقة علمه وسعة اطلاعه وتجاربه العلمية الزراع المعاصر مدهوشا لما فيه من نظرة عميقة وتجارب زراعية ناجحة ومعرفة واسعة بأساليب الزراعة وطرق الري وبناء القناطر وحفر الجداول وتصريف المياه الزائدة وهي أهم خطر يتهدد الاراضي الزراعية في الوطن العربي هذه الأيام .

جمال الاندلس في الشعر :

وقد سعدت بزيارة معالم الاندلس وهالني منظر تلك الحدائق الناضرة والزهور اليانعة بألوانها الرائعة وجمال التنظيم وحسن التنسيق الذي يدهش السائح والزائر والمقيم من فتنة هذا الجمال النشوان ودقة بناء المهندس واحكام البناء وتناسق التصميم وبراعة السطرة على مجاري المياه للارواء أو للزينة في في النوافير والسقي .

ورغم كر السنين واختلاف العصور فقد بقيت هذه الحدائق والبساتين شاهدا خالدا على براعة المهندس المسلم ودقة الفلاح واصالته في عمله وبعد نظر في الزراعة .

وايت شعري كم أوحى هذا الجمال من قصائد خالدة جميلة اللحن رقيقة الاسلوب ساحرة العبارةحلوة اللفظ وخلدت مشاعر جدنا الفلاح وأحاسيسه وسجلت عواطفه الصادقة حتى خصص لها الأدب العربي فرعاً من فروعه

سماه شعر الطبيعة وجدنا فيه شعر ابن زيدون وابن هانئ وابن عبد ربه وغيرهم من شعراء المشرق والمغرب الذين أوحت لهم ازهار الرياض وخرير الجداول وهبوب النسمات العذبة جميل الشعر وعذب القصيد .

فمن زار تلك الديار وله حسّ شاعر لا بد أن ينظم فيها أحاسيسه وكتب أجمل أدبه متأثراً بما حباه الله من فتنة وسحر ولنقف عند بعض هذا الشعر الجميل لنترحم على أجدادنا الفلاحين في الاندلس الذين زرعوها واحسنوا زراعتها فقد قال ابن زيدون :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والافق طلق ومرأى الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في اصائله كأنه رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضيّ مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت بتنا لها — حين نام الدهر — سرّاقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقي بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين اشراقا
سرى بنافحه نيلوفر عبق وسنان نبّه منه الصبح أحداقا

وقال ابن حمد يس :

في حديق غرس الغيث به عبق الارواح موشى البطاح
تعقل الطرف ازاهير به ثم تعطيه ازاهير صراح

وقال ابن خفاجة يصور الطبيعة بجمالها النشوان وزهو البهاء الريان والفتنة الساحرة :

وكمامة صدر الصباح قناعها عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور اقاحه اخلاف كل غمامة مدرار

نشرت بحجر الارض فيه يد الصبا دار الندى ودراهم النوار
وقد ارتدى غض النقا وتقلدت حلي الحباب سوالف الانهار

وكأن الشاعر يتحدث مع هذا الجمال الزاهي الذي زُيّن بالأزهار والفتنة وبهره سحر المنظر ، وكيف لا ينبهر أصحاب الذوق الرفيع والاحساس العميق .

وقال في حديقة :

وصقيلة الانوار تلوي عطفها ريح تلف فروعها معطار
والنور عقد والغصون سوالف والجزع زند والخليج سوار
رقص القضيب بها وقد شرب الثرى وشدا الحمام وصفق التيار

انها فتنة الطبيعة في زهو الازهار واختيال الاشجار وفضل الفلاح العربي الذي خلدها للانسانية متعة وسحراً .

ترى الحديقة ترقص طرباً وتلوى عطفها لمداعبة الرياح لها فتلف أغصانها بالرائحة العبقة . فغنى الحمام وصفق التيار ورقص الفنن ، انها نعمة الله وفضله على عباده بقيت تذكر فضل الفلاح العربي على كل سائح زائرها وتمتع بجمالها.

وقد الهمت الطبيعة الزاهرة الساحرة في الاندلس احمد شوقي أجمل شعره وأرقه في قصيدتين مشهورتين فهو يخاطب (نائح الطلح)

لم تأل ماءك تحنانا ولا ظمأ ولا أدكارا ولا شجوا افانينا
تجر من فنن ساقا الى فنن وتسحب الذيل ترتاد المواسينا
آه لنا نازحي ايك بأندلس وان حللنا رفيفا من روابينا

وقد مررت بالاندلس فجعلت مني شاعرا نظمت فيها أبيات ترجمت الى اللغة الاسبانية والانكليزية فكانت سبباً في أن تكون احدى هذه القصائد مقدمة لترجمة كبيرة عن شاعر الاندلس الكبير (لوركا) (٦) قلت :

---

(٦)

هذي مروج بلادي الخضر قد تاه في افيائها السحر
والماء عذب في تدفقه عبر القرون مرقرق غمر
غنت به حمدونة سلفا لما ازدهى في عقدها النحر
أين ابن زيدون ومجلسه طال الغبوق وما دنا الفجر
وأخي يسير الى سنابله لحصادها فالزرع مصفر
وارينب هذي بمشيتها هذي الثريا هذه نَوْر
عين الجآذر في محاجرها والله هذا الحسن والعطر
غرناطة التاريخ ذا شجن حنّي يديك فأدمعي غزر
ولآلىء الاحباب ان نشرت ما ما زها الياقوت والدر
وصحائف التاريخ قد خجلت مذ ضاع منها المجد والفخر

وفي القصيدة التالية سجلت الوفاء العربي الاصيل عند الرجل المسلم العربي نحو زوجته ومقدار حبه له فقد بنيت الزهراء على اسم الزوجة وكانت من بلاد يكثر فيها الثلج فأراد زوجها أن يكرمها فغرس لها أشجار اللوز لانها عندما تزهر تبدو وكأنهاالثلوج(٧) علىسطح الارض ولماوصلتها تذكرتالحكاية فقلت :

من خطاه مجفلات جاءني يسعى غريبا
بدد الصمت الرهيبا .
لم يدُر دهري حبيبا .
من أتاني بعد أن صرت ركاما وحجارة
عبثت أيدي زماني غارة تتبع غارة
حاقد يبغض رمزا كان في الحب منارة
كنت رمز الأمل العذب وهمسات الأماني

★ ★ ★

(٧) بناها عبدالرحمن الناصر وحشد لها آلاف العمال يعملون فيها حوالي عشرين سنة فكانت من روائع الفن المعماري ذكرها المقرى جـ ٢ .

جبل القدس شموخا ملأ الدنيا حناني
قد غرسنا لهم الحب بأنغام حواني
فسقونا غصص البغض بتدمير الحياة .
من أتاني زائرا بدد صمت الحسرات ؟ . .

★ ★ ★

ليته جاء بكورا ومع الفجر الحبيب
وأنا فوق سرير الفل في نسج حبيبي
مخملي الدفء ما أجمله دفء القلوب
ونوافيري جذلي بين كأس وحبيب
كنت قارورة أشواق والهام وطيب
كنت للحب مروجا عطرات كل الدروب
أين ظلي ومياهي
وأغاريد الطيور ؟ . .
يرغم الوحى بأرضٍ فغدا العيي خطيبا
ألهم العازف حبي فيغنيه ضروبا

★ ★ ★

أنا يا زهراء قد جئت من الشرق القصيّ
عربيّ جاء يحدو بغناء عربيّ
ساقه الشوق لكي يستاف في هذا الندى
ويروّي ظمأ النفس فصلى وتبتّلْ
فجثا فوق اريج وعلى الترب تمهل

★ ★ ★

أنا لو استطيع قد سرت على الاجفان في شوقي العميق
وزرعت السحب ازهارا على طول الطريق

أبيض السحر كنور اللوز كالثبج الحقيقي
خالدا مثل خلودك
ساحرا سحر نشيدك

★ ★ ★

لولا جمال الاندلس وذكريات المجد العربي التليد وتألق الطبيعة بجهد الفلاح العربي الذي زرع أشجارها ونسق حدائقها لما وجدنا مثل هذه القصائد الرائعة التي سجلت نبضات الشعر والشعراء ولولا عناية الزارع العربي المسلم لما خلدت تلك الحدائق مثل جنة العريف والحمراء والزهراء انه ثمرة الفن الزراعي الأصيل . الذي حرص عليه الفلاح العربي المسلم في تلك الديار .

المكتبة الزراعية :

اهتم العرب بالعلوم في مختلف أنواعها وقد كان الكاتب المسلم دقيق الملاحظة عملي النظرة واقعياً في تسجيل ما يراه وقد سجل لنا كتباً كثيرة عن النخل والعشب والكلأ والاشجار والكروم بأنواعها وأشكالها المتنوعة ومحل غرسها واماكن تكاثرها وما تحتاجه من عناية ورعاية .

وقد اهتم بالنخلة اهتماماً واضحا لانها كانت تعطيه الشيء الكثير حتى سماها سيدة الشجر وقد حققت بعض هذه الكتب ونشرت من المستشرقين ومن العرب وتحتاج الى وقت طويل لدراستها ومن الذين اهتموا بالتأليف النضر بن شميل وأبو عمرو الشيباني والاصمعي والزبير بن بكار وابن سيده وان جاءت اكثر هذه الكتب مهتمة بالجانب اللغوي الا أنهـــا أعطتنا مدى الاهتمام الواضح بالزراعة والزرع . وقد حصر الزميل الدكتور حسين نصار في دراسة شاملـــة كتب النبات في بحث نشر في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق .

وللأسف ان المكتبة الزراعية ضاع الكثير منها في غزو المغول للعراق وفي المصائب التي صبّتها الصليبية على المسلمين في الاندلس فقد حرقت الكثير منها

وكانت تقضي على كل كتاب مكتوب باللغة العربية وينال صاحبه من العذاب ألوانا وما بقى منها قد ذكرنا جزءا منه ما زال زاخرا بكل ما يفيد الزارع والفلاح ومهندس الري ففيها تحديد لأوقات الزراعة وغرس الفسائل وشتلها وريها وسمادها ونظام هذا الري كما ذكرنا .

وأشكال الاغراس حتى دخلت الاسماء العربية في تاريخ الاندلس الزراعي وحملت المنتوجات الزراعية الاسماء العربية وبخاصة المزروعات التي لها علاقة بالطب ومالها علاقة في علاج الامراض كما اسلفنا فقد عرف الحنضل والحناء والبان والكافور والكركم والكمون والذرة والقطن والسكر والحلفاء والحرمل والياسمين والجت (البرسيم) والليف والنارنج والزعفران والسماقوالسنبل والتمر والتمر هندي والقائمة طويلة جداً يمكن لمن يريد أن يتتبع هذه الأسماء العربية في اللغة الاسبانية يجدها في سهوله ويسر .

وقد بقي الفلاح المسلم رائداً من رواد الزراعة واكثار النباتات واستخراج العقاقير سواء أكان في المشرق أم في المغرب وكان له فضل كبير في استعمال كثير من هذه النباتات في الادوية الطبية . ويحاول الطب المعاصر اليوم دراسة أثر هذه النباتات التي جاء ذكرها عند ابن زهر وابن البيطار وبالفعل استعمل الطب الحديث جزءاً منها في العلاج الطبي ووجدها ناجعة ناجحة .

والطريف أني لما سافرت إلى الصين ذهبت الى الصيدلية فوجدت الصيدلاني يخير المريض بين الاعشاب التي وضعها في أدراج مرتبة منسقة وبين الادوية الحديثة وبالفعل احتجت إلى بعضها فاعتمدت على طب الاعشاب فكان أسرع أثراً وأكثر أمناً فلماذا لايقوم الصيدلاني العربي بمثل مايقوم به الصيني في وطنه وفي نباتاته ؟

إن علم الزراعة الذي يذهب لدراسته أبناؤنا إلى امريكا وأوربا ليعودوا بعدها فخورين بشهادتها ودرجاتها العلمية له أصل اسلامي عربي طورته أوربا

وزادت فيه حسب حاجتها ومحيطها وليس في الدراسة في أوربا من ضير ومن الضروري الاستفادة من النظريات الجديدة والتجارب التي اجراها العلماء ولكن المهم أن يستفيد طلابنا وأساتذتنا من العلوم الزراعية والقيام بالتجارب في أرضنا ومحيطنا والأسمدة الموجودة لدينا ونظام الري القديم في الوطن العربي لانها تلائم هذه الارض وكانت نتائج تجربة عملية طويلة .

وحبذا لو قام فريق من هؤلاء المختصين بنشر وتحقيق هذه الكتب ومقارنة هذه العلوم الاسلامية بالعلوم الحديثة وبخاصة أن بعض اجزاء من الوطن العربي لها تاريخ عريق في الزراعة مثل العراق والشام واليمن ومصر ووصلت الى مرحلة استخراج أنواع متباينة من الفواكه والاشجار فقد مر علينا أن أنواع التفاح زادت وكثرت اشكالها وطعمها وألوانها وقد حاولت أن أحصي في العراق أنواع التفاح فلم أجدها تزيد على عدد أصابع اليد فأين ذهبت جهود الفلاح وتجاربه . . . ؟ وما معنى استنبات هذه الانواع الفريدة سواء كانت من التفاح أم العنب . أليست معناها وجود تجارب علمية دقيقة . وان هناك تطوراً حضاريا ورهافة في الذوق ورفاهية في العيش ولعل من الكتب التي أتمنى أن تحقق (كتاب الفلاحة النبطية) الذي قال عنه الزميل الدكتور (صالح أحمد العلي). . . انه كتاب ضخم لا يزال مخطوطا وفيه معلومات عن المحاصيل الزراعية الرئيسة في العراق وأنواع بعضها ولكنه لم يستوعب كافة المحاصيل . . . وقد ذكر ابن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الادوية والأغذية المحاصيل منقولة عن كتب النباتات التي سبقته والتي أُلِّفَت قبله في الطب التي عثر عليها كما ذكر محمود الدمياطي في (معجم أسماء النباتات) جميع المحاصيل التي ذكرها ابن البيطار وذكر اسمها العلمي أمام الاسم العربي .

وكان الطبيب العربي يذكر أماكن العقاقير ويقوم باحصاء عام لها لكي يستفيد منها عند الحاجة فهو يعرف مكان تكاثرها وزرعها فقد حدث يونس

الصيدلاني عن ابن الفقيه الهمـــداني بأنه أحصى ما عمل من العقاقير النباتية على سواقي الأنهار وأدخلها في الأدوية التي يمكن الاستفادة منها في العلاج الطبي .

وقد ذكر ابن الفقيه بأن العقاقير والادوية كانت سببا في تخليص المرضى من العذاب الذي كان يعاني منه المريض من آثار الامراض وأوجاعها والاسقام وآلامها (التي تسببها هذه الامراض . وأثر كل نبات في ازالة المرض والكميات التي يعالج فيها وهو خير دليل على أن العرب كانوا اصحاب تجربة علمية . . . وقد قال قدري طوقان . . . ان خير ما أهداه العرب هو الاهتمام بالتجربة والحث على اجرائها مع دقة الملاحظة . . . وقد طالب جابر بن حيان من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية الا يحاولوا عمل كل شيء مستحيل أو عديم النفع وعليهم أن يعرفوا السبب في اجراء كل عملية . .) .

ولا شك بأن الغرب وأمريكا قد وصلا الى مرحلة متطورة في الزراعة وقد اخضعت الى تجارب علمية متقدمة . بفضل الآلات الجديدة وأسلوب استعمال هذه الآلات في الري والزراعة والحراثة والحصاد واستنبات أنواع جديدة وأشكال غريبة لم تكن معروفة وفد أدخلت التقنية الحديثة عليها في تطوير أنواع البذور واحداث طفرات للحصول على نباتات جديدة تلائم البيئة الغربية وحاجات الفرد اليومية في الحجم واللون والطعم وتقاوم الامراض والآفات الزراعية وحفظ النباتات بعيداً عن الاصابة بالامراض وباطالة زمن تخزين البذور وانتخاب الانواع الجيدة منها .

وان العلم الحديث بدأ في استعمال الاشعة في تطوير أنواع النباتات والاشجار والخضروات لتلائم حاجة المستهلك وتغريه بلونها وحجمها أو شكلها الخارجي وطعمها الداخلي . والقضاء على الخلايا التي تؤدي الى النمو غير المرغوب . كما تطورت أساليب القضاء على الحشرات الضارة والآفات الزراعية التي تفسد المحاصيل أو تعيش عليها بأساليب جديدة وبطرق حديثة .

الذي أرجوه أن يكون المهنــدس الزراعي الذي تعلمعاوم الغرب واستفاد من علمه أن يستفيـــد من تجارب اجـــداده وبراعة المسلمين الزراع الأوائل فان هذه التجارب نابعة من حاجات البيئة ودراسة المناخ والارض والتربة جيلا بعد جيل وله ان يحكم بعدها بمقدار تطور هذه العلوم عند الغرب في سبيل تطوير الزراعة وعلم الحيوان في الوطن العربي لان حاجات الغرب الزراعية وتجاربه تتحكم فيها طبيعة الغرب من هواء وأمطار وقلة ظهور الشمس فقد استفادوا بالتجربة من آثار الطبيعة وعرفوا كل شيء عن المناخ والرياح والامطار والاسمدة والري عندما بدأوا في الزراعة . فلماذا لا نطبق نحن تجاربنا على الزراعة ؟ وأخيراً مما يثلج الصدر ويفرح النفس أن المملكة العربية السعودية قد نجحت في كثير من زراعة المحاصيل الزراعية والخضروات وبخاصة الحنطة وقد بشرنا بأن المستقبل سيكون فيعون الفلاح في الاعتماد على المزروعات الداخلية والاستغناء عن الاستيراد من الخارج وتلك نظرة سليمة عميقة الجذور لأن الامة التي تستورد ما تأكل لن يكون لها مستقبل بين الامم المتقدمة . . .

وأسأل الله أن يأخذ بيد العاملين جميعهم . .

والسلام عليكم ورحمة الله

مصادر متنوعة للاستفادة منهـا
في البحث غير ما ذكر

١ـ علم الفلاحة عند المؤلفين العرب .
خوس مارية مياس بيكروبا تعريب عبداللطيف الخطيب ، تطوان ١٩٥٧.

٢ـ عبقرية العرب في العلوم والفلسفة .
عمر فروخ – بيروت ١٩٦٩ .

٣ـ العلوم العملية في العصور الاسلامية – عمر رضا كحالة ، دمشق ١٩٧٢.

٤ـ العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي .
الدوميلي ترجمة عبدالحليم النجار ومحمد يوسف موسى القاهرة ١٩٦٢ .

٥ـ ابن البصال رائد الفن الزراعي الحديث في الاندلس .
جعفر خياط مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١٥ – ١٩٦٧ .

٦ـ كتاب الفلاحة لابن بصال .
جواد علي مجلة المجمع العلمي العراقي ج ٦ – ١٩٥٨ .

٧ـ علماء العرب الاندلسيون .
محمد عبدالله عنان مجلة العربي العدد ٤ سنة ١٩٧٠ الكويت .

٨ـ تأثير العرب والعربية في الفلاحة الاوربية .
مصطفى الشهابي – مجلة المجمع اللغة العربية – دمشق ج ٢٦ سنة ١٩٦١ .

٩- كتب النبات حسين نصار .
مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق .

١٠- مجلة المورد العدد الرابع مجلد ٦ سنة ١٩٧٧ (عدد خاص عن العلوم عند العرب) فيه عدة مقالات منها :

١- عجائب المخلوقات عزيز علي العزي .

٢- علم الزراعة والنبات من خلال كتاب الفلاحة لابن البصال .
عادل محمد علي

٣- الهندسة الزراعية عند العرب .
سند السيد باقر الفحام



زُفَرُ بنُ الحارثِ الكلابي

الدكتور نوري حمودي القيسي

كلية الآداب – جامعة بغداد

رئيس معهد البحوث والدراسات العربية

حياته وشعره :

هو ابو الهُذيل زفر بن الحارث بن عبد عمرو بن معاذ بن يزيد بن عمرو ابن خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب (١) ينتهي نسبه الى هوازن (٢) ولد بالبصرة وكان عثمانياً (٣) وهو سيدٌ شريف (٤) وسيد قيس في زمانه (٥) ، وقيل الهذيل ابنه وبه يكنّى ويقال انه كان يكنى ابا الكوثر والاول اثبت (٦) وكان لزفر أخٌ هو أوس بن الحارث استخلفه على قرقيسيا بعد اعتزامه على ان يغير على بني تغلب ويغزوهم (٧) ، وكان الهذيل فارساً قاتل مع أبيه في أكثر من معركة وحقق انتصارات مشهودة (٨) وعفا عنه عبدالملك بعدما تَحوّل الى مصعب وقاتل مع ابراهيم بن الاشتر يوم دُجيل وكان يُحبّه لشجاعته (٩) وكان شاعراً وله ابيات (١٠) ، اما الرباب بنت زفر بن الحارث

---

(١) تجمع المصادر على سلسلة النسب هذه . ينظر انساب الأشراف ٥ / ٢٩٨ والخزانة ٣ / ٣٩٣ .
(٢) ابن عساكر . تاريخ ابن عساكر ٤ / ٣٧٧ .
(٣) ابن سلام . طبقات فحول الشعراء ١ / ٤٧٩ .
(٤) ابن سلام . طبقات فحول الشعراء ١ / ٤٧٩ .
(٥) المؤتلف والمختلف / ١٨٩ .
(٦) البلاذري . انساب الأشراف ٥ / ٣٠٢ .
(٧) البلاذري . انساب الأشراف ٥ / ٣٢٦ .
(٨) المصدر نفسه ٥ / ٣٢٦ .
(٩) المصدر نفسه ٥ / ٣٥٠ .
(١٠) المصدر نفسه ٥ / ٣٠٧ .

فكانت عند مسلمة بن عبدالملك وكان يؤذَن عليه لأخويها الهذيل وكوثر في اول الناس وقتل ابن له في حصار قرقيسيا (١١) وزفر في الطبقة الأولى من التابعين من أهل الجزيرة وكان من الأمراء ، سمع عائشة ومعاوية (١٢) ونُدب على مائة رجل مع مجاشع بن مسعود لنصرة عثمان بعد ان كتب عثمان الى عبداللهبن عامر يعلمه أن أهلَ البغي والعدوان من أهل العراق ومصر والمدينة قد احاطوا بداره فليس يرضيهم بزعمهم شيء دون قتله أو يخلع السربال الذي سربله الله إياه ، ويأمره باغاثته برجال ذوي نجدة وبأس ورأي ولعلّ الله أن يدفع بهم بأس من يكيده ويريده (١٣) فلما كان ببعض الطريق اذا راكب مقبل فلقيه زفر بن الحارث فقال له ماوراءك قال : قتل المسلمون نَعْثلاً . قال : ماتقول : قال : الحقّ وهذه طاقات من شَعره معي فقال له زفر : لعنك الله ولعن ماأقبل منك وماأدبر وشدّ عليه فقتله فكان اول قتيل بعثمان (١٤) .

ويبرز دور زفر سنة ست وثلاثين وهو على رأس عامر (١٥) ثم يكون معه زمام الجمل وكان من آخر من قاتل ذلك اليوم (١٦) ، وعندما أمر الامام علي نفراً بحمل الهودج من بين القتلى كان القعقاع وزفر أنزلاه عن ظهر البعير ووضعاه الى جنبه (١٧) .

وازفر منزلة رفيعة حققت له مكانة مرموقة وأهّلته لأن يأخذ موقعه في كثير من الحالات فقد أوفده يزيد وجمعاً من الرجال الى الزبير وأمرهم أن يعلموه انه انما بعث بهم احتجاجاً عليه واعذاراً اليه ، وان يحذروه الفتنة ويُعرفوه ماله عنده من البرّ والتكرمة اذا أبرّ يمينه وأتاه في الجامعة التي بعث

---

(١١) المصدر نفسه ٥ / ٣٠٧ . (١٢) البغدادي . خزانة الأدب ٣ / ٣٩٣ .
(١٣) البلاذري . انساب الأشراف ٤ / ٥٦١ . (١٤) المصدر نفسه ٤/ ٥٧٩ .
(١٥) الطبري ٤ / ٥٠٥ . (١٦) الطبري ٤ / ٥٢٦ — ٥٢٧ .
(١٧) الطبري ٤ / ٥٣٣ .

بها اليه معهم (١٨) . وتظل اخبار زفر مقرونة بمرج راهط لانها تمثل الحدث الكبير في حياته ، والصورة التي التقت في مركزها أكثر الأخبار حدّة ، فقد شهدها مع الضحاك بن قيس ، وصار أهل الشّام حزبين حزب اجتمع الى الضحاك بمرج راهط بغوطة دمشق ، وحزب مع مروان بن الحكم وكان الضحاك بن قيس ومعه النعمان بن بشير الأنصاري يدعو في الشام لعبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم مع بني أَمية يدعو لنفسه فالتقى الفريقان في مرج راهط وكان مع الضحاك ستون الف فارس ومع مروان ثلاثة عشر الفاً فقال عبيدالله بن زياد لمروان ، إن فرسان قيس مع الضحاك فلا تنال منه إلا بكيد فأرسل مروان الى الضحاك يسأله الموادعة حتى ينظر في المبايعة لابن الزبير فأجابه الضحاك ووضع أصحابه سلاحهم فقال ابن زياد دونك فشدّ مروان على الضحاك فقتل الضحاك والنعمان ورجال قيس ولما هرب زفر جاءته خيل مروان ففاتها وتحصن (١٩) وتجمع الاخبار على أن زفر كان مع الضحّاك فلما امعن السيف في قومه ولى ومعه رجلان من بني سُليم اختلف في تحديدهما (فهما شابان من بني سليم) (٢٠) وعندما جاءت خيل مروان تطلبهم وخاف السلميان أن تلحقهم خيل مروان قالا لزفر : يا هذا انجُ بنفسك فأما نحن فمقتولان فمضى زفر وتركهما حتى اتيا قرقيسيا (٢١) .

وكانت وقعة مرج راهط في سنة اربع وستين (٢٢) وهي السنة التي كان بها زفر بن الحارث على قنسرين وكان على طاعة ابن الزبير .

---

(١٨) البلاذري . انساب الأشراف . القسم الرابع الجزء الاول / ٣٠٨ .

(١٩) البغدادي . خزانة الأدب ٣ / ٣٩٣ . (٢٠) الطبري ٥ / ٥٤١ .

(٢١) وينظر مروج الذهب ٣ / ٨٧ – ٨٨ وتذكر بعض الروايات انه فر يومئذ عن ثلاثة بنين له وغلام فقتلوا (بلدان ياقوت / ٧٤٤) .

(٢٢) الطبري ٥ / ٥٣٤ .

وفي الاخبار التاريخية احداث ومواقع ، واسماء لامعة قد تقترن أو تعرف بموقعة ومن خلال كل مسألة من هذه المسائل يصاغ الرأي الذي يحدد الموقع أو الفكرة التي تتحدد في اطار فكرة الحدث ، وهذا ماجرى العرف عليه حتى أصبح حالة ثقافية لكثير من الدارسين والباحثين بسبب هذه الشرائح المقطعة ، والأخبار المبتورة والحالات التي ظلت ملازمة . وربما تكون هذه الانطباعات التي علقت تمثل وجهاً واحداً من وجوه لم تطرق ، أو جانباً واحداً من جوانب لم يعرض لها . أو سمة واحدة من سمات لم تناقش ولكن الحكم الذي ينتهي اليه المؤرخ والدارس والباحث يظل أسير هذا الجانب الواحد والسمة المفردة ، ويبقى هذا الرجل أو تلك الظاهرة أو صورة الموقعة محصورة في دائرة هذا التصور فتفقد كثيراً من خصائصها ، وتضع اجزاء كبيرة من حقيقتها ، وتفصل بشكل غير مقصود عن حلقات مترابطة قد يكون مجموعها يُعطيها صورة مغايرة لما ألفه الناس عنها أو تعارفوا عليه من أحوالها ، أو قطعوا بحكم قد يكون بعيداً عنها . وفي أخبار التاريخ احداث كثيرة من هذه التصورات ، (فصفين) لها صورة واحـــدة . و (الحجاج) له وجــه واحد و (المختار الثقفي) و (عبدالرحمن بن الاشعث) لهما تصور واحد ، وتبقى الوجوه الاخرى التي توحدت فيها هذه الشخوص او تلك الاحداث غير واقعة في دائرة الاكتمال والتحقق لتبرز القضية الكاملة التي عاشتها او الإطار العام الذي أخذه كل واحد من هؤلاء ، وهي حالة لاتقتصر على التاريخولا تقف عند الأدب وانما تتجاوز هذه المباحث لتمتد الى كل ظاهرة انسانية أو حالة تحتاج الى احاطة شاملة او اكتمال فهمي يكشفعن الظاهرة بما يحقق لها الوجوه الكاملة أو التصور العام .

لقد تركت هذه الحالة مجالاً واسعاً لكثير من الاحكام الاضافية أن تعدّل ماأتفق عليه الى حَدّ ما واصبح مقولة عند كثير من الباحثين ، فظلمت في اطاره أحداث ، وشوهت معالم ، وطُمست آثار ، وعُزلت قدرات كان لها دورها في الاحداث التاريخيــة ، وصُبّت انطباعات على كثير من الوقائع

بسبب القناعات السريعة التي تركتها بعض الأحكام ، حتى أصبح التاريخ شرائح غير متكاملة ونماذج غير موصولة ، وظواهرغير مترابطة في كثير من اقسامه .

ان هذه الحالة توجب على الدارسين اعادة النظر لا في احداث التاريخ ككل وهي مسألة غير يسيرة ، وانما في طبيعة كل جزء من اجزائهوتقليب الوجوه الاخرى ، ودراسة الحالة الكاملة واستيعاب الاحداث المتداخلة لتكون الصورة واضحة المعالم ، بيّنة القسمات متوازنة في الاحكام وإلاّ بقيت الصورة ناقصة ، والحدثُ بحاجة الى مايكشف عن المعالم الأخرى التي تعطيه وجهه الحقيقي ، وتمنحه قدرة المواجهة على الوضع الطبيعي في سلسلة التو اصل التاريخي .

و (زفر بن الحارث) و (مرج راهط) مسألة تاريخية تكشف لنا عن حقيقة المسألة المطروحة في مواجهة الموقف والصورة التي بقيت تعيش في الذهنّ العربي باعتبارها حالة من حالات التمزق ومحاولة من محاولات التوثيب لاسقاط الدولة العربية بمعزل عن الجذور الحقيقية التي ولدت هذا الاحساس والتنافس الشخصي والاهواء الفردية التي اذكت شعور الاستحواذ وهي حالات لايمكن ان تدرس بعيدة عن هذا الوضع الذي ظل يحكم التنافس ، وعندما تهيأت الفرص الكفيلة بانضاج الفكرة والاحساس بالذات الواحدة تلاشت او خفت على الاقل مشاعر الذات الفردية لتتحــول الى إحساس عام بالمصلحة القومية والتوجه الانساني الذي يجمع الأبناء في اطار الحكم المتفق عليه . والاخبار كلها تؤكد في ذكريات (مرج راهط) انّه لما عقد يزيد لابنه معاوية ألزمه الفقهاء والرواة وصرف اليه وفود العرب فلما أدركته الوفاة قيل له : أوصِ واستخلف قال والله ماذقت حلاوتها فأصلي بمرارتها ، ان يك خيراً فقد استكثر منه آل ابي سفيان ، وان يك غير ذلك فوالله ما أحبُّ أن أزوّدهم الدنيا وأذهب بوزرها الى الآخرة ولكن ليُصَلِّ بكم حسّان بن مالك ابن بحدل اربعين ليلة وتشاوروا في امركم واستودعكم الله ثم مات وحسّان

ابن مالك بن بحدل على الجُندين فاسطين والأردن والضحاك بن قيس الفهري على دمشق والنعمان بن بشير على حمص وسعيد بن مالك بن يزيد الكلبي ثم العُليمي على قنسرين وعبيدالله بن زياد على العراق فوثب كل جند على عاملهم ، فوثب زفر بن الحارث على سعيد بن مالك فأخرجه من قنسرين ودعا الى طاعة ابن الزبير ، وبايع النعمان بن بشير بحمص لابن الزبير (٢٣) .

إن الموقف التاريخي المتأرجح بين تردد مروان بن الحكم وهو يُصبح رسولا للضحاك بالبيعة لابن الزبير ، وبين ادعاء حسّان بن مالك بن بحدل الخلافة بعد أن عهد اليه أن يصلي بالناس وبين تطلّع الضحاك بن قيس وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، يُظهر طاعة بني أميّة والشكر لمعاوية ويدس الى هذا الحي من قيس أن ابن الزبير أولى بالأمر ، ثم همّ بأن يبايع لابن الزبير .

إن هذا الموقف الذي تراخت فيه قدرة الحاكمين ، وتأججت مطامح المقتدرين الذين وجدوا في هذا التراخي فرصة وهم يجمعون هذه الجموع ويعتمدون الآلآف من القبائل لتحقيق تلك المطامح كان سبباً من اسباب التنازع والاقتتال وصورة لما تخفيه الصدور . ولابد لنا ونحن نقف عند احداث مرج راهط من الأوليات التي اوقدت جذوة هذا النزاع وهي اوليات لها صلة بالجانب القبلي الذي ظلت جذوره تسرج أسباب الخصومة وتشعل عوامل النزاع . وأوليات لها صلة بحب النفس وامتلاك ناصية الملك وهي توجهات ظلت تتحرك في عصور الدولة كلما وجدت الفرصة متاحة ولكن الدولة تبقى لها قدرتها على تجاوز هذه التناقضات . فالعصر كان عصر انتقال وفتح وتعريب وبناء الشخصية التي حرصت الدولة على استكمال شروطه وتحديد هُويته وان الدولة كانت تشعر وهي تقف على عتبة المرحلة الجديدة ان رسالتها في توطيد دعائم العهد الجديد كان يفرض عليها ان تستوعب دورها في هذا البناء وقدرتها في

(٢٣) نقائض جرير والاخطل ٦ / ٧ .

مجابهة التحديات المفروضة وهي تظهر على شكل حركات مناوئة أو تيارات جديدة أو ثورات متمردة تثيرها العصبية تارة ، وتحركها المصالح تارة أخرى ، وتؤجج أوارها النزعات الفردية الطامحة وأن اهداف هـذه التوجهات كانت تلتقي في تفتيت هذا الكيان وتنزع الى اسقاط دوره التاريخي متخذة من بعض المواقف حججاً للمقاومة واسباباً للتمرد وعوامل تجميع القوى لايقاف المسيرة التي بدأت تأخذ طريقها في نشر رسالة الاسلام وترسيخ اسباب المبادئ الخيرة التي حملتها هذه الأمّة وهي تمتلك قدرة المجابهة والتحدي .

من هنا كانت الصراعات الداخلية التي اثارتها بعض هذه الاسباب تدخل في هذا الاطار العام الذي اخذ برقاب بعض الحركات لتتحول الى اقتتال دامي ، وتمزق قومي واسع وصراع قبلي غير محدود . ولكن الحصيلة النهائية لكل هذا التحرك كان الدولة العربية التي استطاعت ان تضع الدعائم الأولى لبناء الفكر واقامة المجتمع وترسيخ الأسس السليمة في بناء المسيرة العلمية والثقافية والحضارية للدولة العربية .

وتؤكد معظم المصادر ان زفر بن الحارث دخل قرقيسيا في المحرم سنة خمس وستين وكان معه خلق من قيس فرسان ورجال (٢٤) واقبل عبدالملك ابن مروان يريد زفر بن الحارث فلما نزل بقرقيسيا أقبل على اصحابه فقال : والله اني لاكره أن أخلف هذا الرجل ورائي وأسير الى غيره وقد علمت أنه ممن يبغضنا ويتوالى آل الزبير ثم ارسل اليه عبدالملك بن مروان يدعوه الى طاعته فأبى عليه زفر بن الحارث وخاف منه خوفاً شديداً ولم يخرج اليه ، فأمر عبدالملك بن مروان بالمجانيق فركبت ثم نصبت على حصن قرقيسيا وجعل القوم يرمون الحصن بالحجارة رمياً متداركاً وثلمت المجانيق من المدينة بُرجاً مما يلي

(٢٤) البلاذري . انساب الأشراف ٥ / ٣٠١ .

حسان بن مالك بن بحدل وحُميد بن حُريث بن بحدل . فقال زفر (٢٥)

لقد تركتني منجنيقُ ابن بحدل أخاف من العصفور حين يطير
مُلحّاً عليّ بالحجارة دائبــاً لأني وقورٌ والكريم وقــورُ

وهي صورة تكشف عن مبلغ الايذاء الذي حملته قذائف المنجنيق وهي تصيب المدينــة ، والذعر الذي نشرته داخل الحصن حتى توهم فاصبح يخاف العصفور اذا طار وهي حالة تدل على مبلغ الفزع وشدة الخوف وتحسّب الهواجس . ولكن الشاعر الفارس كان يؤكد كرمه ووقاره ويعبرّ عن احساسه بما يعاني ، ومضايقته وهو يجابه هذه الضربات المتلاحقة . ويستمر الحصار اربعين يوماً فتثلمت معظم بروج المدينة لما اصابها من رمي بالمجانيق (٢٦) ولم يقبع زفر داخل الحصار وانما كان يوالي خروجه للدفاع عن نفسه والمقاتلين الذين معه فقد ذكر البلاذري أن زفر بن الحارث قال لابنه الهذيل بعد أن حاصره عبدالملك .اخرج اليهم فشُـدّ عليهم شدة لاتُثني عنها حتى تضرب فسطاط عبدالملك ، والله لئن رجعت دون أن تطأ طُنُب فسطاطه لأضربن الذي فيه عيناك ، فخرج عبدالملك وتقدمت اليمانية فجمع الهذيل بن زفر خيله ثم رماهم فصبروا قايلاً ثم انكشفوا وتبعهم الهذيل بخيله حتى وطئوا اطناب الفسطاط وقطعوا بعضها ثم كرّوا راجعين فقبّل زفر رأس ابنه الهذيل وقال : يابني لايزال عبدالملك يُحبّك بعدها ابداً . فقال الهذيل : والله لو شئت أن أدخل فسطاطه لفعلت (٢٧) .

واستقر صلح زفر على أن آمنه عبدالملك وابنه وكل من كان معه وعلى وضع الدماء والاموال وان لايقاتل زفر عبدالملك ولا يقاتل له . وقيل : ورجع

(٢٥) ابن اعثم الكوفي كتاب الفتوح ٦ / ٢١٦ — ٢١٧ .
(٢٦) البلاذري . انساب الأشراف ٥ / ٣٠٣ .
(٢٧) البلاذري . انساب الأشراف ٥ / ٣٠٣ .

الى دمشق (٢٨) وكان ذلك سنة احدى وسبعين .

وتوثقت علاقته بعبدالملك فكثرت مجالسته له . ومسايرته في حاشيته (٢٩) ، ودخل زفر على عبدالملك فأجلسه معه على سريره . ودخل الأخطل على عبدالملك فرأى زفر بن الحارث معه على سريره فقال ياأمير المؤمنين أيقعدُ زفر هذا المقعد وقد قاتلك وحاول زوال نعمتك وسلبها فقال زفر : إنا كنا قاتلناك بالأمس ثم أرانا الله خيراً مما كُنّا فيه فوالبناك ودخلنا في أمرك فنحن اليوم في طاعتك على أشد مما كُنّا فيه من معصيتك فلا تسمعن مايقول هذا ولا قول قومه فإنّا أمسُّ بك قرابة وأوجب عليك حقاً ، وبقي الأخطل يلح على التذكير بالثارات والذحول ويثير عبدالملك كلما وجد حالة من الصلح ولقاءً بين العرب ، ولعلّ قصيدته الرائية التي يقول فيها:

بني أمية قد ناضلت دونكمُ ابناءَ قوم هم آووا وهم نصروا
وقيسَ عيلان حتى أقبلوا رقصاً فبايعوا لك قســراً بعدما قُهروا
ضَحّوا من الحربِ اذْ عضّتْ غواربهم وقيس عيلان من اخـلاقها الضجرُ
بني أميــة إني ناصــحٌ لكُمُ فلا يبيتنّ فيكمُ آمناً زُفَــرُ

تمثل هذا التوجه الذي عبرّ بهذه القصيدة التي تثير في نفس الخليفة ما يدفعه الى تجديد حالة التمزق ، وتبديد الجهود التي كانت تتكاتف لتجاوز المرحلة واعادة لمّ الشمل ، والوقوف بوجه التحديات ، ولم يكتف الأخطل بهذا التحريض وانما يُصبح الفرور لدى الطعان (٣٠) ويفرد له قصيدة يذكر فيها فراره يوم المرج ، ويوغل في هجائه (٣١) ولكن هذا التحريض والاستثارة لم تضعف شخصية زفر الذي تؤكد الأخبار أنه كان موئل الذين يجدون أنفسهم بحاجة اليه ، وتبقى مدائح القطامي شاهدة على مروءته ، لاهجة بما انعم عليه ،

(٢٨) نفس المصدر ٥ / ٣٠٥ ، ٣١٤ .
(٢٩) نفس المصدر ٥ / ٣٠٦ .
(٣٠) نقائض جرير والاخطل / ١١٨.
(٣١) نفس المصدر / ١٢٧ .

ذاكرةً قيامه بأمره حتى رُدّ عليه ماله وجميع ماأخذ منه ووصله ، وقد عبّر الشاعر فيها عن صدق أحاسيسه ، وعمق مشاعره ، وبقيت هذه الأحاسيس والمشاعر خالدة عبر هذه القرون الطويلة وهي تردد الوفاء الأصيل ، وتذكر الذكر الحميد ، وتتغنى بالمآثر الفذة اعترافاً بالفضل ووفاءً بالجميل (٣٢) ، وعندما قتلت تغلب عُمير بن الحبَاب وقومه أتى تميم بن الحُباب ابا الهذيل زفر يستنجده على الطلب بثأر أخيه (٣٣) ، فكانت استجابته تؤكد التزامه بهذه الدعوة وانتصاره لمن يشعر بظلامته .

واستجار الجامع المحاربي بزفر بن الحارث حين هرب من العراق خوفاً من الحجاج فأجاره الى الشام (٣٤) ، وعندما قدم خالد بن عتّاب فارس تميم ، وكان من اشجع الناس فارساً ، واسخاهم يداً الى الشام استجار بزفر بن الحارث فأجاره ، ودخل على عبدالملك فأخبره ، وامضى جواره فلم يزل مقيماً عنده حتى مات .(٣٥) .

ولما انتهى سليمان بن صرد الى قرقيسيا اخرج اليهم زفر بن الحارث انزالاً وسُوقاً واهدى الى وجوههم الجزر ونحر لسائر العسكر ، وأمر ابنه الهذيل فأقام لهم كلّ ماحتاجوا اليه وروّوهم ، وكان يرسم لهم خطط الدفاع والمقاومة ، ويُحدّد لهم اسباب النجاح ، وعبأ سليمان الكتائب ، ووجه الى أول عسكر أهل الشام فقاتلهم قتالاً شديداً فنالوا منهم وهزموهم ، وغنموا غنيمةً حسنة ، فبلغ الخبر ابن زياد فسرّح اليهم الحُصين بن نمير في اثني عشر الفاً وبعد معارك طاحنة قتل سليمان بن صرد الخزاعي فأخذ الراية بعده المُسيب بن نَجبة الفزاري فقُتل ثم أخذها عبدالله بن سعيد وهو يقول فمنهم مَنْ قضى نحبه ومنهم من ينتظر فُقتل وأخذها عبدالله بن وال فقُتل وأخذها عبدالله بن حازم فقُتل الى

(٣٢) تنظرقصائد المديح في ديوان القطامي. (٣٣) البكري. معجم ماستعجم ٣ / ٣٣٨ (الكحيل)
(٣٤) ابن عبدربه العقد الفريد ٢ / ١٨ ، ٤ / ١١٥ .
(٣٥) النهشلي . الممتع / ٣٤٨ — ٣٤٩ .

جنب ابن والٍ وعندما جاء الليل انسحبوا ورجعوا فلما مروا بزفر بقرقيسيا بعث اليهم من الطعام والعلف يمثل الذي كان بعث به في بدأتهم وارسل الأطباء والأدوية (٣٦) .

وكان من حديث عمران بن حطّان انه لما أطرده الحجاج كان ينتقل في القبائل ، فكان اذا نزل في حي انتسب نسباً يقرب منه ، ولما ضاقت به السبل ارتحل حتى نزل بزفر بن الحارث الكلابي فانتسب له اوزاعياً ، واتاه يوماً رجل ممن رآه عند روح بن زنباع فسلّم عليه فدعاه زفر فقال : من هذا ؟ فقال : رجل من الأزدِ ، رأيته ضيفاً لروح بن زنباع فقال له زفر : ياهذا . أزدياً مرة وأوزاعياً مرة ، ان كنت خائفاً آمناك ، وان كنت فقيراً جبرناك ، فلما أمسى هرب وخلّف في منزله رقعة (٣٧) .

ويذكر ابو الفرج أن زفراً كان كريماً مجمعاً لايُحب الفرقة وهي صفة ظلت ملازمة له ، واذا كانت الاحداث قد دفعته الى ان يقف هذا الموقف من الدولة العربية فإنّ الدافع يظل نابعاً من الحرص على مسيرة التوجه ، والدعوة لاختيار الصورة الافضل والطريق الأقوم .

ان هذه الصورة الانسانية الكبيرة والمجد الاخلاقي الشامخ المتجلي في هذه المروءة الأصيلة كان موضع اعتزاز كبير ، ومقصد اصحاب حاجات وجدوا في سلوكه استجابة لما يبغونه من احتياج واعانة ولعلّ قصائد القطامي التي خلد فيها زفر لاحسانه اليه واكرامه له كانت إشارة أخرى الى جملة الاشارات التي زخرت بها حياة هذا الفارس البطل الذي ظل رمزاً من رموز الشاعر جرير وهو يعرض للأخطل ويهجو تغلب (٣٨) .

---

(٣٦) البلاذري . انساب الأشراف ٥ / ٢٠٩ – ٢١١ وينظر تفصيل الخبر في الطبري ٥ / ٥٩٣ ومابعدها .

(٣٧) المبرد . الكامل ٣ / ٨٩٨ – ٨٩٩ .

(٣٨) نقائض جرير والاخطل / ٤٤ .

فعندما أُسر القطامي أتى زفر بقرقيسيا فخلّى سبيله وردّ عليه مائة ناقة وقد استثارت هذه المأثرة شاعرية القطامي فخصه بخمس قصائد من عيون شعره بلغت احداها واحداً وسبعين بيتاً والثانية ستة وستين بيتاً وبقيت هذه القصائد موضع اهتمام مؤرخي الأدب والنقاد ونماذج استشهاد لما عبّر فيها الشاعر عن صدق عاطفة وحسن صنيع وكرم محتد .

وتبقى هذه النتف المتناثرة من حياة هذا الشاعر الفارس متباعدة في كتب التاريخ والأدب موزعة في بعض المجاميع الشعرية التي وجدت في شعره ضرباً من الحماسة ، وفي ابياته مجالاً للاستشهاد، وفي اخباره تأكيداً لبعض الاحداث ويذكر ياقوت الحموي خبراً عن المدائني يذكر فيه انه صنف كتاباً في اخبار زفر بن الحارث وقرأه ياقوت بخط ابي سعيد الحسن بن الحسين السكري (٣٩) ولكن أخبار هذا الكتاب لم تصل ، ولم يشر ياقوت الى الابواب التي طرقها والجوانب التي عالجها ، وينفرد بذكر اسم تل يقال له تل زفر بن الحارث الكلابي وهو مالم اجده في مصدر آخر (٤٠) .

شعره :

وشعر زفر الذي اصطبغ بلون سياسي متميز ، وقيل في معارك كان لها صداها في الاحداث التاريخية التي شهدها القرن الأول الهجري ، كان يمثل اتجاهاً واضحاً من حيث المعالجة والتعبير والاحساس وقد انحسرت مواضع استشهاده في الجوانب التي لم تبتعد في حدودها عن المساحة المحصورة في هذا الاطار ، والخاضعة لهذا التوجه التاريخي وعُرفت شخصيته ضمن اعداد من الولاة الذين خرجوا على طاعة الدولة بعد أن أصبح هواهم زبيرياً ، وتحملوا ماترتب على هذا التوجه ، ومن الطبيعي أن تصبح احاسيسهم وهم يدافعون عن وجهة نظرهم ملونة بهذا اللون ، ومقترنة بهذه الاشارات بعد أن أحيطوا

(٣٩) ياقوت . معجم البلدان ٤ / ٣٦٩ . (٤٠) ياقوت . معجم البلدان / ٦٦٤ .

بأسباب الدفاع والهجوم ، وادخلوا في نطاق الخارجين على النظام فهو لم يجد نفسه في عداد الشعراء الذين استقرت بهم الأحوال فانصرفوا الى الاغراض التي تفرضها عليهم طبيعة الحياة ، ولم يألف جانب الدعة ليتخذ من الشعر وسيلة للتعبير عن الحياة الناعمة أو الهادئة التي ألفها الآخرون من الشعراء وانما وجد في الشعر اداته التعبيرية ، وعرف في مضامينه اهدافه التي نصب لها نفسه ، وزفر لم يعرض في قصائده للخلافة او الخلفاء الامويين ، ولم نجد عنده الى مايشير الى مثل هذا التوجه وانما كانت قصائده تعرض لبعض خصومه الذين يوغلون في ايذائه ، ويتجاوزون حدود المروءة ، واصبح شعره صورة لحركته ووجهاً من وجوه حياته القتالية وهو ينتقل من معركة الى معركة ومن واقعة الى واقعة وليس غريباً بعد هذا ان نجد مفرداته وهي تتحدث عن (القتل) و (الحرب) و (الثأر) و (البيض الرقاق) و (القتلى) و (المنايا) و (الجرد) و (المشرفية) و (القنا) و (السيوف) و (الرماح) و (النصال) وهي مفردات تتكرر في بعض الأحيان أكثر من عشر مرات وتقترن بكل ما يعطيها شدة المصاولة وحدة المطاولة واحتدام التلاقي وقسوة الصراع الذي أخذ برقاب بعض القبائل ، ومن الطبيعي ان تتردد في ثنايا قصائده شخوص خصومه ممن حاولوا التنكيل به أو كسر شوكته .

فعندما يشير عمرو بن الوليد على عبدالملك بقتله يعمد الشاعر الى هجائه بما يضعف مركزه (٤١) . وعندما يجد قيس عيلان تتوانى عن إدراك ثأرها يأخذ نفسه بهجائها ، ويدعوها الى أن تسترد كرامتها ، وتستعيد مكانتها (٤٢) .

ولحسان بن بحدل في أبيات زفر نصيب يتأرجح بين الخوف من إيذائه والانتقام منه لما اقترفه بحق مدينة زفر التي حاصرها والكيفية التي استخدم فيها

(٤١) تنظر القطعة رقم (٣) .

(٤٢) تنظر القطعة رقم (٩) .

المنجنيق والاسوار التي تهدمت من جراء الرمي المتوالي (٤٣) .

وتبقى (كلب) الخصم الذي توجه اليه سهام الشاعر ، (٤٤) يرتفع صوته بالانتشاء عندما يتمكن منها (٤٥) .

ويَغيضه ان ينسب لغير قومه ، وتؤذيه تقوّلات المرجفين الذين يحاولون اضعاف حميته ، وتفتيت قوته ، ونزعه من قبيلته ، بروممون من فعلتهم هذه عزله واسقاط هيبته ، فبشر بن مروان يرسل الى قيس رسالة يطلب فيهــا ان يتخلوا عنه لانه من غير المعقول ان يقتلوا انفسهم مع رجل ليس منهم وانما هو من كندة ، وتقع هذه المقولة على الشاعر موقعاً غير محمود فينبري للدفاع عن نفسه بما يبطل هذه المقولة ، ويسقط هذا الادعاء (٤٦) .

وينطلق مديحه من ايمانه بالدور البطولي الذي يؤديه الفرسان ، فيدعو الله أن يجزيهم خيراً لما يقدمونه من أعمال محمودة ، وفعال مشهودة وتتحدد معاني مديحه في تكريم الصفات التي وجد الناس فيها صوتاً للمروءة وتخليداً لمآثره فممدوحه سعيد يلاقيه بالتحية والترحاب .

ان ايمانه بالنهاية المحتومة وجرأته في اقتحام المخاوف وتربيته التي وجدت في هذ اللون من الحياة هدفها قد اختارت لولده هذيل الطريق نفسه وكانت شجاعة ولده هذا تثير في نفسه الوان الاعتزاز ، وتبعث في أعماقه أسباب التواصل لمثل هذا التوجه والتربية (٤٧) .

ويمدح (جدار بن عباد) وهو يتحصن في بعض مدن الجزيرة ويدعوه الى التمسك بموقفه ويؤمله بوصول (الغوث) (٤٨) وتكبر صيحة الثأر في

(٤٣) تنظر القطعة رقم (١١) .
(٤٤) تنظر القطعة رقم (١٧) .
(٤٥) تنظر القطعة رقم (٢٣) .
(٤٦) تنظر القطعة رقم (٢).
(٤٧) تنظر القطعة رقم (٧) .
(٤٨) تنظر القطعة رقم (١٢) .

نفسه وهو يُذيق ابناء بحدل الهوان بعد أن يُصبحهم بالبيض الرقاق والوشيج المقوّم (٤٩) .

وكان بكاؤه حاراً وهو يرثي أصحابه ، ولوعته حزينة وهي تتعالى وفاءً لاولئك الرجال الذين اندفعوا بكل حماس ، فالعين تجود بانسكاب دموعها لتبكي عاصماً وابن الحباب بعد أن قتلته تغلب ، وتظل منزلة هؤلاء رفيعة في حسابه ، كبيرة في تصوره ، وان واحداً من هولاء لايعد له مائتان من خصومه ، وإن كلّ قتيل من أبناء قومه كريم في حين يعد قتلىخصومه من الكلاب (٥٠) وتتكرر مثل هذه الصور وهو يثأر لعمير بن الحباب من بني جُشم جموعاً (٥١) وعمير هذا كان موضع عتاب من الشاعر إثر الحرب التي وقعت بين تغلب وقيس (٥٢) ويظل ابن الزبير الأمل المرتقب في تصور الشاعر لما علقه عليه من آمال ، وعرفه فيه من شجاعة ، ويبقى خصومه من ابناء بحدل هم الاعداء الألداء الذين لم يظفر بهم ليشفي منهم غليله (٥٣) .

ولم يكن الانصاف الذي عودنا عليه بعض شعراء العربية بعيداً عن سلوك هذ الشاعر وهو يواجه خصومه وهم يقودون جُرداً للمنية ضمّرا . وكما كانت قصائد الانصاف موزعة بين قوم الشاعر وقوم خصومه فقد كانت القطعة (٥٤) تجسيداً لهذه الروح واعترافاً بقدرتهم على الثبات وصبرهم على الموت .

فكان شعره شعر ابيات ومقطعات . .

إن محاولة تحليـــل ماتبقى من شعر هـــذا الفارس تترك لنا مجال النظر في جمع الاشتات المتناثرة من شعر هؤلاء الذين تركوا بصماتهم واضحة في

(٤٩) تنظر القطعة رقم (٢٤) .
(٥٠) تنظر القطعة رقم (٤) .
(٥١) تنظر القطعة رقم (١٤) .
(٥٢) تنظر القطعة رقم (١٥).
(٥٣) تنظر القطعة رقم (١٨) .
(٥٤) تنظر القطعة رقم (١٣) .

الوقائع التاريخية ، ولكن بقيت أنفاسهم الصادقة وتعابيرهم الدقيقة بعيدة عن التناول . إنها الحالة التي تستحق الدراسة ، والمادة التي تستأهل الوقوف احياءً للمشاعر وتوثيقاً للتوجه الصادق في تقويم الادب ودراسة الاحداث التاريخية الحاسمة .

كانت معركة مرج راهط البؤرة القتالية الحادة في تكثيف الأخبار الخاصة بالمقاتل زفر بن الحارث وما قيل فيها وذكر بعدها من احداث ، وكأن الحادثة بما خلقته من ظروف قد مهّدت لهذه الشاعريّة أن تنطلق ، وللنفس الشعري أن يزدهر ، وللقدرة القتالية ان تعبر عن نفسها وهي تخوض تجربتها وتؤدي دورها وتدافع عن حقيقتها لما رافقتها من احداث وترتب عليها من نتائج ، فشعره جاء صدى لما مرّ به من حالات قاهرة ، وصوتاً لما ازدحمت به خفقات الوجدان وهي تقتحم الردى وتجابه المعارك . وكان سلاحه الذي يقاتل به هو المرهفات البيض ولكن ذكريات احجامه في المعركة واخفاقه في تحقيق ماكان يرجوه منها كان موضع إحباط ظلت آثاره تعتمل في نفسه حسّاً صامتاً ، وتراجعاً ذاتياً ، واكتئاباً مشحوناً بالحيرة والتردد .

وقد وجد خصومه في هذا الجانب موضعاً للولوج ، ومجالاً للتسلل ليتمكنوا منه ، ويضعفوا موقفه فعمرو بن مخلاة كان له دوره في هذه المواقف التي حملت الشاعر على الرد عليه بما يبرر له اسباب التراجع ويدفع عنه حالات الخروج من المعركة (٥٥) ويظل انتماؤه القبلي لقيس هو المعوّل عليه لتمنع عنه الضيم(٥٦) ولم تبتعد عن قصائده أيام قرمه وهي تسجل الانتصارات وتكتب أسفار المعارك ، فيوم الشعب له صورته في احاديثه فهو يلوم فيه بني نمير ، ويحمد بني هلال لموقفهم المشرّف وحمايتهم الاحساب ووقع رماحهم وهي تردّ قبل تركيب النصال (٥٧) .

(٥٥) تنظر القطعة رقم (١٦) .
(٥٦) تنظر القطعة رقم (١٩) .
(٥٧) تنظر القطعة رقم (٢١) .

وفي قصيدته اليائية احساس عميق بما ظل يعاني منه ، فقد ذهب اليوم الواحد الذي اساءه بصالح أيامه التي أبلى فيها البلاء الحسن ، وبقيت غصة هذا اليوم تلاحقه لأنه خسرَ فيه الشيء الكثير فقد ذهبت المعارك بابن عمرو وابن معن وهمام وكلهم فرسان قومه الذين لايعوّضون وقد تعود وهو الفارس الشاعر على أن يقدم في المعارك مايُحمد عليه ، ويسجل من البطولات ماتشهد له به صولاتها ولم تعرف عنه نبوة قبل هذا اليوم ، ولم تكتب له صفحة من صفحات الفرار في غير هذه المعركة ... (٥٨) .

انها حالة الاحساس بالخيبة التي يتعرض لها الرجال وحالة الاخفاق التي لم يستطع الانسان تجاوزها . ولكنه يظل مؤمناً بالغاية التي عاش من أجلها وقد استوعبها الفارس زفر .

لقد توزع شعر زفر في كتب التاريخ والأدب ، واستُشهد به في المواضع التي وجد فيها حاجة ، فجاء مقطعات متناثرة ، وأبياتاً متباعدة ، لايوجد بينهما غرض ، ولا يشد اسبابها رابط ، ولهذا كانت بعيدة عن القصائد التقليدية التي عودنا الشعراء عليها ، فمقطعات زفر لا تفتتح بمقدمات طللية ولا تتداخل في أبياتها تراكيب الصور التي عرفناها في اغراض الشعر ، لأنها في الاصل عبّرت عن حالة الحرب التي خاضها ، والمعارك التي سجلها والرجال الذين تعامل معهم فهي صور معارك وأيام واصوات أحاسيس أثارتها نوازع التأثر لفرسان سقطوا في سوح المعارك أو استشهدوا دفاعاً عن حمى القبيلة ، أو أبلوا البلاء الحسن في يوم من أيامها . واستجابات واعية لموقف الخصوم الذين حاولوا ايذاء الشاعر أو وقفوا بوجه تطلعاته التي كانت تنزع الى ابن الزبير . وهي حالات تترك للشاعر فرصة الوقوف عند أية بداية من البدايات الفنية . التي ألفها الشعراء وهم يمهدون لقصائدهم أو يعبرون عن تصورهم ، أو يبنون

(٥٨) تنظر القطعة رقم (١٦) .

هيكل موضوعاتشعرهم ، فالبناء الشعري الذي عرفه الشعراء قد اخذ حجمه ولم يكن شاعرنا في عداد أولئك الشعراء الذين انصرفوا لما وجدناه عندهم .

ان هذه الخصيصة لم تعد مقتصرة على شعر شاعرنا وحده وانما هي خصيصة يمكن أن تلازم كثيراً من هؤلاء الشعراء الذين دفعتهم الاحداث الى ان يعبّروا عن واقعهم ، ويبتعدوا عن المجال الذي يعيش فيه الشعراء وقد استطاعوا ان يحصروا موهبتهم في هذه الحالات الخاصة ، مستلهمين الوقائع والاشخاص الذين تنحصر في حدودهم تصوراتهم . وربما كانت هذه الحالة مدعاة لانحسارهم وسبباً من أسباب وقوعهم في دائرة الظل .



– ١ –

وقال زفر بن الحارث :

جزى الله خيراً كلما ذَرّ شـارقٌ　　سعيداً ولاقتـه التحيّة والـرحبُ
وحلحـلةُ المغـوار لله جَـدّهُ　　فلو لم ينله القتلُ بادت إذن كلبُ
بني عبد وَدّ لا نطالِبُ ثـأرنـا　　من الناس بالسلطان إن شبّت الحربُ
ولكنّ بيضَ الهندِ تسعر نارَنـا　　إذا ما خبت نار الاعادي فما تخبو
أبادتكمُ فرسانُ قيس فمـا لكم　　عديدٌ إذا عُدّ الحصا لا ولا عقْبُ
بأيديهم بيضٌ رقـاق كأنهـا　　إذا ما انتضوها في اكفهمُ الشهب
فسبُّوهُم إنْ انتمُ لم تُطالبـوا　　بثأركم قد ينفع الطالبَ السبُّ
وما امتنع الأقوام عنـا بنأيهـم　　سواء علينا النأيُ في الحرب والقرب

* الابيات في الاغاني ٢٣ / ١٩٦ – ١٩٧ .

– ٢ –

جعل بشر بن مروان يرسل الى قيس اتقتلون انفسكم مع رجل ليس منكم انما هو من كندة فبلغ ذلك زفر بن الحارث فقال .

لَعَلّكَ يا بشرَ بنَ مروانَ لائمـي　　على حين أبدَتْ عن نواجذها الحربُ
فتُخبرَ قومي أنني لستُ منـهم　　وتزعُمُ أنّا مَعْشَر من بني وهب
أتجعلُ أجلافاً عليها عَبـاؤهـا　　ككندةَ تمشي في المطارف والعصبِ

* انساب الأشراف ٥ / ٣٠٣ . وفي البيت الاول اقواء .

– ٣ –

قال زُفر بن الحارث يهجو عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط وكان أشار على عبدالملك بقتل زفر :

١– تنبأت عمرو بن الوليد يسبّني　　عمرو استها للصالحين سبوبُ
٢– وكُلّ مُعيطيّ إذا بات ليلةً　　الى شُربة بالرّقمتين طـروبُ
٣– عليك بحزّارين ناسبْ . تبيطها　　فما لك في أهل الحجـاز نصيبُ

* الابيات في بلدان ياقوت ٢ / ٣٥٥ .

— ٤ —

وقال زفر . .

ألا يا عين جودي بانسكاب ... وبكّي عاصماً وابنَ الحُباب
فإن تلكُ تغلبٌ قتلت عُميراً ... ورهطاً من غنيّ في الحراب
فقد افنى بني جُشمَ بنِ بكرٍ ... ونَمْرَهُمُ فوارسُ من كلاب
قتلنا منهمُ مائتين صبراً ... وما عدلوا عُميرَ بنَ الحباب
فقتلانا نَعُدُّهُمُ كراماً ... وقتلاهُم تُعدُّ من الكلاب

الابيات ١ – ٥ في انساب الأشراف ٥ / ٣٢٧ .
والابيات ١ – ٤ في الكامل في التاريخ ٤ / ٣١٨ .

— ٥ —

وقال بشر بن مروان لزُفر بن الحارث الكلابي

ما رأيت غلاماً قطّ يحُوطُ من ليس منه ويضع من هو منه إلا انت فإنك رجل من كندة فقال زُفر . (١)

فنحنُ بنُو وهبٍ كما قد زعمتُمُ ... بَرِئْنَا اليكُمْ من كلابٍ ومن كعب
أنَجْعَلُ أحْلافاً عليها عَيَاؤها ... ككنِدةَ تَردَى في المطارف والعصب
أولئك أهلُ المجدِ إن كنتَ منهُم ... وفي هؤلا من سُوقةٍ شَرفٌ حسبي

أنساب الأشراف ٥/ ٣٢٧ .
المتع في علم الشعر / ٢٤٨ عبدالكريم النشهلي

(١) ويبدو ان هذه القطعة بقية من القطعة الثانية لاسباب كثيرة يدل عليها سياق القطعة والغرض والمعاني التي يطرقها والأسماء التي تتردد فيها .

— ٦ —

ألا يا كلبُ غيرُك أوجعوني ... وقد ألصقْتُ خدّك بالتراب
ألا يا كلبُ فانتشري ونامي ... فقد أوْدَى عُمَيرُ بني الحباب

انساب الأشراف ٥ / ٣٢٥ .

- ٧ -

وقال زُفر بن الحارث الكلابي :

١- ألا لا أُبالي مَنْ أتاهُ حِمامُهُ ... إذا ما المَنايا عَنْ هُذيلٍ تَجلّتِ

٢- يكونُ إمامَ الخَيلِ أوّلَ فارسٍ ... ويَضرِبُ في أعجازِها إنْ تَولّتِ

البيتان في الحماسة الشجرية ١/ ٣٦١ .
نسب البيتان في الاشباه والنظائر ١/١٠٠ - ١٠١ للشمردل اليربوعي
ورواية الاول . . عن بجير . .
وهما في الكامل في التاريخ ٤ / ٣٣٨ .

- ٨ -

قال زفر بن الحارث يحرض ابن الزبير على ابي حمل احد بني حصين

ألا أبلغ ابا حَمَل رسولاً ... فقد أهديتَ فُطْرك من بعيد

فأنت المرءُ يُعطى كُلّ خيرٍ ... ويُحبى بالولائد والعبيد

انساب الأشراف ٥ / ١٩٨ / ١٩٩ .

- ٩ -

وقال زُفَر بن الحارث العامري :

١- يا قيسَ عَيْلانَ قيسَ الذُّل إنّكُمُ ... في الحرب سِيّانِ انتُمْ والعصافيرُ

٢- هَلاّ ثأرتُمْ وأنتم مَعْشَرٌ أُنُفُ ... قَتْلَى بتَدْمُرَ جافَتْها الخنازيرُ

٣- لا تَقْرَبُنّ رُمَيْلَ الهيل ما صدحَتْ ... حَمامةٌ إنّكُمُ قَوْمٌ عَواويرُ

٤- لا ينفلت مَطَرٌ منكمُ بوتركُمُ ... فَعَجّلُوا الثأرَ إلا إنّكُمْ خُورُ

الابيات (١-٤) في حماسة البحتري / ٣٠ .

- ١٠ -

لما مات مروان بن الحكَم وولي ابنُه عبدُالملك كتب إلى أبان بن عُقْبَة ابن أبي مُعَيط وهو على حِمْص يأمره أن يسير إلى زُفَر ، فسار إليه وعلى مقدّمته عبدُالله بن زميت الطائيُّ ، فواقع عبدالله زُفَرَ قبل وصول أبان وكثر في أصحابه القتل ، قُتل منهم ثلاثمائة ، فلامه أبان على عجلته ، وأقبل أبان فواقع زُفَر ، فقتل ابنه وكيع بن زُفَر ، وأدركت طيّء ثَقَل زفر ونساءه ، فاستوهب محمدّ بن حُصين بن نُمَير النساء وألحقهنّ بزُفر بقرقيسيا ، فقال زفر :

عَلِقْنَ بحبلٍ من حُصَينٍ لوَاتهُ ... تغيّب حـالتْ دونَهنّ المصائرُ
أبوُكم أبونا في القَديم ِ وإنّـني ... لغابركم في آخرِ الدّهرِ شـاكرُ

البيتان في انساب الأشراف ٥ / ٣٠٨ .
والكامل في التاريخ ٤ / ٣٣٧ .

- ١١ -

قال زفر بن الحارث يذكر حسان بن بحدل وكان حسان يرمي قرقيسيا بالمجانيق . .

لقد تركتني منجنيقُ ابنِ بحدل ... أخاف من العصفور حين يطيـر
مُلحّاً عليّ بالحجارةِ دائبـاً ... لاني وقـورٌ والكـريم وقورُ

الاول في انساب الأشراف قال . قال زفر أو غيره وروايته أحيد عن العصفور .

- ١٢ -

وقال زفر يمدح رجلاً من بني تغلب يقال له جدار بن عبّاد وقد تحصّن في بعض مدن الجزيرة وكان ابن زياد على محاربته وحصاره بعد الفراغ من امر زفر .

تمسّك ويحَ أمّكَ يـا جِـدارُ ... أتاك الغوثُ وانقطـع الحصار

انساب الأشراف ٥ / ٢٩٩ .

– ١٣ –

قال زفر بن الحارث بن معان بن يزيد الكلابي يوم مرج راهط .

١– وكُنّا حَسِبْنا كُلَّ بيضاءَ شَحْمَةً
لَيـاليَ قارَعْنا جُـذامَ وحِمْيَـرا

٢– فلما قَرَعْنـا النَّبْعَ بالنبعِ بعضَـهُ
ببعضٍ أبَتْ عِيدانُهُ أن تَكَسَّـرا

٣– ولمّا لَقينا عُصْبَةً تَغْلبيّـةً
يَقُودُونَ جُرْداً للمنيّـةِ ضُمَّـرا

٤– سَقَيْناهُمُ كأساً سَقَونـا بمثلهـا
ولكنّهُم كانوا على المـوت أصْبَـرا

الابيات في حماسة ابي تمام شرح المرزوقي ١٥٥/١ – ١٥٦ وهي في الحماسة البصرية ٥٢/١ ورواية الاول .. ليالي لاقينا ...
وشرح شواهد المغني / ٩٣٠ ورواية الاول .. ليالي لاقينا ..
والثالث : ولما التقينا ...
وتغلبية : بنو تغلب وقوله اصبرا : اي اصبر منا ، شهد لاعدائه ايضاً بالغلبة . وعدا الثالث . في التذكرة السعدية ٥٤/١ – ٥٥ .
والابيات [١ – ٤] منسوبة الى عمير بن الحباب ورواية الاول في انساب الاشراف ٣٢٥/٥ .
• ... تمرةً ليالي لاقينا جذاماً وخميرا ..
والثاني ابت عيداننا انتكسرا
والثالث وانا لقينا من ربيعة معشراً يقودون خيلاً ...
والرابع .. على انهم كانوا ...

— ١٤ —

وقال زفر

قتلنــا من بني جُشم جُمــوعاً فما عَدَلتْ جموعهم عُمــيرا (١)

البيت في انساب الأشراف ٥ / ٣٢٧

(١) هو عمير بن الحباب .

— ١٥ —

وعندما وقعت الحرب بين تغلب وقيس ذَمّ زفر بن الحارث عُمير بن الحباب ابن جعدة السُلَمي وقال له .

١– الاَ مَنْ مُبلغٌ عني عُمَيراً مقالَةَ عــاتبٍ وعليك زاري

٢– أتترُكُ حَيَّ ذي كَلَعٍ وكلبٍ وتكسِرُ حَدَّ نابك في نــزارِ

٣– كمجتنح على احدى يــديه فَخانتْهُ بِوَهْــنٍ وانكســارِ

٤– بتغلبَ تبتغي الأرباحَ جَهْلاً وقَبْلَكَ أفسَــدُوا ربْحَ التجار

الابيات في نقائض جرير والاخطل / ٢٧

والابيات (١–٣) في انساب الأشراف ٥ / ٣٢٠ ورواية الاول . . رسالة ناصح وعليه زار

والثاني . . اتترك حي ذي يمن وكلباً وتجعل . .

والثالث كمعتمد . .

وهي في الأغاني ٢٣/ ٢٠٣ – ٢٠٤ ورواية الاول . . رسالة عاتب

والثاني . . . وتجعل حد نابك . . .

والثالث كمعتمد فخانته بوهن ..

وهي في الكامل في التاريخ ٤ / ٣١٢

ورواية الاول رسالة ناصح وعليه

والثاني : اتترك حي ذي يمن وكلباً وتجعل حد نابك في نزار

والثالث : كمعتمد . . .. بوهن وانكسار

— ١٦ —

وقال زفر بن الحارث بن عبد عمر و بن معاذ بن يزيد بن عمرو بن الصَّعق ، ويزيد هو عمرو بن خويلد بن نُفيل بن عمرو بن كِلاب بن ربيعة يجيب عمرو بن مخلاة الكلبي يذكر وقعة المرج :

١- فخَرَتَ ابن مخلاةِ الحِمار بِمَشْهَدٍ
عَلاكَ به في المرج من لا تُدافِعُ

٢- عَلاكَ به قومٌ كأنكَ وسَطهم
إذا الحربُ شبَّتْ ثعلبٌ متظالع

٣- فإن نكُ نازَعنا قُريشاً فإنّهُمْ
أخونا ومولانا الذين نُنازِعُ

٤- فأيّ قَبيلَينا وأمّك ما يكُنْ
له المُلك تَتْبَعْهُ وخَدُّك ضارع

الابيات في نقائض جرير والاخطل / ١٩ .
والاول والثاني في انساب الأشراف ٥ / ١٤٨ ورواية الاول بالمرج من قد
والثاني كأنك بينهم ..

— ١١٧ —

وقال زفر بن الحارث :

يا كلبُ قد كَلِبَ الزمان عليكمُ ... واصابكم مني عذابٌ مُرسَلُ
أيهولنا يا كلبُ أصدق شِدّةٍ ... يوم اللقاء أم الهويلُ الأولُ
ان السماوة لا سماوةَ فالحقي ... بالغَوْر فالافحاص بئس المَوْئِلُ
فجنوبُ عكا فالسواحلُ إنها ... أرضُ تذوب بها اللقاحُ وتُهزَلُ
ارضُ المذلّة حيثُ عقّت أمُّكم ... وابوكم أو حيثُ مَرّعَ بحدل

الابيات في الأغاني ٢٣ / ١٩٣ دار الثقافة بيروت

- ١٨ -

وقال زُفَر بن الحارث :

١- أفي الله أمّا بَحْدلٌ وابنُ بَحْدلٍ
فيَحيا وأمّا أبنُ الزبير فيُقْتَلُ

٢- كَذَبتُمْ وبيت الله لا تَقْتُلونَهُ
ولمّا يكُنْ يومٌ أغرُّ مُحَجّـلُ

٣- ولما يكُن للمشرفيّـة فوْقكـم
شُعاعٌ كقَرن الشمس حين تَرَجّلُ

الابيات (١-٣) في حماسة ابي تمام ٢/ ٦٤٩ - ٦٥١ .
وفي تاريخ الطبري ٥ / ٥٤٣ .
والابيات في انساب الأشراف ٥ / ٣٠٢ ورواية الثالث .. للمشرفية فيكم

- ١٩ -

وكان ممن يتكلم في امر زفر عند عبدالملك خالد بن يزيد بن معاوية فقال زفَر :

أبا هاشمٍ لستَ الحليمَ فترُتجى
ولستَ أبيّاً صابراً حين تُجهـلُ

ستمنعني قيسُ من الضيم والقَنـا
وتمنعني بيضُ تُحَدُّ وتُصْقَـلُ

أبعدَ سعيدٍ يومَ قـام بخطبـةٍ
تزالُ بها عنكَ الخلافةُ تُجْـذلُ

انساب الأشراف ٥ / ٣٠٦ .

— ٢٠ —

ولما قتل عياش ابن الحرُّ قال زفر بن الحارث :

١– لما رأيتُ الناسَ أولاد علّـةٍ
وأغـــرق فينا نزْعَـــه كُلُّ قائل

٢– تكلّمَ عنّا مَشْيُنا بسـيُوفِنـا
الى الموتِ واستِنشاط حبْلِ المراكل

٣– فلو يَسألُ ابنُ الحرِّ أُخبرَ أنّهـا
يمانية لا تُشترى بالمَغَـازل

٤– وأُخبِرَ أنّا ذاتُ عِلـمٍ سيُوفُنـا
بأعناقِ ما بين الطُّلَى والكواهـلِ

الابيات (١–٤) في تاريخ الطبري ٦ / ١٣٧ .
والاول والثالث في انساب الأشراف ٥ / ٢٨٧ .

— ٢١ —

وقال زُفَر بن الحارث الكلابي ، سيِّد قيس عيلان غير مُدَافَع :

١– جزَيْناهُمْ بيومَ الشعـب يومـاً
رَكُودَ الشمس أغبرَ ذا ظِـلال

٢– ألومُ على القتالِ بني نُمَـير
وأحمـدُ في القتال بني هِـلال

٣– هُمُ حَامَوْا عن الأحساب لمّـا
رَأَوْا شَهْباءَ مَائِلةَ الهِـلال

٤– رِمَاحُهُمُ يَرِدْنَ على ثَمـانٍ
وعَشْرٍ قبلَ تركيبِ النّصَـال

الابيات في كتاب الوحشيات / ١٠٤ .

ـ ٢٢ ـ

تؤكد كثير من الأخبار ان زفر بن الحارث كان موئل الذين يجدون أنفسهم بحاجة الى من يستنجدون به .

فعندما قتلت تغلب عُمير بن الحُبَاب وقومه ، أتى تميم بن الحُباب ابا الهُذيل زفر بن الحارث يستنجده على الطلب بثأر أخيه ، فغزوا تغلب فأدركوهم بالكُحَيل ، وهو نهر اسفَل من الموصل على عشرة فراسخ فيما بينها وبين الجنوب ، فقتلوا بني تغلب أذرعَ قتل ، ومن غــرق منهم اكثر مُمن قُتل . وقال زفر في ذلك . .

فلو نُبشَ المقابرُ عــن عُميرٍ فيُخْبَرَ عن بلاءِ أبي الهُذَيــل
غَدَاةَ يُقَارِع الأبطال حــتىً جرى منهم دماً مَرْجَ الكحيــل

معجم ماالستعجم / ٣٣٨

ـ ٢٣ ـ

غزا زفر تدمر وعليها عامر بن الاسود الكلبي من بني عامر . ومعه ابنه الهذيل ابن زفر فقتلهم جميعاً ففي ذلك يقول زفر .

يا كلبُ قد كلِبَ الزمان عليكم وأصابَكُم منّي عذابُ تَنَزُّلِ
إن السماوةَ لا سماوةَ فالحقوا بمنابت الزيتون وابني بحــدل

انساب الأشراف ٥ / ٣٠٨ .

ـ ٢٤ ـ

وقال زفر بن الحارث . وذكر ابو عبيدة انها لعقيل بن عُلّفة :

أقرّ العيون أن رهط ابن بحــدلٍ أُذيقوا هواناً بالذي كان قُدّمــا
صبحناهُم البيضَ الرقاق ظباتُها بجانبِ خَبْتٍ والوشيجَ المقوّمــا

– ٢٥ –

وجَرْداء ملّتها الغزاةُ فكلّــها ترى قَلَقاً تحت الـرحالة أهضما
بكُلِّ فتى لم تأبُرِ النخلَ أمُّــه ولم يُدع يومــاً للغرائر مِعكما(١)

الابيات في الأغاني ٢٣ / ١٩٨
(١) : المكم : المكتنز اللحم .

وقال زفر لخالد بن يزيد بن معــاوية وهو يلح عليهم بالقتال والـرمي :

ابو هاشمٍ عَطّارةٌ فارسـيّةٌ مُكَحّلةٌ العينينَ برّاقةُ الفــم
ابو هاشمٍ يَرمي فوارسَ قومــه وأمّا العَدوَّ الابعَدين فما يرمي

انساب الأشراف ٥ / ٣٠٢ .

– ٢٦ –

وقال زفر بن الحارث :

١– أريني سلاحي لا أبالكِ إنني أرى الحربَ لا تزدادُ إلاّ تمادِيا
٢– أتانيَ عَنْ مروان بالغَيب أنّه مقيدٌ دَمي أو قاطعٌ من لسانيا

الابيات (١ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢) في بلدان ياقوت راهط ورواية السادس . وتذهب .
ورواية العاشر عشية أجري بالقرينين لأرى .
والابيات (١ ، ٥ ، ١١) مع اختلاف في الترتيب في المؤتلف والمختلف (١٨٩ ورواية الاول . . ابيتي سلاحي . .
والاول والخامس في المؤتلف ٩٩١ ورواية الاول . .. ابيني سلاحي .
والابيات (٩ ، ١٠ ، ١١) مع اختلاف في الترتيب في المحبر / ٤٩٥ .
ورواية التاسع . . ولم تبل مني . . فراري قتلي
والعاشر . . عشية أجرى بالقري ولا أرى به أحد الا علي ولاليا
والحادي عشر .. يوم واحد ان فررته . .
والسابع في حيوان الجاحظ ٣ / ٤٢٢ وروايته . . .. لمروان صدعاً
والابيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، والبيت .
والابيات (١ ، ٥ – ١١) في مروج الذهب ٣ / ٨٧ – ٨٨ مع اختلاف في الترتيب وبعض المفردات .

فيا راكباً إما عرضت فبلغــن كلاباً وحياً من عقيل مــقاليا =

٣– ففي العيس مَنْجاةٌ وفي الأرض مَهْرَبٌ
إذا نحنُ رفَّعْنا لَهُنَّ المثَانيَــــا (١)

٤– فلا تَحْسِبوني إنْ تَغَيَّبْتُ غــافِـلاً
ولا تفرَحوا إنْ جئتُكمْ بلقــائيـــا

٥– فَقَدْ يَنبُتُ المَرْعى على دَمِنِ الثّرى
وتَبْقَى حزازات النُّفوس كما هيا (٢)

٦– أتذْهَبُ كَلْبُ لم تَنَلْها رِماحُنا
وتُتْركُ قَتلَى راهطٍ وهــيَ ما هِيــا !

٧– لَعمري لقد أبْقَتْ وقيعــةُ راهــط
لَحِسّان صَدْعاً بَيّنــا متنائيــا (٣)

= والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر في نقائض جرير والاخطل/ ٢٤ ورواية السابع . . . لمروان صدعاً .
والثامن أبعد بن معن وابن ثور تتابعا ..
والتاسع .. ولم تر مني نبوة غير هذه
والعاشر .. عشية أجري بالصعيد من القوم الا
والابيات الاول والثاني والثالث والسادس والحادي عشر والثاني عشر في كتاب الفتوح لابن اكثم ٦ / ٢٦١ وفي رواية الابيات اختلاف .
والابيات ١ – ٦ والتاسع في انساب الأشراف ٥ / ١٤١ – ١٤٢ مع اختلاف في بعض الروايات والسابع ورد مصحفا في ٥ / ١٥٧ وروايته .. بيناً متبايناً
الابيات (١–١٣) في تاريخ الطبري ٥ / ٥٤١ – ٥٤٢ والكامل في التاريخ ٤ / ١٥٢
والابيات (١–٦) في أنساب الأشراف ٥/ ١٤١ – ١٤٢ مع اختلاف في بعض الروايات مع تصحيف في الخزانة ٣٩٤/١ ورواية الخامس والسادس .
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى له ورق من تحته الشر باديا
ويمضي ولا يبقى على الأرض دمنة وتبقى حزازات النفوس كما هيا
والابيات (١ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) في الوحشيات / ٥٠ – ٥١ مع اختلاف في ترتيب الابيات ورواية الاول . . أبيني سلامي
ورواية الرابع . . ولا تحسبوا إن جئتكم . ورواية الخامس وقد ينبت
ورواية السابع . . لمروان .. =

٨– أبعْدَ ابن عمرو ٍ وابن معن ٍ تتابعا
ومقْتَل ِ هَمّـَام ٍ أُمَنّي الأمـانيَـا

٩– فلم تَرَ مِنّي نبْوةٌ قبْلَ هـذه
فِراري وتركي صاحبيَّ ورائيـا

١٠– عَشيّة أعدو بالقِران ِ فـلا أرى
مِن الناس ِ إلا مَنْ عَلَيَّ ولا ليـا

١١– أيَذهَبُ يومٌ واحدٌ إن أسَأتُهُ
بصالح أيامي وحُسْن ِ بَـلائيا

١٢– فلا صُلْحَ حتى تَنْحِطَ الخيلُ بالقنـا
وتثأرَ مِنْ نِسوَان كلْب نسـائيا

١٣– ألا ليتَ شعري هل تُصيبنَّ غارتي
تَنَوخاً وحييْ طَيَّءٍ مـن شِفائيـا

= ورواية العاشر . . عشية أجري في القرين

(١) المثاني : الازمة ويروى المتاليا والمتالي التي تتلوها أولادها

(٢) إذا نبت المرعى على الدمن كان خبيثاً حسن المنظر وباطنه دوي . يقول فنحن وانتم كذاك نظهر الصلح وقلوبنا تجن غيره .

(٣) يروى متثانيا من الثاني وهو الفساد ويروى متشائيا متفرقاً بعيداً .
في شرح حماسة أبي تمام ٦٤٩/٢٢ دراسة عن اسباب الاختلاف يرجع اليها في الدراسة .
الخزانة ٣٩٣/١ .
وإلى تاريخ ابن عساكر ، وشرح شواهد المغني / ٩٣١ .

من امتداد اللهجات العربية القديمة في بعض اللهجات المعاصرة

الدكتور رمضان عبد التواب
أستاذ العلوم اللغوية ووكيل كلية الآداب
جامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

في ظن كثير من الناس أن اللهجات الحية المعاصرة ، في البلاد العربية المختلفة ، ليست إلا انحطاطا من العربية الفصحى . وليس هذا الظن إلا وليداً لاعتقادهم بأن العربية الفصحى كانت هي اللغة الوحيدة السائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وأنها فسدت باختلاطها باللغات المجاورة عقب الفتوحات الإسلامية .

غير أن ذلك الظن ليس إلا سراباً خدّاعاً ، فقد رُوي لنا الكثير والكثير جداً عن تعدّد اللهجات العربية القديمة ، بتعدد القبائل المختلفة . وهذا يتفق مع ما ينادي به بعض المحدثين من علماء اللغة من أنه يستحيل على أية مجموعة بشرية ، تشغل مساحة شاسعة من الأرض ، أن تحتفظ في لهجات الخطاب بلغة موحّدة .

نعم .. فقد كانت الجزيرة العربية قبل الإسلام تموج بشتى اللهجات المتباينة ، التي يخالف بعضها بعضاً في شيء من الصوت ، أو البنية ، أو الدلالة ، أو التركيب .. ولكن اللغويين العرب ، لم يصفوا لنا تلك اللهجات العربية القديمة وصفاً دقيقاً كاملاً في كثير من الأحيان ، وذلك لانشغالهم في المقام الأول بالعربية الفصحى ، تلك اللغة الأدبية المشتركة بين مجموع القبائل العربية والتي كانوا يستخدمونها في مواقف الجدّ من القول ، وينظمون بها أشعارهم ،

ويصبّون فيها حكَمهم وأمثالهم ، ثم شرفها الله تعالى ، فأنزل كتابه الكريم ، بأعلى ما تصبو إليه هذه اللغة من فصاحة وبلاغة .

ومنذ ذلك الحين ، ارتبطت هذه اللغة بالقرآن الكريم ، واجتهد النحاة واللغويون في دراستها ، وتحديد معالمها ، من نواحي الأصوات والصيغ والأبنية والدلالة ، وتركيب الجملة ، ووظيفة الكلمة في داخل هذه الجملة .

ومع أن الهدف الأساسيّ عند هؤلاء اللغويين كان هو محاولة رسم معالم اللغة الأدبية ، لغة القرآن الكريم والشعر والخطابة ، وغير ذلك من الفنون الأدبية ، وهي تلك اللغة التي اصطلحنا على تسميتها بالفصحى فإننا نراهم يروون لنا في بعض الأحيان مقتطفات متبورةً عن تلك اللهجات العربية القديمة ، معزوّةً إلى أصحابها حيناً ، وغيرَ معزوّة حيناً آخر ، ومختلطةً بالفصحى كذلك في بعض الأحيان .

وتمتلىء المصادر العربية القديمة بالحديث عن كثير من خصائص هذه اللهجات القديمة ، كفحفحة هُذَيْل ، وعنعنة تَميم ، وتَلْتَلة بَهْراء ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هَوازن ، وقُطْعة طَيِّئ ، وعجعجة قُضاعة ، وغير ذلك من الظواهر اللهجية ، الملقّبة بألقاب مختلفة عند اللغويين العرب ، كما حدثونا عن شيء كثير من الظواهر التي لم يلقبوها لهذه القبيلة أو تلك .

وإن من يتأمل هذا الذي رُوي لنا عن اللهجات القديمة في بطون المصادر العربية ، يخرج بنتيجة صريحة واضحة ، وهي أن ما نراه الآن في بعض لهجاتنا الحية المعاصرة ليس في بعض ظواهره إلا امتداداً لهذا الذي رُوي لنا في القديم . وفيما يلي نضرب بعض الأمثلة على ذلك :

★ ★ ★

نحن نعرف أن العربية الفصحى تفتح حرف المضارعة في الثلاثي ، في نحو : يكتب ، ويفتح ، ويضرب ، ويقول ، ويبيع ، ويرمي ، ويروي ،

وغير ذلك ، على حين نرى كثيراً من اللهجات الحية المعاصرة في البلاد العربية المختلفة ، تكسر حرف المضارعة في هذه الأمثلة وأشباهها . وهذا عينه هو ما رواه لنا أكثر القدماء (١) عن قبيلة « بهراء » ، وتعرف هذه الظاهرة عند هؤلاء القدماء « بتلتلة بهراء » . وعزاها صاحب لسان العرب إلى كثير من القبائل العربية ، فقال : « وتِعْلَم ، بالكسر : لغة قيس ، وتميم ، وأسد ، وربيعة ، وعامّة العرب . وأما أهلُ الحِجاز ، وقوم من أعجاز هوازن ، وأزْد السَّراة ، وبعض هُذَيْل ، فيقولون : تَعْلَم ، والقرآن عليها . وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب لم يقل إلاّ تِعلم بالكسر » (٢) . ويقول الفرّاء : إن « النون في (نستعين) مفتوحة في لغة قريش ، وأسدٌ وغيرُهم يكسرها »(٣).

وقد جاءت هذه الظاهرة في رجز لحكيم بن مُعَيّةَ الرَّبَعي ، وهو :

لو قلت ما في قومها لم تِيثَم   يفضُلُها في حَسَبٍ ومِيسَمٍ (٤)

أي : « لم تَأْثَمْ » ، التي صارت بعد كسر حرف المضارعة : « تِئْثَم » ، وخُفِّفت الهمزة فصارت : « تِيثَم » كما في البيت .

وقد روى ابن جنّي بيتاً عن أعرابيّ من بني عُقَيل ، كَسَر فيه الهمزة الهمزة في الفعل : (أخاف) ، فقال : « وأنشدني عُقَيليّ فصيح لنفسه :

فقومي هُمْ تميمٌ يا مُمارِي   وجوثة ما إِخافَ لهم كِثارا

فكسر الهمزة من : إِخاف (٥) .

---

(١) مجالس ثعلب (٨١/١) ، وعنه في الخصائص ١١/٢ ، وسر صناعة الإعراب ٢٣٥/١ ، ودرة الغواص ١١٤ ، وخزانة الأدب ٥٩٦/٤ .

(٢) لسان العرب (وقى) ٢٨٣/٢٠ .

(٣) الصاحبي لابن فارس (نشرة الشويمي) ٤٨ ، وفيه : « في لغة قيس » ، وهو تحريف . والصواب مافي نشرة السيد صقر ٢٨ ، والمزهر ٢٥٥/١ ، عن ابن فارس . وقد وقع « رابين » (Ancient, p. 61) في وهم آخر ، حين عطف « أسداً » على « قريش » في هذا النص!

(٤) خزانة الأدب ٣١١/٢ ، وتهذيب الألفاظ ٢٠٧ .

(٥) المنصف ٣٢٢/١ .

كما روى ابن الأنباري بيتاً للمرّار الفقعسي ، كسر فيه التاء من : « تَعلم » في قوله :

قد تِعلَم الخيلُ أياماً تُطاعِنُها من أي شِنْشِنةٍ أنت أبْنَ مَنْظُورِ

وقال بعده : « قال أبو بكر : قال أبي : أنشدَنيه أبو جعفر : قد تِعلَم ، بكسر التاء ، وقال : هي لغة بني أسد ؛ يقولون : تِعلم ، وإِعلم ، ونِعلم . ومثله كثير » (٦) .

وقد قرئ بهذه اللغة ، في بعض القراءات الشاذة ؛ فقد رُوي عن يحيى ابن وثّاب ، والأعمش ، وطلحة بن مصرّف ، وحمزة بن حبيب الزّيّات ، أنهم قرؤوا قوله تعالى : « ولا تِرْكَنُوا إلى الّذين ظَلَمُوا فتِمَسَّكُمُ النّارُ » (هود ١١ — ١١٣) بكسر التاء في الفعلين . وقال ابن جنّي في التعليق على هذه القراءة : « هذه لغة تميم ، أن تكسِرَ أوّلَ مضارعِ ما ثاني ماضيه مكسور ، نحو : عَلِمت تِعلَم ، وأنا إِعلم ، وهي تِعلم ، ونحن نِركب . وتقلّ في اليــاء : يِعلم ، ويركب ؛ استــثقالاً للكسرة في اليــاء ، وكذلك ما في أول ماضيه همزة وصل مكسورة ، نحو : تِنْطلق ، ويوم تِسْوَدُّ وجوهٌ وتِبْيَضّ وجوه » (٧) .

وهذه الظاهرة — ظاهرة كسر حرف المضارعة — ساميّة قديمة ، توجد في العِبرية (٨) والسّريانية (٩) والحبشية (١٠) . والفتح في أحرف المضارعة حادث في رأيي ، في العربية القديمة ؛ بدليل عدم وجوده في اللغات الساميّة الأخرى ، وبدليل ما بقي من الكسر في كثير من اللهجات العربية القديمة .

(٦) المفضليات بشرح ابن الأنباري ٢٠ .

(٧) المحتسب لابن جني ٣٣٠/١ .

(٨) أنظر : Gesenius, Hebrüische Grammatik, S. 133

(٩) أنظر : Brackelmann, Syrische Grammatik, S. 85

(١٠) أنظر : Praetorius, Aethiopische Grammatik, S. 48

وهناك دليل ثالث على أصالة الكسر في حروف المضارعة ، في اللغات السامية ، وهو استمراره حتى الآن في اللهجات العربية الحديثة كلها ؛ إذ نقول مثلاً : « مين يقرا ومين يِسْمَع ؟ » ، بكسر حرف المضارعة ، في لغة التخاطب اليومية . ولم يبق فتح حرف المضارعة في اللهجات الحديثة — فيما أعلم — إلا في لهجة نجد ، إذا كانت فاء المضارع ساكنة ، مثل : يَرْمي ويَلْعب ، ويَرْكض . ولا يكسر حرف المضارعة في هذه اللهجة ، إلا إذا كان ما بعده متحركاً ، مثل : يِسُوق ، ويِنُوم (مضارع نام) ، ويِسابق ، ويِلاكم ، ويِهاوش ، وغير ذلك .

وقد بقيت بعض آثار هذا القديم في العربية الفصحى نفسها ، في بعض الأمثلة ؛ إذ يُكسر في الفصحى حرفُ المضارعة ، في : « إخال » بمعنى : « ظن » في كثير من النصوص التي وصلت إلينا . ومن شواهده قولُ أبي ذُؤيْب :

فغَبَرْتُ بعدهُمُ بعيشٍ ناصبٍ وإخال أنِّي لاحقٌ مُستتبَعُ (١١)

وقولُ العباس بن مرداس :

قد كان قومك يحسبونك سيِّداً وإخالُ أنَّك سيِّدٌ معيون (١٢)

وقولُ زهير بن أبي سُلْمَى :

وما أدري وسوف إخال أدري أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ ؟

وقولُ كعب بن زهير :

أرجو وآمُلُ أن تدنو مودَّتُها وما إخالُ لَدَيْنَا منك تنويلُ (١٤)

(١١) ديوان الهذليين ٨/١ ، والمنصف لابن جني ٣٢٢/١ .

(١٢) ديوانه ق ٢/٣٨ ص ١٠٨ ، ولسان العرب (عين) ١٧ / ١٨٦ .

(١٣) ديوانه ص ٧٣ ولسان العرب (قوم) ١٥ / ٤٠٨ .

(١٤) ديوانه ص ٩ .

وهذا ما أسميه أنا: « الركام اللغوي للظواهر المندثرة في اللغة » (١٥)، ومعناه أن الظاهرة اللغوية ، قبل أن تموت ، قد تبقى منها أمثلة ، تعين على معرفة الأصل .

★ ★ ★

ومن الأمثلة التي تؤيد مانذهب إليه ، من أن اللهجات المعاصرة ليست إلا امتداداً لشيء من اللهجات العربية القديمة أيضاً ، مايشيع في بعض اللهجات العربية الحديثة ، في مصر وغيرها ، من استعمال اسم المفعول من الفعل الأجوف اليائي على التمام ، أي على وزن مفعول ، دون إعلال يطرأ عليه ؛ فيقول الناس في مصر مثلا : فلان مديون ، أي : عليه دين ، ومريوح ، أي ضعيف لايقدر على حمل الأثقال ، ومطيور ، أي : متسرّع في عمله ، ومخيول ، أي : منشغل بما في خياله من أوهام . كما يقال في بعض البلاد العربية عن الثوب إنه مخيوط ، وعن فلان من الناس : إنه مهيوب ، وعن الشيء : إنه معيوب ومبيوع ، وعن الحَبِّ إنه مكيول .. وغير ذلك .

والعربية الفصحى تُعِلُّ هذه الأسماء وما يشبهها بما يسمى الإعلال بالنقل ؛ فتقول مثلاً : مَدين ومَخيط ، ومَعيب ، ومَكيل ، ومَبيع.. وغير ذلك .

غير أن هذا الذي قد شاع في اللهجات العامية المعاصرة ، ليس إلا لهجةً لقبيلة تميم (١٦) من القبائل العربية القديمة . قال عبدالقادر البغداديّ في التعليق على قول العباس بن مرداس السُّلَمي :

قد كان قومك يحسبونك سيداً وإخال أنّك سيّد مغيونُ :

« قوله : مغيون ، جاء على لغة تميم . ولغةُ غيرهم : مَغين ... ومغيون بالغين

---

(١٥) راجع مقالتنا : « الركام اللغوي للظواهر المندثرة في اللغة » بالمجلة العربية ١/٢ ص ٥٥ – ٦٠ ، وكتابنا : « لحن العامة والتطور اللغوي » ٣٧٦ .

(١٦) انظر : شرح الشافية ١٤٩/٣ .

المعجمة – اسمُ مفعول ، من قولهم : غِينَ على قلبه ، أي غُطِّي عليه . وفي الحديث : وإنّه لَيُغَانُ على قلبي . ولكن الناس ينشدونه بالباء ، وهو تصحيف . وقد رُوي بالعين غير المعجمة ، أي : مصابٌ بالعين . والأول هو الوجه . وكلاهما مما جاء فيه التصحيح . وإن كان الاعتلال فيه أكثر ، لقولهم : طعام مزيوت ، وبُرٌّ مكيول ، وثوب مخيوط . والقياس : مَغين ، ومَزِيت ، ومَكِيل ، ومَخِيط » (١٧) .

وقد اشار سيبويه إلى هذه اللغة ، وإن لم ينسبها إلى تميم ، فقال : « وبعض العرب يُخْرِجُه على الأصل ؛ فيقول : مخيوط ومبيوع (١٨) . وكثير من هذه الكلمات السابقة ، تذكر في بعض المعاجم العربية ، بالتصحيح والإعلال ، جنباً إلى جنب ، دون نسبة إلى قبيلة معينة (١٩) .

★ ★ ★

ومن الأمثلة على موضوعنا كذلك : ماشاع على ألسنة الناس من قولهم في لهجات الخطاب : « ظلموني الناس » و « لاموني العواذل » و « زارونا الجيران » و « تنزُّ صاحبي لحدّ مارجْعُوا العيال من برَّه » ، أي بإلحاق الفعل علامة جمع وهو متقدم على الفاعل المجموع .

ومن المعروف في العربية الفصحى أن الفعل يجب إفراده دائماً ، حتى وإن كان فاعله مثنى أو مجموعاً ، أي أنه لاتتصل به علامة تثنية ولا علامة جمع ، للدلالة على تثنية الفاعل أو جمعه ، فيقال مثلاً : « قام الرجل » و « قام الرجلان » و « قام الرجال » . بإفراد الفعل : « قام » دائماً ؛ إذْ لايقال في الفصحى مثلا : « قاما الرجلان » ، ولا « قاموا الرجال » .

---

(١٧) شرح شواهد الشافية ٤/ ٣٨٨ – ٣٨٩ .

(١٨) كتاب سيبويه ٣٦٣/٢ .

(١٩) انظر مثلا : الصحاح (عيب) ١٩٠/١ (خيط) ١١٢٦/٣ (بيع) ١١٨٩/٣ (خيل) ١٦٩١/٤ (كيل) ١٨١٤/٥ (دين) ٢١١٧/٥ (عين) ٢١٧١/٦ .

وعلى هذا النحو ، جاءت جمهرة الجمل الفعلية في القرآن الكريم ؛ يقول الله تعالى مثلاً : « وكأيِّنْ من نبيّ قاتل معه ربِّيُّون كثير» (آل عمران ٣ – ١٤٦) ولم يقل : قاتلوا معه . كما قال جلّ شأنه : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا » (آل عمران ٣ – ١٢٢) ، ولم يقل : همّتا طائفتان .

تلك هي القاعدة المطردة في العربية الفصحى ، شعراً ونثراً . أما قبيلة طيء القديمة ، فقد رُوي لنا عنها (٢٠) أنها كانت تلحق الفعل علامة تثنية للفاعل المثنى ، وعلامة جمع للفاعل المجموع . وقد حُكيت لنا هذه اللغة كذلك ، عن قبيلة « بلحارث بن كعب » (٢١) ، وقبيلة « أزْد شَنُوءَة » (٢٢) ، وهما من القبائل اليمنية ، التي تمتّ لأصل قبيلة طيء بصلة (٢٣) .

وتُعرف هذه الظاهرة عند النحاة العرب بلغة : « أكلوني البراغيث » . وقد عُرفت عندهم بهذا الاسم ؛ لأن سيبويه هو أولُ من مثّل لها في كتابه ،واختارهذا المثال فقال:«في قول من قال:أكلوني البراغيث » (٢٤) ، كما قال في موضع آخر : « ومن قال : أكلوني البراغيث ، قلت على حدّ قوله : مررت برجل أعورين أبواه » (٢٥) . وإن كان قد ضرب لهذه الظاهرة أمثلة أخرى في كتابه ؛ فقال : « واعلم أن من العرب من يقول : ضربوني قومُك ، وضرباني أخواك ، فشبهوا هذه بالتاء ، التي يظهرونها في : قالت

(٢٠) انظر : الجنى الداني للمرادي ١٧١ ، وشرح درة الغواص للخفاجي ١٥٢ ، وبصائر ذوي التمييز ١٤٩/٥ ،وشرح التصريح ٢٧٥/١؛١١٠/٢ ،وهمع الهوامع ١٦٠/١ ، والقاموس المحيط (الواو) ٤١٣/٤ ، والنهاية لابن الأثير ٢٩٧/٣ ، والفائق للزمخشري ٧٤/٣ .

(٢١) أنظر : بصائر ذوي التمييز ١٤٩/٥ ، والقاموس المحيط (الواو) ٤ / ٤١٣ ، ومغني اللبيب ٣٦٥/٢ .

(٢٢) أنظر :بصائر ذوي التمييز١٤٩/٥ ،وشرح‌التصريح ٢٧٦/١ ،والقاموس المحيط(الواو) ٤١٣/٤ ، ومغني اللبيب ٣٦٥/٢ .

(٢٣) أنظر : الاشتقاق لابن دريد ٣٦١ . (٢٤) كتاب سيبويه ٥/١ .

(٢٥) كتاب سيبويه ٢٣٧/١ .

فلانة ، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة ، كما جعلوا للمؤنث علامة وهي قليلة » (٢٦) .

وتدل مقارنة اللغات السامية ، أخوات العربية ، وهي : العبرية والآرامية والحبشية والأكادية ، على أن الأصل في تلك اللغات أن يَلْحق الفعلَ علامةُ التثنية والجمع ، للفاعل المثنى والمجموع ، كما تلحقه علامة التأنيث ، عندما يكون الفاعل مؤنثاً ، سواء بسواء ففي اللغة العبرية مثلاً :

wayyamotu gam snehem mahlon w-kilyon

وترجمته الحرفية : « فماتا كلاهما محلون وكليون » (٢٧) . ومثل ذلك أيضاً فيها : Lo yakomu rsa im bammispat

وترجمته الحرفية : « لايقومون الأشرار بالعدل » (٢٨) .

ومثل ذلك في الآرامية ، في نحو : dalma ngurun hrane battak

وترجمته الحرفية : « لئلا يزنوا الآخرون بامرأتك » (٢٩) .

وكذلك الحال في الحبشية ، في نحو: wahoru ahzab ، وترجمته الحرفية : « فعادوا الشعوب »(٣٠). ومثل ذلك أيضاً : wabazhu welodomu وترجمته الحرفية : « وكثروا أطفالهم » (٣١) .

وقد تخلصت العربية الفصحى من هذه الظاهرة رويداً رويداً ، أخذاً بمبدأ الاستغناء عن بعض العلامات عند تكدسها ، للدلالة على الظاهرة الواحدة ؛ فان

(٢٦) كتاب سيبويه ٢٣٦/١ . (٢٧) سفر روث ٥/١ .

(٢٨) سفر المزامير ٥/١ ، وانظر أمثلة أخرى في سفر التكوين ١/٢ ؛ ٢/٦ ؛ ٢/٨ ، وسفر الأمثال ١٠/٥ ، وغير ذلك .

(٢٩) أحيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم ١/٣٣ ، وانظر أمثلة أخرى في إنجيل متى ١/٥ ، وإنجيل لوقا ٢٣/١ ، وغير ذلك .

(٣٠) انظر : F. Praetorius, Aethiopische Grammatik, Chrestomathia 41

(٣١) انظر : F. Praetorius, Aethiopische Grammatik, Chrestomathia 42

الذي كان يدلّ على التثنية هنا هو علامة التثنية في الفعل ، ووضع الفاعل في صيغة المثنى ؛ وكذلك كان يدل على الجمع علامته المتصلة بالفعل . ووضع الفاعل في صيغة الجمع .

وإذا استغنت اللغة عن العلامات المتصلة بالفعل ، لم تخسر الدلالة على التثنية والجمع ، لوجود مايدل عليهما في صيغة الفاعل نفسها ؛ ولذلك قال سيبويه : « وإنما قالت العرب : قال قومك . وقال أبواك ؛ لأنهم اكتفوا بما أظهروا ، عن أن يقولوا : قالا أبواك ، وقالوا قومك ، فحذفوا ذلك اكتفاء بما أظهروا » (٣٢) .

وإذا كانت العربية الفصحى ، قد تخلّصت رويداً رويداً من هذه الظاهرة ، فإن بقاياها ظلّت حيّة ، عند بعض القبائل العربية القديمة ، كقبيلة « طيّئ » و « بلحارث بن كعب » و « أزد شنوءة » كما ذكرنا من قبل .

وكذلك بقيت بعض آثارها في العربية الفصحى ، في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، واحتفظ بها الكثير من أبيات الشعر العربي القديم .

أما القرآن الكريم ، فقد ورد فيه قوله تعالى : « ثم عَمُوا وصَمُوا كثير منهم » (سورة المائدة ٥—٧١) ، وقولهُ عز وجل : « وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا » (سورة الأنبياء ٢١—٣) .

وقد أكثر النحويون والمفسرون وعلماء اللغة العرب القولّ في تخريج هاتين الآيتين الكريمتين : فقد قال الإمام القُرْطُبيّ في تفسير الآية الأولى مثلاً « ثم عَمُوا وصَمُوا كثيرٌ منهم » أي : عَمِيَ كثيرٌ منهم وصَمّ ، بعد تبيُّن الحقّ بمحمّد عليه الصلاة والسلام : فارتفع « كثير » على البدل من الواو ، كما تقول : رأيتُ قومَكَ ثلثيهم . وإن شئت كان على إضمار مبتدأ . أي : العُمْيُ والصُّمُّ كثير منهم . ويجوز أن يكون على لغةِ من قال : أكلوني البراغيث »(٣٣)

---

(٣٢) كتاب سيبويه ١/٢٣٤ . (٣٣) تفسير القرطبي ٦/ ٢٤٨ .

كما قال في الآية الثانية : « وأَسرُّوا النَّجوَى الذين ظَلَمُوا » أي : تناجوا فيما بينهم بالتكذيب ، ثم بيَّن مَنْ هم ، فقال : الذين ظلموا ، أي : الذين أشركوا ؛ فالذين ظلموا بدل من الواو في « أَسَرُّوا » ، وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم . قال المبرّد : وهو كقولك : إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبدالله ، فبنو بدل من الواو في انطلقوا . وقيل : هو رفع على الذمّ ، أي : هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول ، أي : يقول الذين ظلموا . وقول رابع : أن يكون منصوباً بمعنى : أعني الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكون خفضاً ، بمعنى : اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم ، فهذه خمسة أقوال وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكلوني البراغيث ، وهو حسَن . وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، ومجازه : والذين ظلموا أَسَرُّوا النجوى» (٣٤).

تلك هي آراء المفسرين والنحاة واللغويين العرب في هذه الظاهرة ، وهم مقلّبون لكل الأوجه الممكنة في العربية من التخريج والتأويل .

ومما جاء في الحديث الشريف ، قوله صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنّهار » (٣٥) بدلاً من : تتعاقب فيكم ملائكة ، وإن كان بعض العلماء يرى في هذا الحديث أنه مختصر من حديث طويل ، وأن الواو فيه ضمير ، يعود على اسم ظاهر متقدم ، وليس علامة جمع ، وأن أصل الحديث : «إنلله ملائكةً يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار »(٣٦) .

وقد وردت هذه الظاهرة في بعض أحاديث الصحابة والتابعين ، كمـــا في قول الحسن البصريّ ، يصف طالب العلم : « قد أوكدتاه يداه ، وأعمدتاه

(٣٤) تفسير القرطبي ١١/ ٢٦٨ ، وانظر : معاني القرآن للفراء ٣١٦/١ ، وشرح التصريح ١/ ٢٧٥ – ٢٧٧ .

(٣٥) انظر : مغني اللبيب ٣٦٥/٢ ، والقاموس المحيط (الواو) ٤١٣/٤ ، وبصائر ذوي التمييز ١٤٦/٥ .

(٣٦) أنظر : شرح الأشموني على الألفية ٤٨/٢ .

رجلاه » (٣٧) .

أما أبيات الشعر القديم ، التي وردت فيها هذه الظاهرة . فما أكثرها في دواوين الشعر العربي . ومن أمثلة ذلك قولُ عمرو بن مِلْقَط الطّائي ، وهو شاعر جاهليّ :

أُلْفِيَتَا عيناك عند القفا   أونى فأولى لك ذا واقية (٣٨)

بدلاً من : الفيت عيناك . ومثله قول أميّة بن ابي الصَّلْت :

يلومونني في اشتراء النّخيـ   ـلِ أهلي فكلُّهمُ يعذلُ (٣٩)

بدلاً من يلومني أهلي . وكذلك قول أبي عبدالرحمن العتبي :

رأين الغواني الشيبَ لاح بعارضي   فأعرضن عنّي بالخدود النّواضرِ (٤٠)

أي : رأت الغواني . كما يقول الفرزدق :

ولكن ديافيٌّ أبوه وأمّه   بحَوْرانَ يعصرن السّليطَ أقاربُهْ (٤١)

أي : يعصر أقاربه . ويقول عبيدُالله بن قيس الرُّقيّات :

تولّى قتال المارقين بنفسه   وقد أسلماه مبعدٌ وحميمُ (٤٢)

---

(٣٧) انظر : الفائق للزمخشري ٧٣/٣ . والنهاية لابن الأثير ٢٩٧/٣ ولسان العرب (عمد) ٢٩٦/٤ وانظر أحاديث أخرى في : إعراب الحديث للعكبري ٢٨ ؛ ٣٩ .

(٣٨) شرح شواهد المغني ١١٣ ، وأمالي ابن الشجري ١٣٢/١ ، وشرح ديوان أبي تمام ١٠/٣ .

(٣٩) ديوانه ص ١٦ ، والدرر اللوامع ١٤٢/١ ، وأمالي ابن الشجري ١٣٣/١ ، وشرح التصريح ٢٧٦/١ ، وهمع الهوامع ١٦٠/١ ، وإعراب الحديث للعكبري ٤٠ ، وفي شرح شواهد المغني ٢٦٥ : « عزاه السخاوي في المفصل إلى أحيحة بن الجلاح » .

(٤٠) العيني على هامش الخزانة ٤٧٣/٢ .

(٤١) ديوانه ص ٥٠ ، وكتاب سيبويه ٢٣٦/١ ، وأمالي ابن الشجري ١٣٣/١ ، وشرح ديوان أبي تمام ٢٢٤/١ ، وإعراب الحديث للعكبري ٢٩ ؛ ٤٠ ، وشرح ابن يعيش ٨٩/٣ ، وهمع الهوامع ١٦٠/١ .

(٤٢) ديوانه ق ١/٣٥ ص ١٩٦ ، وأمالي ابن الشجري ١٣١/١ ، وشرح التصريح ٢٧٧/١ ، وهمع الهوامع ١٦٠/١ .

أي : أسلمه مبعد وحميم . وكذلك يقول عُروة بن الوَرْد :

دعيني للغنى أسعى ، فإني رأيت النّاسِ شرُّهم الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونهم عليهم وإن كانا له نَسَبٌ وخيرُ (٤٣) .

أي : كان له نسب وخير . ومثله قول مجنون ليلى :

ولو احدقوا بي الإنس والجنّ كلهم لكي يمنعوني أن أجيك لَجيتُ (٤٤)

أي : ولو أحدق الإنس والجن . ومثله قول الشاعر :

نصروك قومي فاعتززت بنصرهم ولو انهم خذلوك كنت ذليلا (٤٥)

أي : نصرك قومي . ومثله أيضاً قول الآخر :

نُسيا حاتمٌ وأوس لَدُنْ فا ضت عطاياك يا ابنَ عبدِ العزيزِ (٤٦)

أي : نُسِيَ حاتم وأوس .

وغير ذلك كثير في الشعر العربي القديم . وقد استمرت هذه الظاهرة في أشعار المولدين من الطائيين وغيرهم ، فها هو ذا أبو تمام الطائي يمتلئُ ديوان شعره بالأبيات ، التي جاءت على هذه اللغة ، مثل قوله :

شجيٌّ في الحشا تَرْدادُهُ ليس يفتُرُ به صُمْنَ آمالي وإني لَمُفْطِرُ

وقد قال فيه أبو العلاء المعَرِّي في هذا الموضع (٤٧) : « يبين في كلام الطائي أنه كان يختار إظهار علامة الجمع في الفعل ، مثل قوله : صمن آمالي . ولو قال : صام آمالي ، لاستقام الوزن . وقد جاء بمثل ذلك في غير هذا الموضع » .

---

(٤٣) ديوانه ص ٩١ ، وشرح التصريح ٢٧٧/١ .
(٤٤) ديوانه ق ٤/٥٨ ص ٧٤ .
(٤٥) شواهد التوضيح لابن مالك ١٩٢ .
(٤٦) شواهد التوضيح ١٩٢ .
(٤٧) شرح الديوان للخطيب التبريزي ٢١٤/٢ .

ومن أمثلة ذلك في شعره أيضاً :

وغداً تبيّنَ كيفَ غِبُّ مدائحي إنْ مِلْنَ بي هممي إلى بغدادِ (٤٨)

ومنها كذلك قوله :

ولوكانت الأرزاق تَجْري على الحِجا هلكن إذنْ من جهلهنّ البهائمُ (٤٩)

وقد جاءت بعض أمثلة هذه الظاهرة في شعر المتنبي أيضاً ، فمن ذلك قوله :

ورمى ومارمَتَا يداهُ فصابني سهمٌ يعذّب والسهامُ تُرِيحُ (٥٠)

وقال كذلك :

نفديك من سيل إذا سُئِل النّدى هَوْلٍ إذا اختلطا دمٌ ومسيحُ (٥١)

ويبدو ان هذه الظاهرة ، كانت شائعة في عصر الحريريّ (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) الذي عدّها من اللحن (٥٢) وردّ عليه الشهاب الخفاجي ، فقال : « وليس الأمر كما ذكره ، فإن هذه لغةُ قوم من العرب ، يجعلون الألفَ والواو حرفي علامة للتثنية والجمع ، والاسم الظاهر فاعلاً . وتعرف بين النحاة بلغة أكلوني البراغيث ؛ لأنه مثالُها الذي اشتهرت به ، وهي لغة طيّئ ، كما قاله الزمخشري . وقد وقع منها في الآيات والأحاديث وكلام الفصحاء ما لايُحصى » (٥٣) .

وقد بقيت هذه الظاهرة شائعةً — كما قلنا — في كثير من اللهجات العربية الحديثة . وهي امتداد للأصل السامي واللهجات العربية القديمة ، بلا شك ..

★ ★ ★

(٤٨) شرح الديوان ١٣١/٢ .

(٤٩) شرح الديوان ١٧٨/٣ ، وانظر أمثلة أخرى في ٢٢٤/١ ؛ ١٢٨/٢ ؛ ٢٨٨/٢ ؛ ١٠/٣ ؛ ٧٤/٣ وغيرها .

(٥٠) ديوانه ص ١٦٥ . وانظر كذلك : أمالي ابن الشجري ١٣٣/١ .

(٥١) ديوانه ص ١٦٩ . وانظر كذلك : أمالي ابن الشجري ١٣٣/١ .

(٥٢) انظر : درة الغواص في أوهام الخواص ٦٥ .

(٥٣) أنظر : شرح درة الغواص ، للشهاب الخفاجي ١٥٢ .

ومن الظواهر اللغوية الشائعة في اللهجات المعاصرة ، وهي امتداد للقديم كذلك : ظاهرة سقوط الهمزة في غير أول الكلمة كثيراً ، مثل قولنا في لهجات الخطاب : بير ، ويا كل ، وراس ، ويملا ، ويقرا ، وريّس ، وخطيّة ، وروس ، وفوس ، وعباية ، وملاية ، ويودّي ، وجينا ، ومروّة ، ونحو ذلك ، بدلا من : بئر ، ويأكل ، ورأس ، ويملأ ، ويقرأ ، ورئيس وخطيئة ، ورؤوس ، وفئوس ، وعباءة ، وملاءة ، ويؤدي ، وجئنا ، ومروءة ، وغير ذلك في العربية الفصحى .

كما يقع الهمز من أوائل بعض كلمات العامية في حالات قليلة ، مثل : سنان ، في : أسنان ، وسبوع ، في : أسبوع ، وإيه اللي صابلك ؟ في : أصابلك ، وبراهيم ، وسماعين ، في : إبراهيم وإسماعيل ، ويوم الحدّ ، في : يوم الأحد ، وغير ذلك .

وليست هذه الظاهرة في اللهجات المعاصرة إلا امتداداً لما كان عند الحجازيين القدماء في نطقهم لهذه الكلمات وأمثالها .

وصوت الهمزة هو صوت أصيل في اللغات السامية كلها ، وهو صوت حنجري شديد مهموس ، ينطق بأن يلتقي الوتران الصوتيان ، أحدُهما بالآخر ، التقاء محكماً ، يَحْبِس خلفهما الهواءَ الخارج من الرئتين ، حتى إذا زال هذا الالتقاء فجأة ، سمعت للهواء المحبوس انفجاراً ، هو صوت الهمزة .

ويطلق على الهمز في اللغة العربية عند القدماء ، اسم « النّبْر » . قال ابن السِّكِّيت : « والنّبْرُ مصدرُ : نبرت الحرفَ نبراً ، إذا همزته » (٥٤) ، وإن كان الخوارزمي يخصّ النّبرة « بالهمزة التي تقع في أواخر الأفعال والأسماء ، نحو : سبأ . وقرأ وملأ » (٥٥) .

كما يقول ابن منظور : « والنّبْر : همز الحرف » (٥٦) .

---

(٥٤) اصلاح المنطق ١٦ .

(٥٥) مفاتيح العلوم ٣٠ .

(٥٦) لسان العرب ١٤/١ .

ولما كان هذا الصوت يتطلّب جهداً عَضَلياً ؛ فقد شبهّه علماء العربية بالتهوّع ؛ يقول سيبويه ، وهو يتحدث عن إبدال الهمزة واواً أو ياء : « واعلم أن الهمزة إنما فَعَلَ بها هذا (الإبدال) مَنْ لم يخفّفْها ؛ لأنه بَعُدَ مخرجها ، ولأنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد ، وهي أبعد الحروف مخرجاً ، فثقل عليهم ذلك ، لأنه كالتهوع » (٥٧) .

كما يقول الرضيّ : « إعلم أن الهمزة لما كانت أدخل الحروف في الحلق ، ولها نبرة كريهة تجري مَجْرَى التهوّع ، ثقلت بذلك على لسان المتلفظ بها ، فخفّفها قوم ، وهم أكثر أهل الحجاز ، ولا سيما قريش ؛ روي عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله تعالى عنه ؛ « نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ماهمزنا » وحققها غيرهم ، والتحقيق هو الأصل كسائر الحروف ، والتخفيف استحسان » (٥٨) .

ويقول كذلك ابن يعيش : « إعلم أن الهمزة حرف شديد مستثقل ، يخرج من أقصى الحلق ؛ إذ كان أدخل الحروف في الحلق ، فاستُثقل النطقُ به ؛ إذ كان إخراجه كالتهوّع ؛ فلذلك الاستثقال ساغ فيها التخفيف ، وهو لغة قريش وأكثر أهل الحجاز ، وهو نوع استحسان لثقل الهمزة . والتحقيق لغة تميم وقيس (٥٩) .

ولهذا السبب ؛ لم يبق هذا الصوت على حاله ، في كثير من اللغات السامية ، منذ زمن قديم . ولم يكن العرب على سواء في معاملة هذا الصوت ، في العصر الجاهلي ، فلم يكن يَنْطِق به على صورته إلا القبائل النجدية ، ولا سيما تيمٌ

(٥٧) كتاب سيبويه ١٦٧/٢ .

(٥٨) شرح الشافية ٣١/٣ .

(٥٩) شرح ابن يعيش للمفصل ٩/ ١٠٧ . وانظر كذلك : شرح مراح الأرواح ٩٩ .

وقيس . ويسمى اللغويون العرب نطقهم هــذا : بتحقيق الهمز ، كما رأينا في نصوصهم السابقة .

وقد تبنّت العربية الفصحى هذا التحقيق للهمز ، وسارت فيه على الأصل ، إلا في كلمات قليلة ، نراها في الفصحى غير مهموزة ، وحقّها الهمز . ومن أمثلة ذلك كلمة : « ناس » فإن الأصل فيها هو كلمة : « أناس » المستعملة في الفصحى كذلك . والدليل على أصالة الهمزة في هذه الكلمة وجودها في بعض اللغات السامية كالعبرية ، فهي فيها : أناشيم (anasim) وهو فيها جمع ، مفرده : إيش (is) بمعنى : « رجل » ، والياء فيه بدل من النون ؛ بدليل وجودها في الجمع ، كما أن هناك مفرداً نادر الاستعمال في العربية ، يحتوي على هذه النون كذلك ، وهو : إنُوش « enos » ، ويقابل في العربية كلمة « إنس » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً : الفعل « يرى » ، فهو مضارع « رأى » المهموز العين . ومثل ذلك تماماً استعمال الفصحى لفعليَ الأمر : « خُذْ » و « كُلْ » بلا همز في الوصل والابتداء ، و « مُرْ » و « سَلْ » بلا همز كذلك في الابتداء فقط . وماضي هذه الأفعال الأربعة مهموز كما نعرف ، وهو : « أخذ » و « أكل » و « أمر » و « سأل » .

وإن كان الفرّاء لايستحب الهمز في الأمر ، من : « سال » في القرآن الكريم مطلقاً ؛ فيقول : « وقوله : « سَلْ بني إسرائيل » لاتُهمز في شيء من القرآن ؛ لأنها لو همزت ، كانت : اسأل ، بأنف . وإنما تُرك همزها في الأمر خاصةً ؛ لأنها كثيرة الدَّوْر في الكلام ؛ فلذلك تُرِك همزُه ، كما قالوا : كُلْ وخُذْ ، فلم يهمزوا في الأمر ، وهمزوه في النهي وما سواه . وقد تهمزه العرب . فأما في القرآن ، فقد جاء بترك الهمز . وكان حمزة الزيّات يهمز الأمر ، إذا كانت فيه الفاء او الواو ، مثل قوله : « واسأل القريةَ التي

كنا فيها » ، ومثل قوله : « فاسْأَلِ الذين يَقرؤون الكتاب » ، ولست أشتهي ذلك ؛ لأنها لو كانت مهموزة اكتبت فيها الألف ، كما كتبوها في قوله : (فاضْرِبْ لهم طَريقاً) (واضرِبْ لهم مَثَلاً) بالألف » (٦٠) .

أما القبائل الحجازية (٦١) وعلى رأسها قبيلة قريش . فانها كانت تسقط الهمزة من نطقها ، في غير أول الكلمة ، في غالب الأحيان (٦٢) . قال أبو زيد الأنصاري : « أهل الحجاز وهُذَيْل ، وأهل مكّة والمدينة ، لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر ، فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا . قال : وقال أبو عمر الهُذَلي قد توضّيت ، فلم يهمز ، وحوّل لها ياءً . وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز » (٦٣) .

وقال ابن منظور : « ولم تكن قريش تهمز في كلامها . ولما حجّ المهدي ، قدّم الكسائي يصلي بالمدينة ، فهمز ، فأنكر أهلُ المدينة عليه ، وقالوا : تنبر في مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالقرآن ؟ ! » (٦٤) .

كما قال الفرّاء : « وقوله : (تأكل مِنْسَأَته) همزها عاصمٌ والأعمش ، ولم يهمزها أهل الحجاز ولا الحسن ، ولعلهم أرادوا لغة قريش ؛ فإنهم يتركون الهمز » (٦٥) .

---

(٦٠) معاني القرآن للفراء ١٢٤/١ .

(٦١) يبدو أن بعض القبائل الحجازية كانت تحقق الهمز كذلك ، فقد قال سيبويه (٨٠/٢) : « وقد بلغنا أن قوماً من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبيء وبريئة ، وذلك قليل كما قال في موضع آخر (٢/ ١٦٩) : « واعلم أن الهمزة التي يحقق أمثالها أهل التحقيق من تميم وأهل الحجاز » .

(٦٢) يقول « برجشتراسر » في « التطور النحوي » ٢٩ : « أكثر الهمزات كانت لا تنطق في لهجة الحجاز ، إلا ماكان منها في أوائل الكلمات ، وبعض ماوقع منها بين حركتين »

(٦٣) أنظر : مقدمة لسان العرب لابن منظور ١٤/١ .

(٦٤) لسان العرب (نبر) ٤٠/٧ ، وانظر : غريب الحديث لابن قتيبة ٦٣٣/٢ .

(٦٥) معاني القرآن ٥٦/٢ .

وقال ابن عبدالبر في التمهيد : « قول من قال : نزل القرآن بلغة قريش ، معناه عندي : في الأغلب ، لان لغة غير قريش موجودة في جميع القرآن ، من تحقيق الهمزة ونحوها ، وقريش لا تهمز (٦٦) .

وقال صاحب كتاب المباني كذلك : « فأما الهمز ، فإن من العرب من يستعمله ، وهم تميم ومن يوافقها في ذلك ، ومنهم من يقل استعمالهم له ، وهم هُذَيْل وأهل الحجاز » (٦٧) .

وهذا كله معناه أن لهجة الحجازيين الاصلية ، تسهيل الهمز . أما قول عيسى بن عمر الثّقَفيّ – فيما تقدم : « فإذا اضطروا نبروا » ، فيمكن أن يكون معناه أن الحجازيين إذا اصطنعوا اللغة المشتركة ، أي اللغة العربية الفصحى ، حققوا الهمز ، كما يمكن أن يكون عيسى بن عمر قد قصد بذلك الهمزة التي توجد في أول الكلمة .

ولذلك يعدّ الجَوَاليقي (المتوفّى سنة ٥٣٩ ه) سقوط الهمزة من أول الكلمة ، على ألسنة الناس في عصره ، من اللحن ؛ فقد روى لنا مثلاً أن الناس كانوا يسقطون همزة (أبو) في كلامهم ؛ فقال : « وهو أبو رياح ، لهذا الذي يلعب به الصبيان وتديره الريح ، ولا تقل : بُرْياح . وكذلك يقولون للقرد : بُوزنّه ، وإنما هو : أبو زنّة ، وهي كنيته (٦٨) .

ولا تزال هذه الظاهرة شائعة في تونس والجزائر مثلاً ، في قولهم : « بُومَدْيَن » و « بوتفْليقة » و « جميلة بُوْحَرْيد » . وكان لنا زميل تونسي بجامعة ميونخ اسمه : « عثمان بُوغانمي » . كما تشيع هذه الظاهرة في بعض الأسماء في الجزيرة العربية ؛ مثل : « با حسين » و « با خشوين » و « با كلاّ » و « با بطين » .

---

(٦٦) انظر : البرهان للزركشي ١/ ٢٨٤ .
(٦٧) مقدمتان في علوم القرآن ٢٢٦ .
(٦٨) التكملة فيما يلحن فيه العامة للجواليقي ١٣١ .

وقد يؤدي سقوط الهمز من آخر الأفعال إلى التباسها بالأفعال المعتلة الآخر، فتعامل معاملتها عند إسنادها إلى الضمائر، فبعد أن ضاع الهمز من الأفعال: (ملأ الإناء، وسلأ السمن، وأخطأ في قراءته، وأبطأ في فعله، وخبأ نقوده مثلاً) أصبح يقال عند اسنادها إلى الضمائر: (مليت، وسلبت، وأخطيت وأبطيت، وخبيّت) تماماً كما يقول الواحد منّا: (رَميت، وسعيت، وبنيت)، وغير ذلك.

وقد روى ابن الأنباري شيئاً من هذا في العربية القديمة؛ فقال: «ويقال: أردأت الرجل، وأرداته، وأرديته؛ فمن قال: أرداته، ليّن الهمزة. ومن قال: أرديته، انتقل عن الهمزة، وشبّه أرديت بأرضيت. ومثل هذا قول العرب: قرأت بتحقيق الهمز، وقرات بتليين الهمزة، وقريت بترك الهمز، والانتقال عنه إلى التشبيه بقضيت ورميت» (١).

★ ★ ★

ولسنا نريد هنا الإكثار من الأمثلة، التي تدل على مذهبنا، في أن كثيراً من الظواهر اللهجية المعاصرة في العربية ليست إلا امتداداً لشيْ من القديم. ويكفني أن نذكّر هنا بكشكشة ربيعة، التي تشيع في بلاد الخليج العربيّ، وبعض قرى مصر؛ وكسكسة هوازن، التي تشيع في كثير من بلاد نجد، وإبدال بني تميم الجيم ياءً، وامتداد ذلك في جنوبيّ العِراق وبلدان الخليج العربيّ في مثل: مسيد، ودياي، ورَيّال، بدلاً من: مسجِد، ودَجاج، ورَجُل.

وغير ذلك كثير كثير.. يحتاج بحثه واستقصاؤه إلى شيء من الصبر، وكثير من الجهد.. الصبر على قراءة المطوّلات من أمهات كتب العربية، والجهد في التقصيّ والتتبُّع والتفسير.. والله الموفق.

العِقدُ أو نظمُ النثر

وأثر الحديث النبوي الشريف فيه

الدكتور محمد جابر فياض
كليه الآداب – جامعة بغداد

المقدمة

حظي الحديث النبوي الشريف بعناية المسلمين قديماً وحديثاً ، حتى صار مجموعة علوم ، لا علماً واحداً . وصار من العسير حصر ما ألف فيه ، وفي رجاله . وصرنا نشير الى هذه المؤلفات بحسب أصنافها ، ككتب الصحاح ، والجوامع ، والمسانيد ، والمعاجم ، والمستدركات والمستخرجات ، والأجزاء وكتب الرجال وما يتصل بها على اختلاف أنواعها .

فعناية المسلمين بسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القولية والفعلية لا تفوقها غير عنايتهم بكتاب الله سبحانه . فهما مصدر التشريع الإسلامي فيما قَلَّ وجَلَّ من أمور دينهم ودنياهم .

واللغة العربية مدينة لهما بهذا التراث الضخم ، الذي لولاهما ما كانت لتحظى بشيء منه .

وهي مدينة لهما بحياتها وحيويتها ، فما كان لهـا أن تكون –على ما هي عليه – لولاهما ، مع امتداد العصور ، وتقلب الأحوال ، وما عصف بالأمة العربية في أثنائها من عواصف الدهر وعواديه . فهما سر بقائها لحد الآن وسر خلودها فيما يجيء من الحقب والأزمان .

وهي مدينة لهما بما تفرع عنهما من علوم : لغوية ، وبلاغية ونحوية ، وصرفية . إذ كانا سبباً في نشأة هذه العلوم وتطورها .

فلا غرابة — والحالة هذه — أن يتركا آثارهما البارزة في منثورها ومنظومها .
فالقرآن الكريم كتاب الله المعجز ، وحجته على خلقه ، وهو كتاب العربية الأول ، ومثلها الأعلى بفصاحته وبلاغته ، الذي قال فيه منزاه سبحانه : (قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [٨٨ الاسراء ١٧] .

وقال فيه الوليد بن المغيرة — وهو من ألد خصومه : —

(والله ان له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ، ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .) (١) والحديث النبوي الشريف — وان تلاه في البلاغة — قول أفصح من نطق بالضاد . ويغنينا في نعته قول الجاحظ :

(. . . وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلّ عن الصنعة ، ونُزِّهَ عن التكلف . وكان كما قال الله تبارك وتعالى :

قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) [٨٦ ص ٣٨] .

فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقصيب ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر . وهجر الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي . فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلاّ بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويُسِّرَ بالتوفيق .

وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الأفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته .

ولم تسقط له كلمة ، ولا زلّت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب . بل بذّ الخطب الطوال بالكلم القصار .

---

(١) المستدرك — الحاكم — ٢/٥٠٦—٥٠٧ .

ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم . ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق . ولا يبطىء ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر.

ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أقصر لفظاً ، ولا أعدل وزناً . ولا أجمل مذهباً ، ولا اكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً. ولا أبين فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم .) (٢)

فلا غرابة في أن يغترف الأدب العربي — منظومه ومنثوره — من هذا المعين العذب ، ويعب منه ، ويرتوي بنميره، فتشخص فيه نضارة آثاره ، في شكله ، أو مضمونه ، أو كليهما معا .

ونظم النثر يبرز هذا التأثير بأجلى مظاهره ، لشمونه الشكل والمضمون بكل ما فيهما ، أو يتصل بهما ما سوى الوزن والقافية ، أو في الأصح ما يختلف به عن المنثور .

والحديث الذي نظم من الأحاديث المرفوعة لا الموقوفة ، وناظمه صحابي . فنظمه أسبق من كل ما مثل به البلاغيون لهذا اللون من الوان البديع ، واكثرها انطباقا على ما حَدّوهُ به . فلم أقف في كلٍّ ما مثلوا به لهذا اللون على ما هو أقدم منه ، ولا على ما يفضله في انطباقه على حَدِّه .

ومن الغريب ألا يمثل به أيٌّ من البلاغيين ، أو يشير اليه . والأغرب صدور هذا النظم عن صحابي لم يكن من الشعراء المشـــهورين آنذاك ويفوت المعنيين بالشعور والشعراء ذكره . كما فات البلاغيين ذكر قصيدته .

وبعد هذا كله فقد استأذن الشاعر رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — في نظمه للحديث ، فأذن اه.وفي هذا ما فيه من إمكان الافادة منه، في الاستدلال على كيفية رواية الأحاديث المماثلة له ، وحدود التصرف المسموح بها في روايتها .

ومن هذا كله تتضح أهمية موضوع البحث ، وضرورة ذيوعه ونشره .

---

(٢) البيان والتبيين — ١٦/٢—١٨ .

العقد لغة

المادة اللغوية (العين والقاف والدال) تدل على الشدّ والابرام .

قال الخليل – ١٧٥ هـ : (عقدت الحبل عقداً ونحوه فانعقد . والعقدة موضع العقد من النظام ونحوه . . . وعقدُ كل شيء : إبرامه) (٣) .

وقال الأزهري – ٣٧٠ هـ : (العُقود : العهود ، واحدها عَقد ، وهي أوكد العهود . . . قال الاصمعي : العقدة من الأرض : البقعة الكثيرة الشجر . . .

وقال أبو عبيد : العَقِدَة من الرمل ، والعَقَدة : المنعقد بعضه على بعض(٤).

وأرجع ابن فارس – ٣٩٥ هـ كل مشتقات المادة اللغوية الى الشدّ قائلاً : (العين والقاف والدال : أصل واحد يدل على شَدٍّ ، وشِدَّةٍ وثوقٍ ، وإليه ترجع فروع الباب كلها .) (٥)

وقال الراغب الاصفهاني – ٥٠٢ هـ : (العَقد : الجمع بين أطراف الشيء ، ويستعمل ذلك في الاجسام الصلبة ، كعقد الحبل ، وعقد البناء . ثم يستعار ذلك المعاني ، نحو عقد البيع والعهد وغيرها ... ومنه قيل : لفلان عقيدة وقيل للقلادة : عِقد . والعَقد مصدر استعمل استعمال الاسم فَجُمِع . . .) (٦).

وقال ابن منظور : (العَقْد نقيض الحَلّ . . . والعقد الخيط ينظم فيــه الخرز وجمعه عقود . وقد اعتقد الدّرّ والخرز وغيره : إذا اتخذ منه عقدا والمعقاد : خيط ينظم فيه خرزات ، وتعلق في عنق الصبي . . .) (٧) .

وقال الفيومي – : (عقدت الحبل عقداً – من باب ضرب – فانعقد . والعقدة ما يمسكه ويوثقه . . . ومعقد الشيء – مثل مجلس – موضع عقده .

---

(٣) العين – ١/١٤٠ .
(٤) التهذيب – ١/١٩٦ .
(٥) المقاييس – ٤/٨٦ .
(٦) المفردات – ٣٤١ .
(٧) اللسان – ٣/٢٩٦ .

وعقد النكاح وغيره إحكامه وإبرامه . والعقد ــ بالكسر ــ القلادة ، حتى قيل : العقيدة ما يدين الانسان به . . .) (٨) .

وهكذا جاءت المادة اللغوية دالة على الشّدّ والابرام والاحكام والعقد منهما خاصـــة .

مصطلح العقد وتطوره

أجمع المتحدثون عن عقد الكلام أنه نظمه . فنقل أبو هلال العسكري ــ ٣٩٤ هـ ما يفيد أنهم كانوا يرون معقود الكلام منظومه ، ومحلوله منثوره ، فقال : (وقال بعضهم : الكتابة نقض الشعر . وقيل للعتابي (٩) : بِمَ قدرت على البلاغة ؟ ؟ فقال : بحل معقود الكلام) (١٠) .

ولو لم يكن معقود الكلام معروفاً بهذه الدلالة قبل العتابي لما أجاب بهذه الاجابة . ولكننا لم نقف على من أطلق لفظ المعقود على منظوم الكلام قبله .

ويبدو أن هذا المصطلح لم يلق رواجاً ، حتى بعد أن عرف ، وأشار اليه العتابي ان لم يكن هناك من اشار اليه قبله . فقد آثر المتحدثون عنه دلالته عليه . فقد عدّ الحاتمي (ابو علي محمد بن الحسن بن المظفر ــ ٣٨٨ هـ) نظم النثر لوناً من الوان السرقة والمحاذاة ، التي خصها بفصل من كتابه . غير أنه لم يذكر لفظ العقد في كل ما تحدث به عن نظم النثر (١١) .

واكثر من هذا أن أبا هلال العسكري الذي نقل قول العتابي في الفصل الذي خصصه للحديث عن (حسن الأخذ ، وحل المنظوم) آثر النظم على العقد ، أو

---

(٨) المصباح ــ ٥٧٥ .
(٩) كلثوم بن عمرو العتابي شاعر شامي مجيد توفي ٢٠٨ هـ انظر معجم الشعراء ٢٤٤ ــ ٢٤٥ .
(١٠) الصناعتين ــ ٢٢٢ .
(١١) الحلية ــ ٢/٩٢ ــ ٩٧ .

المنظوم على المعقود فقال : (وبهذا يعرف أن حلّ المنظوم ، ونظم المحلول اسهل من ابتدائهما ، لأن المعاني — إذا حالت منظوماً ، أو نظمت منثوراً حاضرة بين يديك ، تزيد فيها شيئاً فينحل ، أو تنقص منها شيئا فينظم . وإذا أردت ابتداء الكلام ، وجدت المعاني غائبة عنك ، فتحتاج الى فكر يحضركها (١٢) ويبدو أن الدلالة اللغوية للفظ العقد عند أبي هلال ومعاصريه ، بل وعند الذين جاؤوا بعده ، لم تكن أقل سيطرة على الاذهان من الدلالة الاصطلاحية فقد عرف هؤلاء الحل والعقد بمعنى الفصل والوصل . فنقل الينا أبو هلال قول المأمون : (ما اتفحص من رجل شيئاً كتفحصي عن الفصل والوصل في كتابه والتخلص من المحلول الى المعقود . فأن لكل شيء جمالاً . وحلية الكتاب وجماله في إيقاع الفصل موقعه، وشحذ الفكرة وإجالتها ، في لطف التخلص من المعقود الى المحلول) (١٣) . وعقب أبو هلال على هذا بقوله :

(وقلنا : ان المعقود والمحلول — ها هنا — هو انك اذا ابتدأت مخاطبة ثم لم تنته الى موضع التخلص ، مما عقدت عليه كلامك ، سمي الكلام معقودا . واذا شرحت ، وأبنت عن الغرض المنزوع إليه سمي الكلام محلولا .) (١٤) . فقوله ها هنا يعني أنه لم يغب عنه معنى العقد الاصطلاحي (النظم) هناك . ولو لم يكن لدلالة العقد اللغوية سلطانها في ذهنه لما جاء بقول المأمون وتعقيبه عليه في الفصل الذي خصصه للحديث عن الفصل والوصل بعد أن عرفهما ، وعنون الفصل بهما .

ومهما يكن من شيء فقد آثر المنظوم على المعقود ، والنظم على العقد .

وجاء الثعالبي بعده — ٤٢٩ هـ فألف كتاباً في حَلّ النظم ،غير أنه أشرك

(١٢) الصناعتين — ٢١٦ .

(١٣) المرجع نفسه — ٤٤١ .

(١٤) الصناعتين — ٤٤١ .

مصطلح العقد في عنوانه ، مع أن هذا الاشراك حمله على التكرار وإطالة العنوان ، إذ عنونه بـ (نثر النظم ، وحل العقد) (١٥). وتقديمه لنثر النظم على حل العقد ينم عن ضيق انتشار المصطلح على عهده .

وأما ابن رشيق القيرواني – ٤٥٦ هـ فقد آثر النظم على العقد شأنه في هذا شأن الحاتمي والعسكري اللذين أخذ عنهما ما تحدث به عن هذا اللون من الوان البديع . فقال : (وأجل السرقات نظم النثر ، وحل الشعر . وهذه لمحة منه (١٦) غير أن أسامة بن منقذ – ٥٨٤ هـ خصص للحل والعقد باباً ذكر فيه دلاليتهما الاصطلاحية قائلاً : (اعلم أن الحل والعقد – هو ما يتفاضل فيه الشعراء والكتاب هو أن يأخذ لفظاً منثوراً فينظمه ، أو شعراً فينثره (١٧) .

وأفاد ابن أبي الاصبع – ٦٥٤ هـ من أقوال سابقيه فجاء بحد العقد وشيء من شروطه ، فقال : (العقد : وهو ضد الحل ، لانه عقد النثر شعراً . ومن شرائطه أن يؤخذ المنثور بجملة لفظه ؛ أو بمعظمه ، فيزيد فيه ، أو ينقص منه ، أو يحرف بعض كلماته ليدخل به في وزن منأوزان الشعر . ومتى أخذ معنى المنثور دون لفظه ،كان ذلك نوعاً من أنواع السرقات بحسب الأخذ الذي يوجب استحقاق الاخذ للمأخوذ .

ولا يسمى عقداً إلا إذا أخذ المنثور برمته.وان غير منه بطريق من الطرق التي قدمناها، كان المبقي منه اكثرمن المغير ،بحيث يعرف من البقية صورالجميع (١٨).

وأخذ ابن حجة – ٨٣٧ هـ قوله هذا من غير ما اشارة اليه (١٩) وكذلك فعل ابن معصوم – ١١٢٠ هـ (٢٠) .

---

(١٥) طبع الكتاب في دمشق .
(١٦) العمدة – ٢٩٣/٢ .
(١٧) البديع – ٢٥٩ .
(١٨) تحرير التحبير – ٤٤١ .
(١٩) الخزانة – ٤٥٩ .
(٢٠) انوار الربيع – ٢٩٦/٦ .

غير أن القزويني – ٧٣٩ هـ كان قد أفاد من الاقتباس في حد العقد ، فقال : (وأما العقــد : فهو أن ينظــم نثر لا على طريق الاقتباس) (٢١) وكان من الطبيعي أن يتابع القزويني فيما ذهب اليه ، الذين داروا في فلك تلخيصه من أصحاب الشروح والحواشي والمختصرات وإن خالفوه في بعض ما ذهب اليه فقال السبكي – ٧٧٣ هـ :

(العقد أن يؤخذ الكلام فينظم ، لا على طريق الاقتباس ، أي : لا كما يفعل في الاقتباس . وسمي عقداً لانه كان نثراً محلولاً ، فصار نظماً معقوداً بالوزن) (٢٢) .

وقال التفتازاني – ٧٩١ هـ : (وأما العقد فهو أن ينظم نثر – قرآناً كان، أو حديثاً أو مثلاً ، أو غير ذلك – لا عن طريق الاقتباس يعني : ان كان النثر قرآناً ، أو حديثا ، فنظمه انما يكون عقداً ، إذاغير تغييراً كثيراً ، أو اشير الى أنه من القرآن أو الحديث . وإن كان من غير القرآن والحديث ، فنظمه عقد كيفما كان . إذ لا دخل فيه للاقتباس.) (٢٣) ولم يزد المغربي– ١١١٠ هـ ، والدسوقي – ١٢٣٠ هـ على ما قاله التفتازاني زيادة تستحق الذكر (٢٤) . ومثلهما السيوطي – ٩١١ هـ ، والعباسي – ٩٦٣ هـ (٢٥) .

وجمع المراغي والهاشمي بين ما ذهب اليه ابن أبي الاصبع ، وما ذهب اليه القزويني . فقال المراغي : (العقد : هو نظم المنثور لا على جهة الاقتباس . ومن شرطه أن يؤخذ المنثور بجملة لفظه ، أو بمعظمه ، فيزيد الناظم فيه وينقص ليدخل في وزن الشعر) (٢٦) .

---

(٢١) التلخيص – ٤٢٦ ، الايضاح ضمن شروح التلخيص – ٥٢١/٤ .
(٢٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص – الموضع نفسه .
(٢٣) المختصر ضمن شروح التلخيص – ٥٢١/٤ .
(٢٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص – الموضع ذاته .
(٢٥) عقود الجمان – ١٧٧ ، معاهد التنصيص – ١٨٢/٤ .
(٢٦) علوم البلاغة – ٣٨٧ .

وقال الهاشمي : (العقد : هو نظم الشعر مطلقاً لا على وجه الاقتباس ومن شروطه أن يؤخذ المنثور بجملة لفظه ، أو بمعظمه ، فيزيد الناظم فيه وينقص ليدخل في وزن الشعر) (٢٧)

واقتصر المرصفي في حد العقد على نظم النثر مطلقاً من كل قيد (٢٨) . مقتفياً في هذا آثار الحاتمي والعسكري وابن رشيق وابن منقذ ، وشراح التلخيص .

وانفرد ابن قيم الجوزية ـ ٧٥١ هـ بقوله : (الحل والعقد : وهو أن يأخذ لفظاً منظوماً فينثره ، أو منثوراً فينظمه مع الاتفاق في المعنى)(٢٩).

وهذا القول ظاهر الاضطراب . إذ أن قوله (مع الاتفاق في المعنى) يعني اباحة اختلاف اللفظ ، واختلاف اللفظ يخرجه عن الحل والعقد مع اتفاق المعاني . فما اكثر النصوص الشعرية المتفقة معنى ؛ وما زعم زاعم أنها عقد ، أو حل . وكذلك النصوص النثرية المتفقة فيما بينها معنى فالعقد والحل يقتضيان شيئين اثنين .

أولهما : الإبقاء على النص لفظاً ومعنى ، إلا بمقدار ما يتطلبه نظم المنثور ونثر المنظوم ، لا مجرد الاتفاق .

وثانيهما : الاختلاف بين ما كان عليه النص وما آل اليه نوعاً ، لانهما نظم المنثور ونثر المنظوم . وقد نص ابن قيم الجوزية نفسه على هذا بقوله (أن يأخذ لفظاً منظوماً فينثره ، أو منثوراً فينظمه) غير أنه ألحق به ما يناقضه ، فالضمير في ينثره عائد على اللفظ المنظوم ذاته لا على غيره مما يوافق معناه . وكذلك الضمير في (ينظمه) عائد على اللفظ المنثور ذاته لا على

---

(٢٧) جواهر البلاغة ـ ٤١٨ .
(٢٨) الوسيلة الادبية ـ ١٦٨/١ .
(٢٩) الفوائد ـ ٢٢٥ .

سواه ، فالاتفاق إذاً في اللفظ والمعنى لا المعنى وحده ويبدو أن ابن معصوم كان يعني ابن قيم الجوزية بقوله :

فإنّ نظم المعنى وحده دون اللفظ لم يكن عقداً ، بل نوعاً من السرقة ، خلافاً لمن أدخله في العقد) (٣٠) .

وما ذهب اليه القزويني من أنه نظم النثر لا على جهة الاقتباس مردود لتقييده بما لا يصح نظم المنثور كله بل يخص القرآن والحديث وحدهما. إذ لا يكون الاقتباس من غيرهما . وقد تولى رده شراح التلخيص أنفسهم . ومع هذا فقد تبعه فيه من تبعه .

ومهما يكن من شيء فَحَدُّه بنظم النثر أولى من تقييده .



(٣٠) انوار الربيع ــ ٢٩٦/٦ .

العقد والسرق

ذهب أكثر المتحدثين عن العقد أو نظم النثر الى أنه نوع من انواع السرقات ومنهم من ذهب الى أنه من أخفى أنواعها .

فاستهل الحاتمي حديثه عن نظم النثر بقوله : (ومن الشعراء المطبوعين طائفة تخفي السرق ، وتلبسه ، اعتماداً على منثور الكلام ، دون منظومه ، واستراقاً للألفاظ الموجزة ، والفقر الشريفة ، والمواعظ الواقعة ، والخطب البارعة ..) (٣١) .

وصدر أبو هلال العسكري ما جاء به من أمثلة لنظم المنثور ، ونثر المنظوم بقوله : (ومن خفي السرق ..) (٣٢) .

وقال ابن رشيق القيرواني : (وأجل السرقات نظم النثر وحل الشعر)(٣٤) .

ووضعه ابن منقذ مع السرقات المحمودة متابعاً في هذا قول ابن وكيع التنيسي الذي ذكره في حديثه عن النقل قائلاً .

(ومنه السرقات المحمودة والمذمومة . قال ابن وكيع التنيسي : السرقات المحمودة عشرة) (٣٥) .

وعده ضياء الدين بن الأثير من أحلى السرقات فقال :

(ومنها نظم النثر ، وحل العقد وهو من أحلاها) (٣٦) .

وجاء به القزويني مع ماجاء به من الأخذ والسرقة فقال :

---

(٣١) الحلية ـ ٩٢/٢ .
(٣٢) الصناعتين ـ ٢٢١ .
(٣٤) العمدة ـ ٢٩٣/٢ .
(٣٥) البديع ـ ١٨٣ .
(٣٦) كفاية الطالب ـ ١٢٣ .

(الأخذ والســرقة نوعان : ظاهر وغير ظاهر . .) (٣٧) . ولم يكن الأخذ عنده شيئاً خارجاً عن السرقة . يؤيد هذا شرح المغربي لقوله، حيث قال : (ولما ذكر ما لا يُعَدّ من باب السرقة أشار الى تقسيم ماهو من بابها.. فالأخذ والسرقة : أي الأخذ الذي هو السرقة في الجملة) (٣٨) .

وشرح الدسوقي له بقوله : (فالأخذ والسرقة ... الخ قوله : أي مايسمى بهذين الاسمين ، أشار بهذا الى أنهما اسمان مترادفان مدلولهما واحد ، لا أنهما متغايران) (٣٩) .

ووضعه السيوطي في خاتمة كتابه التي خصصها للسرقات وما يتصل بها (٤٠) ولا أدري كيف يمكن أن يكون نظم النثر سرقة ، أو نوعاً من أنواعها ، وأخفى أنواعها مع ماذكروه من أن العقد نظم المنثور بجملة لفظه ومعناه . ومن يعمد الى السرقة واخفائها لايأخذ المنثور بجملة لفظه ومعناه فيفضح نفسه ويكشف ماأراد إخفاءه .

وذهبوا الى أن هذا المنثور الذي يعقد إما أن يكون من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو الأمثال السائرة أو الحكم المشهورة ، أو الخطب الرائعة ، أو المواعظ الرادعة أو غيرها . وقد وقفنا على جملة الأمثلة التي أوردوها ، فاذا بها أكثرها – أن لم نقل كلها – من الأنواع التي ذكروها فلم يعقد من غيرها الإ القليل النادر . والذي يريد السرقة ، ويروم اخفاءها لايعمد الى مثل هذه النصوص المشهورة ، بل يعمد الى المغمورة المجهولة كيلا تنكشف سرقته .

---

(٣٧) التلخيص – ٤٠٩ ، الايضاح ضمن شروح التلخيص – ٤/٤٨٠ .
(٣٨) مواهب الفتاح – الموضع نفسه من الشروح .
(٣٩) حاشية الدسوقي – الموضع نفسه .
(٤٠) عقود الجمان – ١٦٨ .

ومن البلاغيين ، والمتأخرين منهم خاصة ، أولئك الذين تبلور الحد على عهدهم – من حده بأنه نظم النثر لا عن طريق الاقتباس . ففرقوا بينه وبين الاقتباس بأمرين أولها ألا يشير المقتبس من القرآن أو الحديث الى مايشعر باقتباسه منهما فان أشار صار مانظمه عقداً لا اقتباساً ، فيكف يمكن إذاً أن يعد العاقد لآية كريمة ، أو حديث نبوي شريف سارقاً مخفياً للسرق مع نصه على مصدر أخذه ؟ ؟

وبعد هذا وذاك ، فلو كان العقد سرقاً ، أو من خفي السرق – كما ذهبوا – لما امكنهم التعرف على الذين أولعوا به ، وأكثروا منه ، وذكر كل منهم باسمه ، وبيان ما عقده ، والرجوع به الى مصدره بكل سهولة ويسر ، مع ما نعتوا به أولئك الشعراء المولعين به من مهارة وحذق وقدرة على إخفاء مايريدون إخفاءه . وإذا ماقيل : إن العلماء هم الذين فطنوا الى صنيع هؤلاء الشعراء . فالشعراء لايجهلون أن أشعارهم ستكون بين أيدي أولئك العلماء وأمثالهم .

وأخيراً فاني لاأدري كيف يمكن التوفيق بين عدهم العقد أو نظم النثر من محاسن الشعر ، أو من الوان البديع ، مع أنه – عقدهم – سرق ، أو نوع من السرق ؟

ولا أريد بهذا أن أنفي السرق عن العقد كله ، ولكن الذي أريده قصر السرق فيه على ماعقد من نثر مجهول غير معروف ، لاتعرفه إلا القلة القليلة من الأدباء والعلماء . ولم يشر عاقده بشكل مباشر أو غير مباشر الى مصادر ماعقده ، وتصرف فيه تصرفاً يُلَبِّسُهُ على سامعه أو قارئه .

وما سواه فليس من السرق في شيء لا من قريب ولا من بعيد وأولى من نعته بالسرق ، نعته بالاتباع ، أو الأخذ ، كما نعته الذين وصفوه بالسرق أنفسهم . وبهذا نكون قد وصفناه بما يتفق وحقيقته ، وأعطينا كل ذي حق

حقه من الابتداع والاتباع ، وميزنا بين الآخذ والمأخوذ عنه ، فان أحسن المتبع في عقده ، كان من حسن الاتباع والأخذ ، وإن قصر كان مما قصر فيه المتبع عن المبتدع . وإن ساواه فهو من المساواة بينهما ، وللمبتدع فضل الابتداع ، وللمتبع فضل عقده أو نظمه شعراً .

ومن الانصاف أن نذكر ، أن غير واحد من المتحدثين عن نظم النثر قد باعد بينه وبين السرق ، كابن أبي الاصبع ، حيث قال : (.. ومتى أخذ معنى المنثور دون لفظه ، كان ذلك نوعاً من انواع السرقات ، بحسب الأخذ الذي يوجب استحقاق الآخذ للمأخوذ) (٤١) . وابن معصوم الذي تابعه قائلاً (.. فأن نظم المعنى دون اللفظ لم يكن عقداً ، بل نوعاً من السرقة) (٤٢).

أهمية العقد

ليس العقد نسخاً وان كان أخذاً للمنثور بلفظه ومعناه . فهو نظم له . فالناظم أو العاقد هو الذي يختار الوزن والقافية ، ويزيد في المنثور ، أو ينقص منه كيما ينظمه شعراً ، بعد أن كان نثراً .

فمجال التصرف فيه غير قليل ، وقد فرق البلاغيون والمعنيون بالشعر بينه وبين الاقتباس ، بكثرة التصرف فيه ، وقلته في الاقتباس خاصة ، والتضمين عامة . فتصرف الشاعر فيما يعقد أكثر بكثير من تصرف المقتبس أو المضمن . ولهذا كان للعاقد فضل الاحسان إن أحسن ، وعليه إساءته وتقصيره إنْ أساء أو قصر . فحوسب — في صياغته — محاسبة المبتدع ، وقيس به في الاجادة والتقصير . كقول الحاتمي في صالح بن‌عبدالقدوس : (فنظم هذا المعنى صالح ابن‌عبدالقدوس ، وبسط لفظه ، فقال وأحسن ..) (٤٣) . وقوله : (فنظم

(٤١) تحرير التحبير — ٤٤١ .
(٤٢) انوار الربيع — ٢٩٦/٦ .
(٤٣) الحلية — ٩٣/٢ .

هذا المعنى أبو عثمان الناجم ، وأحسن) (٤٤) . وقوله : (فنظر الى هذا البحتري ، ولم يستوفه) (٤٥) فقيس المتبع بالمبتدع . ولولا ماأبيح للمتبع من التصرف ، لما كان هناك من احسان أو تقصير ، ولا من داع يدعو للمقارنة والموازنة بين المتبع والمبتدع .

ويبدو لي أن المتبع أحرص على إجادة الصياغة من المبتدع ماوجد اليها سبيلا ، لأنه هو الذي اختار مااستجاده وأعجبه ، فهو حريص على الإجادة في صياغة ماأعجبه ، حريص على التعويض عن فضل الابتداع بفضل الصياغة والعقد . يضاف الى هذا وذاك أن ما اختاره واستجاده ، مختار جيد بذاته ، معروف مشهور ، فهو إما آية كريمة ، أو حديث نبوي شريف ، أو مثل سائر ، أو حكمة مشهورة ، أو قول جامع من جوامع الكلم ، أو ماأشبه . فلا ينبري للعقد غير الشاعر المطبوع القادر على الإجادة في نظم مثل هذه الأقوال ، وإلا كان إخفاقه وافتضاحه مضاعفاً ، لأنه يكون كمن صيّر الدّر حجراً .

ولهذا رأينا نقاد الشعر – بغضّ النظر عما أشاروا إليه من السرق – يثنون على من أولع بالعقد من الشعراء ، فقال الحاتمي : (ومن الشعراء المطبوعين طائفة تخفي السرق ، وتلبسه اعتماداً على منثور الكلام ، دون منظومه ، واستراقاً للألفاظ الموجزة ، والفقر الشريفة ، والمواعظ الواقعة ، والخطب البارعة .

وأبو العتاهية ، ومحمود الوراق شديد اللهج بذلك كثيراً في اشعارهما ، ولصالح بن عبدالقدوس درر من ذلك إلا أنه لم يكثر أكثارهما) (٤٦) فما عقده هؤلاء الشعراء درر في نظر الحاتمي ، أكثر منها أبو العتاهية والوراق ،

---

(٤٤) المرجع نفسه – ٩٥/٢ .
(٤٥) الموضع نفسه .
(٤٦) الحلية – ٩٢/٢ .

ولم يكثر منها صالح بن عبدالقدوس أكثارهما . فهذا هو رأي الحاتمي في هؤلاء الشعراء وما عقدوه .

أما ابو هلال العسكري فقد ذهب الى أنه لايكمل لهذا العقد إلا المبرز والكامل المقدم فقال :

(وأحد اسباب إخفاء السرق أن يأخذ معنى من نظم فيورده في نثر ، أو من نثر فيورده في نظم ، أو ينقل المعنى المستعمل في صفة ضمير فيجعله في مديح ، أو في مديح فينقله الى وصف ، إلا أنه لايكمل لهذا إلا المبرز ، والكامل المقدم) (٤٧) .

ويقول الحاتمي في المتنبي مع مابينهما من خصومة :

(ووجدنا أبا الطيب أحمد بن الحسين المتنبي قد أتى في شعره بأغراض فلسفية ومعانٍ منطقية . فان كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث ، فقد أغرق في درس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق ، فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والألفاظ العربية . وهو في الحالين على غاية من الفضل ، وسبيل نهاية من النبل . وقد أوردت من ذلك مايستدل به على فضله في نفسه ، وفضل علمه وأدبه ، واغراقه في طلب الحكمة) (٤٨) . وفاقد الشيء لايعطيه ، والجود من الموجود ، وكل وعاء بالذي فيه ينضح .

ولذلك كان الحل والعقد مما يتفاضل به الشعراء والكتاب كما ذهب ابن منقذ (٤٩) . بل ذهب حازم القرطاجني الى انهما واحد من طريقي اقتباس المعاني فقال :

---

(٤٧) الصناعتين ـ ١٩٨ .

(٤٨) الرسالة الحاتمية ضمن التحفة البهية ـ ١٤٤ .

(٤٩) البديع ـ ٢٥٩ .

(والطريق الثاني الذي اقتباس المعاني منه بسبب زائد على الخيال : هو ما استند فيه بحث الفكر الى كلام جرى في نظم أو نثر ، أو تأريخ ، أو حديث ، أو مثل ، فيبحث الخاطر فيما يستند اليه من ذلك على الظفر بما يسوغ له إبراز ذلك الكلام ، أو بعضه بنوع من التصرف ، والتغيير ، والتضمين .. أو يصير المنثور منظوماً ، أو المنظوم منثوراً .

فأما من لا يقصد في ذلك الارتفاق بالمعنى خاصة غير تأثير من هذه التأثيرات ، فأنه اليكيُّ الطبع في هذه الصناعة ، الحقيق بالاقلاع عنها، وإراحة خاطره مما لايجدي عليه غير المذمة والتعب .) (٥٠)

ولو لم يكن للعقد من فضل ، غير تصيير المنثور منظوماً لكفاه للمنظوم من ميزات يتميز بها على المنثور جعلته أقرب الى النفوس وأعلق بها منه وما أثر الوزن والقافية وما ينجم عنهما من اتساق موسيقي وترابط معنوي بمنكور . ولولا هذا مانظمت العلوم العربية والاسلامية على كثرتها وتنوعها في منظومات تعليمية . وكلها من العقد في الصميم ولم يشر اليها المتحدثون عن نظم النثر لامن قريب ولا من بعيد حتى أصحاب البديعيات أنفسهم .

أمثلة العقد

ماعقد من أقوال حكماء اليونان الأقدمين

قال نادب الاسكندر عند وفاته ــ وقد بكى من كان بحضرته ــ (حركتنا بسكونه) . فنظم هذا أبو العتاهية ، فقال :

قَد لَعَمري حكَيتَ لي غُصَصَ المو ت ، وحرَّكتَني لَها وسكنْتا (٥١)

ويقال : إنه لما مات الاسكندر ندبه أرسطاطاليس فقال :

(٥٠) منهاج البلغاء ــ ٣٩ .
(٥١) الحلية ــ ٩٣ .

طال ماكان هذا الشخص واعظاً بليغاً ، وما وعظ بكلامه موعظة قط ، أبلغ من موعظته بسكوته .

فنظم هذا المعنى صالح بن عبدالقدوس ، وبسط لفظه ، فقال وأحسن :

وينادُونَهُ وقد صُمَّ عَنْهُمْ ثُمَّ قالوا . وللنساءِ نَحيبُ
ماالذي عاقَ أنْ تَرُدَّ جَواباً أيّها المِقْوَلُ الألدُّ اللبيبُ
إن تكُن لاتُطيقُ رَجْعَ جَوابٍ فَبِها قَدْ نَرى وأنتَ مطيبُ
ذُو عِظاتٍ، وما وعظتَ بشيءٍ مثل وَعْظِ السكوتِ إذ لا تُجيبُ

وعقب الحاتمي على هذا بقوله : وأحسبه نظر في قوله : (ان تكن لاتطيق رجع جواب) الى مخاطبة المؤيد لقباذ بعد موته : (كان الملك أمسِ أنطق منه اليوم . وهو اليوم أوعظ منه أمس) (٥٢) .

وتنبيه الحاتمي في محله ، إذ لم يقتصر الشاعر على عقد مقوله النادب . ولو اقتصر عليها لكفاه البيت الأخير من المقطوعة بتغيير طفيف في عجزه ، كأن يقول : مثل وعظ الممات إذ لا تجيب . أو ما أشبه .

وروي أن أرسطاطاليس قال : (تكلمت بكــلام لو مدحت به الدهر ماجاءت علي صروفه) . فنظم هذا المعنى أبو عثمان الناجم ، وأحسن فقال:

وَلي في حامِدٍ أمَلٌ قَديمٌ وَمَدْحٌ قَدْ مد حتُ به طَريفُ
مديحٌ لو مدحتُ بهِ اللّيالي لمَا جارَتْ عَلَيَّ لها صُروفُ(٥٣)

ولا أراه اقتصر على عقد قول ارسطا طاليس ، ولو اقتصر عليه لكفاه البيت الثاني وحده ، واستغنى عن ذكر حامــد وطريف ومدحه لهما ، وعمد الى لفظ (الكلام) لافادته العموم بدلاً من المدح ، فما كل كلام مدحاً ولقال :

(٥٢) الحلية ــ ٩٣ .
(٥٣) المرجع نفسه ــ ٩٥ .

كلام لو مدحت به الليالي ... لما جارت عليَّ لها صروف

فكان اشبه بعقد مقولة الحكيم .

وقد ألحق ابن منقذ بالعقد كل ماأورده الحاتمي في رسالته الحاتمية من ابيات المتنبي الحكمية التي اشبهت من قريب أو بعيد معاني الحكيم اليوناني أرسطا طاليس (٥٤) . وفاته أن العقد نظم النثر بجملة لفظه ومعناه . وأن الحاتمي نفسه لم يذهب الى أكثر من الاشارة الى موافقة هذه الابيات في معانيها لمعاني حكم الحكيم (٥٥). وموافقة الأبيات لمعاني الحكم شيء وعقد الحكم ونظمها شيء آخر . ولنقف على مثل واحد من هذه الامثلة الكثيرة لنرى إن كانت هذه الموافقة ترتقي الى درجة العقد أم لا .

قال أرسطا طاليس : من استمرت عليه الحوادث ، لم يألم بحلولها .

وقال المتنبي :

إذا اعتادَ الفَتى خَوضَ المنايا ... فَأَهْوَنُ مايَمَرُّ بِهِ الوُحُولُ

فأين هذا من ذاك لفظاً ومعنى وصورة ؟؟ وكيف يكون هذا عقداً لذاك ؟ ؟ ولهذا لم يوافقه في هذا من كل الذين جاءوا بعده غير العباسي الذي اقتصر على طائفة قليلة منها والسيوطي وابن معصوم اللذين اقتصرا على بيت واحد منها (٥٦) .

العقد في أقوال السيد المسيح

لم يشر المتحدثون عن نظم النثر الى مانظم من أقوال السيد المسيح الى غير قوله عليه السلام :

---

(٥٤) البديع ـ ٢٦٤ ـ ٢٨٦ ، وانظر الرسالة الحاتمية ـ ١٤٤ ـ ١٥٩ .

(٥٥) الرسالة الحاتمية ـ ١٤٤ .

(٥٦) انظر معاهد التنصيص ١٨٩/٤ ـ ١٩٠ ، عقود الجمان ـ ١٧٨ ، انوار الربيع ـ ٣٠٢/٦ .

(تعملون السيئات ، وترجون أن تجازوا عليها بمثلِ مايجازى به أهل الحسنات . أجل لايجنى الشوك من العنب) .

فقال ابن عبدالقدوس :

إذا وَتَرْتَ امْرَءاً فاحذَر عداوتَهُ مَنْ يزرع الشوكَ لايحصدبه عنباً(٥٧)

وقد ورد قوله : (لايجنى الشوك من العنب) مع ماورد من الأمثال العربية الجاهلية فلا ندري إن كان المثل أخذ عنه أو أنه أخذه من المثل العربي القديم الذي نجهل مدى قدمه . اللهم إلا إذا أخذنا بنسبته الى اكثم بن صيفي (٥٨) فيكون قول السيد المسيح أصلاً له وهو الأرجح .

العقد من القرآن الكريم

أما العقد من القرآن الكريم فكقول الشاعر :

أَنِلْني بالذي استَقْرَضْتُ خَطاً وأَشْهِدْ مَعْشَراً قد شاهَدُوهُ

فإنَّ اللهَ خلاَّقُ البَرايا عَنَتْ لجلالِ هَيبته الوُجُوهُ

يقول إذا تداينْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُسَمّى فاكتُبُوهُ (٥٩)

وقول ابن النبيه في الملك الصالح :

دمياطُ طُورٌ ، ونارُ الحربِ مُؤْنِسةٌ وأنتَ موسى ، وهذا اليومُ ميقاتُ

فاطْرحْ عصاكَ تَلَقَّفْ كُلَّ ماصَنَعوا

ولا تَخَفْ ، ما حِبالُ القومِ حَيّاتُ (٦٠)

---

(٥٧) العمدة ــ ٢/٢٩٣ .

(٥٨) مجمع الأمثال ــ ١/٥٢ وهو فيه من قول اكثم : (انك لاتجني من الشوك العنب) .

(٥٩) عروس الأفراح ، مواهب الفتاح ، حاشية الدسوقي كلها ضمن شروح التلخيص : ٤/٥٢١ ــ ٥٢٣ ، عقود الجمان ــ ١٧٧ ، معاهد التنصيص ــ ٤/١٨٤ ، انوار الربيع ــ ٦/٢٩٦ ــ ٢٩٧ ، علوم البلاغة ــ المراغي ــ ٣٨٧ ، جواهر البلاغة ــ ٤١٨ .

(٦٠) عقود الجمان ــ ١٧٧ ــ ١٧٨ .

وقول أبي نؤاس :

بروحي غَزالٌ كانَ للناسِ قِبلَةً
وقَدْ زُرْتُ في بعضِ الليالي مُصَلّاهُ

ويقرأُ في المحرابِ ، والناسُ خلْفَهُ
ولا تَقْتُلُوا النفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ

فقُلْتُ تَأَمّلْ ما تَقُولُ فأنّها
فِعالُكَ يا مَنْ تَقْتُلُ الناسَ عيناهُ(٦١)

وقول أبي نصر سهل بن المرزبان :

لا تَجزَعَنْ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ عَرا
ولا تُرِ الأَعداءَ ما يُشْمِتُ

أَما سَمِعْتَ اللهَ في قَوْلِهِ
إذا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثْبُتُوا (٦٢)

وقول أبي محمد العبدلكاني :

لا تُكْرِهَنْ خلْقاً على مَذْهَبٍ لستَ مِنَ الارشادِ في شَيٍّ
ألَم تَرَ الرحمن سُبحانَهُ المُـ خرِجَ للمَيْتِ مِنَ الحَيِّ
يقولُ لا إكراهَ في الدِّينِ قَدْ تبَيَّنَ الرُّشْدُ مِن الغَيِّ (٦٣)

وقول المطوعي :

غدا مُنْذُ التَحى لَيْلاً بَهيماً وكانَ كأنَّهُ البَدْرُ المنيرُ

---

(٦١) معاهد التنصيص ــ ٤/١٨٤ ، انوار الربيع ــ ٦/٢٩٦ وفيه بنفسي بدلا من بروحي .

(٦٢) معاهد التنصيص ــ ٤/١٨٤ ، انوار الربيع ــ ٦/٢٩٧ ــ ٢٩١ .

(٦٣) الموضعين نفسيهما . وفي انوار الربيع (اما ترى) بدلا من (الم تر) .

فَقَد كَتَبَ السـودُ بعارضَيـهِ ... لِمَنْ يَقْرَأْ، وَجاءَكُمُ النذيرُ (٦٤)

وقولـه :

تَكَبَّـرَ لَمّـا رَأى نَفْسَـهُ ... على صُورَةِ الشَّمْسِ قَدْ صُوِّرَتْ

سَـيَنْـدَمُ أَلْفـاً على كِبْرِهِ ... إذا الشَّمْسُ في خَدِّهِ كُوِّرَتْ (٦٥)

وقول الصابوني الاشبيلي :

رأيـتُ في خَـدِّهِ عِـذاراً ... خَلَعَتُ في حُبِّـهِ عِـذاري

قَدْ كَتَبَ الحُسْنُ فيهِ شِعْراً ... ويولجُ الليل في النهـارِ (٦٦)

وقول ابن يَعْمُور :

خَطْبٌ أتى مُسْرِعاً فـآذى ... أَصْبَحَ جِسْمي بـه جُـذاذا

خَصَّصَ قَلْبي ، وعَمَّ غيري ... يا ليتني متُّ قَبلَ هـذا (٦٧)

وقول أبي الحسين الجزّار :

أَصْبَحْتُ جزّاراً ، وفي البيتِ لا ... أعْـرِفُ مـا رائحـةُ اللّحْمِ

جَهِلْتُهُ فَقْراً فكُنْتُ الذي ... أضلّه الله على عِلـمِ (٦٨)

وله في غَرَضٍ عَرَضَ :

أرَى الضَّحايا قُسِّمَتْ في الوَرَى ... وضاعَ فيما بَينَهُمْ قِسْمِـي

وكُلُّ من يعلَمُ حالي فَقَـد ... أَضَلّـهُ اللهُ على عِـلْمِ (٦٩)

وقول ابن جابر الاندلسي :

يا صاحبَ المالِ ألم تَسْتَمِعْ ... لِقَولِهِ : ما عِندَكُمْ يَنْفَدُ

فاعْمَلْ بِهِ خَيْراً ، فَوَاللهِ ما ... يَبْقَى، ولا أَنْتَ لَهُ تَخْلُدُ (٧٠)

---

(٦٤) الموضع نفسه من المعاهد .
(٦٥) الموضع نفسه .
(٦٦) (٦٧) (٦٨) (٦٩) معاهد التنصيص – ١٨٥/٤ .

وقوله أيضاً :

إذا شئتَ رزقاً بلا حسبةٍ فَلُذْ بالتُّقى ، واتبعْ سُبْلَهُ
وتصديقُ ذلكَ في قولِهِ ومَنْ يتّقِ اللهَ يجعَلْ لَهُ (٧١)

وقول أبي جعفر الأندلسي :

إذا ظلَمَ المرءُ فامْهِلْ لهُ فبالقُرْبِ يُقطَعُ منهُ الوَتينْ
فقَدْ قالَ ربُّكَ ، وهو القويّ وأُمْلي لَهُمْ ،إنّ كَيدي متينْ (٧٢)

وقال الامام أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر التميمي :

يا مَنْ عَدا ، ثُمَّ اعتَدى ، ثُمَّ اقتَرَفْ
ثُمَّ انتَهى ، ثُمَّ ارعَوى ، ثُمَّ اعتَرَفْ
أبْشِرْ بِقَولِ اللهِ في آياتِهِ
إنْ يَنْتَهوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفْ (٧٣)

العقد من الحديث النبوي الشريف

قال الحاتمي : روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : (اليد العليا خير من اليد السفلى) فنظم أبو العتاهية بعض هذا اللفظ ، وأخل ببعضه ، فقال :

إفرَحْ بما تأتيهِ مِنْ طَيِّبٍ
إنَّ يَدَ المُعْطي هِيَ العُلْيا (٧٤)

وقال أبو هلال العسكري : وسمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(٧٠) (٧١) معاهد التنصيص – ١٨٥/٤ .
(٧٢) الموضع نفسه ، انوار الربيع – ٢٩٨/٦ .
(٧٣) انوار الربيع – ٢٩٧/٦ .
(٧٤) الحلية : ٩٢/١ . والذي اراه أن العقد لقوله صلى الله عليه وسلم : (يد المعطي العليا) انظر سنن النسائي ٤٦/٥ ، فلا اخلال بما عقد .

(يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، حيثما كانوا) فقلت :

يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أدناهُمُ وَهُمُ
يَدٌ على مَنْ سِواهُمْ حَيْثُما كانوا (٧٥)

وقال القزويني : وأما عقد الحديث . فكما روي عن الشافعي رضي الله عنه :

عُمْدَةُ الخير عِنْدَنا كَلِماتٌ أَرْبَعٌ قالَهُن خَيْرُ البَرِيَّةْ
اتّقِ المُشْبِهات ، وازْهَد ، وَدَعْ ما
لَيس يَعْنيكَ ، واعْمَلَنَّ بِنِيَّةْ (٧٦)

عقد قوله عليه السلام : (الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما مشتبهات)، وقوله عليه السلام : (ازهد في الدنيا يحبك الله) وقوله عليه السلام : (من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه) ، وقوله عليه السلام : (انما الاعمال بالنيات) (٧٧) .

وذكر السيوطي قول شيخ الاسلام أبي الفضل ابن حجر :

إنَّ مَنْ يَرْحَمُ أَهْلَ الأَرضِ قد
آنَ أنْ يَرْحَمُهُ مَنْ في السَّما
فارْحَمِ الخَلْقَ جَميعاً إنّما
يَرْحَمُ الرَّحْمانُ مِنّا الرُّحَما

---

(٧٥) الصناعتين : ٢٢١ .

(٧٦) الايضاح ، وعروس الافراح ، ومواهب الفتاح ، وحاشية الدسوقي في شروح التلخيص : ٥٢١/٤ ــ ٥٢٣ . وفيها جميعا بالرواية ذاتها للشافعي وهما كذلك في معاهد التنصيص ١٨٦/٤ ، وانوار الربيع : ٢٩٨/٦ ــ ٢٩٩ . وعزاهما السيوطي لأبي الحسن طاهر بن معوذ الاشبيلي ، وقال : من نسبهما الى الشافعي فقد غلط ، انظر عقود الجمان : ١٧٨ ، وفيه (عمدة الدين) مكان (عمدة الخير) .

(٧٧) المراجع السابقة المواضع ذاتها .

ولم يذكر ما عقده ابن حجر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم — بقوله هذا (٧٨) كما أورد له قوله :

مِنْ خَيْرِ ما يَتّخِذُ الانْسانُ في
دُنياهُ كَيْما يَسْتَقِيم دِينُــه
قلباً شــكوراً ، ولساناً ذاكــراً
وزوجــةً صــالحــةً تُعِينُــه

وقال : عقد حديث : (ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وزوجة صالحة تعينه على أمر الآخرة) حَسّنَهُ الترمذي (٧٩) .

ومثل العباسي لعقد الحديث بقول عبدالمحسن بن محمد الصوري :

لِمْ . تَغَرّبْتَ ؟ قُلْتُ:قالَ رسولُ الله ، والقَولُ مِنهُ نُصْحٌ ونُجْحُ
(سافِروا تَغْنَمــوا فقَــالَ : وقَــدْ قا
لَ تَمامُ الحديثِ (صُومُوا تَصِحُّوا) (٨٠)

وقول ابن خلكان :

انْظُرْ إلى عــارِضِــهِ فَــوْقَــهُ
لِحــاظُــهُ تُرسَلُ مِنها الحُتُوفْ
تُشــاهِد الجَنّــةَ في وَجْهِــهِ
لكِنّها تَحتَ ظِلالِ السُّيوفْ (٨١)

وقول ابن نباتة المصري :

---

(٧٨) عقود الجمان : ١٧٨ . ويبدو لي ان الاول عقد لقوله صلى الله عليه وسلم (ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء) . والثاني لقوله صلى الله عليه وسلم (انما يرحم الله من عباده الرحماء) . والله أعلم .

(٧٩) الموضع نفسه .

أقولُ لمَنْ يَتَشكّى الخطُوب
ويَحْذَرُ من مُوبِقاتِ الصُّـرُوفْ
عليكَ بأبوابِ سَيْفِ العُـلا
ملاذِ الفَقيرِ ، وأمْنِ المَخوفْ
تَجِدْ ظِلّـهُ جنّةً ، والجِنـان
بِلا شَكَّ تَحتَ ظِلالِ السُّيوف(٨٢)

وقول الحلي :

مُتْ شَهيداً في غَزالِ ألُوِفِ ... لَيِّنِ الأعطافِ غيرِ عَطوفِ (٨٣)
خَـدُّهُ دُونَ ظُـبا مُقْلَتَيْـهِ ... جَنّـةٌ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ(٨٣)

وقول ابن جابر :

عَمَلٌ إنْ لَمْ يُوافِقْ نيّةً ... فَهْوَ غَرْسٌ لا يُرى مِنْـهُ ثَمَرْ
إنّما الأعمالُ بالنِيّاتِ قَـدْ ... نَصّهُ عَن سَيِّدِ الخَلْقِ عُمَرْ(٨٤)

وقول أبي جعفر :

مَنْ سَلِمَ المُسلمونَ كُلُّهُمُ ... وأمِنُوا مِنْ لِسـانِهِ ويَـدِهْ
فَذلِكَ المُسْلِمُ الحَقيقُ بِـذا ... جاءَ حَديثٌ لاشَكَّ في سَنَدِهْ(٨٥)

وقول بعضهم :

إنَّ القُلـوبَ لأجْنادٌ مُجَنّدَةٌ ... بالاذْنِ مِنْ رَبِّها تَهوى وتَأْتَلِفُ
فما تَعارَفَ مِنهـا فَهْوَ مُؤْتَلِفٌ ... وَما تَناكَرَ مِنها فَهْوَ مُخْتَلِفُ

(٨٠ ـ ٨٣) معاهد التنصيص : ١٨٦/٤ ـ ١٨٧ . والاول منها في أنوار الربيع ٢٩٩/٦ ـ ٣٠٠ .

(٨٤) (٨٥) المرجع السابق الموضع ذاته .

عقد قوله صلى الله عليه وسلم : (الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) (٨٦) .

أما أصحاب البديعيات ، فقد نقل الينا ابن حجة الحموي ما عقدوه فقال : (وبيت الشيخ صفي الدين ، قوله :

ما شَبَّ مِنْ خصْلَتَيْ حِرصِي وَمِنْ أَمَلِي

سِوى مَديحاكَ في شَيبي وفي هَرَمِي

المعقود في هذا البيت من العقد ، قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يشيب ابن آدم ، ويشب فيه خصلتان : الحرص وطول الأمل) — وعقب الحموي على هذا بقوله — أما الشيخ صفي الدين ، فإنّي لم أصادف في بيته من عقد الحديث النبوي محلاً ، ولكن ذكر فيه حكاية حالةٍ .

وبيت الشيخ عزالدين في بديعيته قوله :

عَقْدُ اليَقينِ صَلاتِي ، والسلامُ عَلى مُحَمّدٍ دائماًمِنّيبلا سَأَمِ(٨٧)

وأما الشيخ عزالدين — غفر الله له — فانه ذكر في شرحه : أن الصحابة — رضي الله عنهم — قالوا : يا رسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ فقال — صلى الله عليه وسلم — « قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم » . وفي حديث آخر ، « قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم » . وفي الحديث « اكثروا من الصلاة عَلَيَّ » ومنه قوله تعالى : « ان الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا تسليماً »[٥٦ الأحزاب ٣٣] . وذكر أنه عقد الآية والحديث.

(٨٦) الوسيلة الادبية : ١/١٦٨ ، علوم البلاغة للمراغي : ٣٨٧ ، جواهر البلاغة: ٤١٨ .

(٨٧) الخزانة : ٤٥٩ .

ولم يظهر لي حل هذا العقد في أي موضع هو من البيت . وبيت بديعيتي :

قَدْ صَحَّ عَقْدُ بَيَاني في مَنَاقِبِهِ   وإنَّ مِنْهُ لَسِحْراً غير سِحْرِهِم

العقد هنا قوله صلى الله عليه وسلم : « ان من البيان لسحراً ») .

العقد من أقوال السلف

قال الحاتمي : ومن بديع التشبيه قول العباس بن الأحنف :

أُحْرَمُ مِنكُم بما أقولُ وَقَـدْ   نالَ بِهِ العاشِـقُونَ مَنْ عَشِقُوا

حتّى كَأنّي ذُبالَةٌ نُصِبَتْ   تُضِيءُ للنّاسِ ، وَهْيَ تَحْتَرِقُ

انتظم به قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أنالكم ذبالة تضيء وتحترق) (٨٨)

وقال ابن منقذ : ومنه قول أمير المؤمنين علي عليه السلام للاشعث بن قيس : (انك ان صبرت جرى القضاء عليك وأنت مأجور ، وان جزعت جرى القضاء عليك وأنت مأزور ، وإنك ان لم تسل احتسابا ، سلوت غفلة كما تسلو البهائم) عقد ابو تمام فقال :

أَتَصْبِرُ للبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً

فَتُؤْجَرَ ، أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ البَهَائِمِ (٨٩)

وقال ابن أبي الاصبع : ومنه قول أبي العتاهية :

ما بالُ مَنْ أَوَّلُه نُطْفَةٌ   وَجِيفَةٌ آخِـرُهُ يَفْخَـرُ

فأنه عمد الى قول علي بن أبي طالب عليه السلام :

ما لابن آدم والفخر ، وإنما أوله نطفة ، وآخره جيفة) فعقد شعرا (٩٠) وعدَّ

---

(٨٨) الحلية : ٢/٩٢ .

(٨٩) البديع : ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، تحرير التحبير ـ ٤٤١ ، الخزانة ـ ٤٥٩ ، معاهد التنصيص ـ ٤/١٨٧ .

(٩٠) التحرير ـ ٤٤١ ، الايضاح ، عروس الافراح ، مختصر التفتازاني ، مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ـ ٤/٥٢٢ ـ ٥٢٤ ، عقود الجمان ـ ١٧٨ ، معاهد التنصيص ـ ٤/١٨٢ .

القزويني منه قول الشاعر :

إلْبَسْ جَديدَكَ ، إنِّي لابِسٌ خَلَقي

ولا جَديدَ لمَنْ لا يَلْبَسُ الخَلَقا

وقال : عقد المثل (لا جديد لمن لا خلق له) قالته عائشة رضي الله عنها ، وقد وهبت مالاً كثيراً ، ثم أمرت بثوب لها أن يرقع . يضرب في الحث على استصلاح المال . (٩١)

وقول الآخر :

يا صاحِبَ البَغْيِ ، إنَّ البَغْيَ مَصْرَعَةٌ

فَارْبَعْ ، فَخَيرُ فِعالِ المَرْءِ أعْدَلُهُ

فَلَو بَغَى جبَلٌ يَوماً على جبَـلٍ

لانْدَكَّ مِنـهُ أعاليهِ وأسْفَلُهُ

عقد قول ابن عباس رضي الله عنهما : (لو بغى جبل على جبل لَدُكَّ الباغي) (٩٢)
وقال عبدالله بن مسعود : (إن الرجل ليظلمني فأرحمه) فنظمه محمود الوراق فقال :

إنّي شَكَرْتُ لِظالمي ظُلْمِـي

وَغَفَرْتُ ذاكَ لَهُ عَلى عِلْـمِ

ما زالَ يَظْلمُنـي وأرْحَمُهُ

حتّى رَثَيْتُ لَهُ مِنَ الظُلْمِ (٩٣)

---

(٩١) الايضاح ـ ٥٢٢/٤ ـ ٥٢٣ .
(٩٢) الموضع نفسه ، أنوار الربيع ـ ٣٠٢/٦ .
(٩٣) الحلية ـ ٩٣/٢ .

وقال الحاتمي : قال محمد بن سلام : قال معاوية بن أبي‌سفيان (إكرام الشاعر من بر الوالدين) فقدم على أبي أيوب المكي شاعر من واسط ، فمدحه، ونظم هذا الكلام ، فقال :

إنَّ مِنْ بِرِّ والِدَيْكَ جَميعـاً أَنْ تَرَخَّى مَسَرَّةَ الشُعَراءِ (٩٤)

وقال ايضاً : وقال عمر بن عبدالعزيز — رحمه الله — للقاسم بن محمد . ومحمد بن كعب القرظي : عظاني — فقال محمد بن كعب : (استيقن أنك أول خليفة تموت) .

وقال القاسم : (أبونا آدم أخرج من الجنة بذنب واحد .) فنظم قول القاسم محمود الوراق ، فقال :

تَصِلُ الذُنُوبَ إلى الذُنُوبِ وَتَرْتَجِي
دَرَكَ الجِنانِ بِها ، وفَوز العـابِدِ
ونَسِيتَ أنَّ اللهَ أَخـرجَ آدمـاً
مِنها إلى الدُنْيا بِذَنْبٍ واحِدٍ (٩٥)

وقال ايضاً : خرج عمر بن عبدالعزيز مع جماعة من أهله ، فمر بمقبرة ، فقال : قفوا حتى آتي الأحبة فأسألهم ، واسلم عليهم . فلما توسطها وقف فسلم ، ثم قال لاصحابه لـمّا عاد اليهم : ألا تسألون ما ذا قلت ؟ وماذا قيل لي ؟ قالوا : يُعَرِّفنا أمير المؤمنين . قال : لما وقفت وسلمت فلم يردُّوا ، ودعوت فلم يجيبوا ، نوديت : يا عمر ، أما تعرفني ؟ أنا الذي غيرت محاسن وجوههم ، ومزقت الاكفان عن جلودهم ، ومزقت المفاصل والاقدام ، ومنعتهم الأنفاس والكلام .

(٩٤) الحلية : ٩٢/٢ .
(٩٥) الموضع نفسه .

ثم لم يزل يبكي حتى سقط مغشيا . فنظر الى هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

إنّي سألْتُ التُـرْبَ ما فَعَلَتْ ... بَعدي وُجُوهٌ فيكَ مُنْـعَفِرَةْ
فجابَني صَيّرْتُ رِيْحَـهُـمُ ... تُؤْذِيكَ بَعدَ رَوائِحٍ عَطِـرَةْ
وأكَلْتُ أجْسـاداً مُنَعَّمَـةً ... كانَ النَعيـمُ يَصُـونُها نَضِرَةْ
لَمْ يَبْقَ غَيـرُ جماجِـمٍ بَلِيَتْ ... بيضٍ تَلوحُ وأعظُمٍ نَخِرَةْ (٩٦)

وقال عبدالله بن الزبير لما قتل أخوه مصعب : (إن التسليم والسلوة لحزماء الرجال ، والهلع لربّات الحجال) . عقده أبو تمام ، فقال :

خُلِقْنـا رِجالاً للتَجَلُّـدِ والأسى ... وتِلكَ الغَواني للبُكا والمآتِمِ (٩٧)

وقال الرشيد : (لو جمد الخمر لكان ذهبا ، أو ذاب الذهب لكان خمرا) فنظمه غيره فقال :

وَزَنّا لَهـا ذَهَبـاً جـامِـداً ... فكالَتْ لَنا ذَهَباً سـائِـلا (٩٨)

وقيل لاعرابي وقد خلا بمن أحب : ما رأيت ؟ فقال : (ما زال القمر يرينيها ، فلما غاب أرتنيه) . فنظم هذا الحسن بن سهل ، فقال :

أراني البَـدْرُ سُنَّتَها عِشـاءً ... فَلَمّا أزْمَعَ البَدرُ الأُفُـولا
أرَتْنيهِ بِسُنَّتِهـا فكانَـتْ ... مِنَ البَدرِ المُنَوَّرِ لي بَديلا

فنظر الى هذا البحتري ، فقال ولم يستوفه :

أضَرَّتْ بِضَوْءِ البَدرِ ، والبَدرُ طالِعٌ
وَقامَتْ مَقامَ البَدْرِ لَمّا تَغَيّبا (٩٩)

---

(٩٦) الحلية ــ ٢/٩٤ .
(٩٧) البديع ــ ٢٦٠ .
(٩٨) المرجع نفسه ــ ٢٥٩ .
(٩٩) الحلية ــ ٢/٩٤ ــ ٩٥ .

وسمع بعضهم قول العرب : (اذا فارق القمر الثريا ، فقد ولى الشتاء) فنظمه فقال :

إذا ما فَـارَقَ القَمَرُ الثُّـريّـا لِثالِثَةٍ فَقَدْ ذَهَبَ الشِّتاءُ (١٠٠)

فهذه هي الأمثلة التي تضمنتها الكتب المعنية بالبلاغة ، ووجوه تحسين الكلام المعروفة المتداولة أو اكثرها . وهي تكشف بوضوح تام أهمية القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في نظم النثر وكثرة ما نظم منهما اذا ما قيس بما نظم من غيرهما ويزيد في هذه الأهمية الحديث الذي عثرت عليه – عرضاً – في كتاب أمثال الحديث للرامهرمزي ،وهو ما سأورده مفصلاً لكونه من اسبق ما نظم شعراً في الاسلام واكثر هذه الأمثلة انطباقاً على النثر .

نص الحديث

حدثنا علي بن أحمد بن عمران المصيصي ، حدثنا عمرو بن عثمان بن كثير الحمصي ، حدثنا أبي ، حدثني عبدالله بن عبدالعزيز – يعني الليثي – حدثنا محمد ابن عبد العزيز عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة . وعن سعيد بن المسيب . عن عائشة رضي الله عنها .

قال أبو محمد : قال لي عبدالله بن أحمد بن موسى عبدان ، حدثنا عمر بن عثمان ، حدثنا أبي – يعني باسناده – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً لاصحابه :

أتدرون ما مثل أحدكم ومثل أهله وماله وعمله ؟ ؟

فقالوا : الله ورسوله أعلم . فقال :

---

(١٠٠) الصناعتين– ٢٢١ .

إنما مثل احدكم ومثل ماله وأهله وولده وعمله ، كمثل رجل له ثلاثة إخوة فلما حضرته الوفاة دعا بعض اخوته ، فقال :

إنّه قد نزل بي من الأمر ما ترى ، فمالي عندك، ومالي لديك ؟ ؟ فقال : لك عندي أن أمرضك ، ولا أزايلك ، وأن أقوم بشأنك . فإذا مت غسلتك ، وكفنتك ، وحملتك مع الحاملين ، أحملك طوراً وأميط عنك طورا ، فاذا رجعت أثنيت عليك بخير عند من يسألني عنك . هذا أخوه الذي هو أهله ، فما ترون ؟ ؟

قالوا : لا نسمع طائلاً يا رسول الله .

ثم يقول للأخ الآخر : ترى ما قد نزل بي ، فمالي لديك ، ومالي عندك ؟ فيقول : ليس عندي غناء ، إلا وأنت في الأحياء ، فاذا مت ذهب بك في مذهب ، وذهب بي في مذهب .

هذا أخوه الذي هو ماله ، كيف ترونه ؟ ؟

قالوا : لا نسمع طائلاً يا رسول الله . ثم يقول لأخيه الآخر :

ترى ما قد نزل بي ، وما ردّ به عليّ أهلي ومالي ، فما لي عندك ومالي لديك ؟ ؟ فيقول :

أنا صاحبك في لحدك ، وأنيسك في وحشتك . وأقعد يوم الوزن في ميزانك، فأثقل ميزانك .

هذا أخوه الذي هو عمله ، فكيف ترونه ؟ ؟ قالوا : خير أخ ، وخير صاحب يا رسول الله . قال : فإنّ الأمر هكذا .

قالت عائشة — رضوان الله عليها — فقام اليه عبدالله بن كرز ، فقال : يا رسول الله ، أتأذن لي أن أقول على هذا أبياتاً ؟ فقال : نعم . فذهب، فما بات إلا ليلة . حتى عاد الى رسول الله صلّى الله عليه وسلم — فوقف بين يديه واجتمع الناس . وأنشأ يقول :

وإنّي وأهلي والّذي قدْ ملكتْ يدي ... كَداعٍ إليهِ صَحْبَهُ ثمَّ قائلِ

لإخوتهِ إذْ هُمْ ثلاثةُ إخوةٍ ... أعينوا على أمرٍ بيَ اليومَ نازلِ

فِراقٌ طويلٌ غيرُ مُتّئقٍ بهِ ... فماذا لديْكُمْ في الّذي هو غائلي

فقالَ امرؤٌ منهمْ أنا الصّاحبُ الّذي ... أُطيعُكَ فيما شئتَ قبلَ التزايُلِ

فأمّا إذا جدَّ الفراقُ فإنّني ... لِما بيْنَنا منْ خلّةٍ غيرُ واصلِ

فخذْ ما أردتَ الآنَ منّي فإنّني ... سيُسلكُ بي في مَهْيَلٍ منْ مَهايلِ

وإنْ تُبْقِني – لا تُبْقِ – فاستنْفِدنّني

وعجّلْ صلاحاً قبلَ حتْفٍ مُعاجلِ

وقالَ امرؤٌ قدْ كنتُ جِدّاً أُحِبُّهُ

وأُوثِرُهُ منْ بينِهمْ في التفاضُلِ

غَنائيَ أنّي جاهدٌ لكَ ناصحٌ

إذا جدَّ جِدُّ الكرْبِ غيرُ مُقاتِلِ

ولكنّني باكٍ عليكَ ومُعْوِلٌ

ومُثْنٍ بخيرٍ عندَ منْ هوَ سائلي

ومُتّبِعُ الماشينَ أمْشي مُشيِّعاً

أُعينُ برِفْقٍ عُقْبةً كلَّ حاملِ

الى بيتِ مثْواكَ الّذي أنتَ مُدْخَلٌ

وأرجِعُ مقْروناً بما هوَ شاغِلي

كأنْ لمْ يكُنْ بيْني وبيْنَكَ خِلّةٌ

ولا حُسْنُ وُدٍّ مرّةً في التباذُلِ

فذلك أهلُ المرْءِ ذاك غَناؤهُمْ

ولَيْسُوا وإنْ كانُوا حِراصاً بِطائلِ

وقالَ امرؤٌ مِنْهُم أنا الأَخُ الا تـرى
أخـاً لَكَ مِثْلي عِنْدَ كَرْبِ الزَّلازِلِ
لَدَى القَبْرِ تَلقانِي هُنالِكَ قاعِـداً
أُجادِلُ عَنْكَ القَولَ رَجْعَ التَجادُلِ
وأَقْعُدُ يَوْمَ الوَزنِ في الكِفَّةِ الـتي
تكـونُ عَلَيها جاهِداً في التَثاقُـلِ
فَلا تَنْسَني وَاعْلَمْ مكـاني فإنّـني
عَلَيكَ شَفِيقٌ ناصِـحٌ غَيرُ خـاذِلِ
فَذلكَ ما قَدَّمْـتَ مِنْ كُلِّ صـالحٍ
تُلاقِيــهِ إنْ أَحْسَنْتَ يَوْمَ التَواصُلِ

قالت : فبكى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبكى المسلمون من قوله .

وكان عبدالله بن كرز لا يمر بطائفة من المسلمين ، إلا دعوه واستنشدوه فأذا أنشدهم بكوا .

توثيقه وأهميته

أخرجه بلفظه وسنده الرامهرمزي في كتابه أمثال الحديث : ١١٥ – ١١٩ وورد عنه في الكنز : ٢٠ – ٢٢٩ – ٢٣١ . وعقب عليه السيوطي قائلاً فيه : (أخرجه الرامهرمزي في الأمثال ، وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثي عن محمد بن عبد العزيز الزهري : ضعيفان) .

وقال ابن حجر في الاصابة في ترجمة عبد الله بن كرز الليثي – ٤–٢١٧ – ٢١٨ (وقع ذكره في حديث لعائشة ، أورده جعفر الفريابي في كتاب الكُنى له . وابن أبي عاصم في الوحدان ، وابن شاهين ، وابن منده في

الصحابة ، وابن أبي الدنيا في الكفالة ، والرامهرمزي في الأمثال . كلهم من طريق محمد بن عبد العزيز الزهري عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة .

إني ومالي والذي ملكت يدي ... كداعٍ اليـه صحبه ثم قائل
لاصـ حابهاذ هــم ثلاثة اخوة ... أعينوا على أمري الذي بي نازل

وقد أخرجه الرامهرمزي في الأمثال بسند آخر عن أبي بن كعب مرفوعاً به من غير ما ذكر للشعر والشاعر : ١١٤ ــ ١١٥ .

وذكر في الكنز ــ ٢٠ ــ ٢٣٢ ــ ٢٣٣ . وعقب عليه السيوطي بقوله : (أخرجه الرامهرمزي في الأمثال ، وفيه أبو بكر الهذلي : واهٍ) .

وذكر الذهبي هؤلاء الثلاثة : عبد الله بن عبد العزيز الليثي ، ومحمد بن عبد العزيز الزهري ، وأبو بكر الهذلي في الضعفاء .

غير أن ضعف السند لا يوجب ضعف المتن . فقد أخرج الطبراني فــي الكبير والأوسط عن النعمان بن بشير مرفوعاً به الحديث بسياق المثل مختصراً. وأحد أسانيده في الكبير رجاله رجال الصحيح ، كما في مجمع الزوائد للهيثمي ــ ١٠ ــ ٢٥١ ــ ٢٥٢ . كما أخرج الحاكم حديث النعمان بن بشير مرفوعاً به في المستدرك ــ١ / ٧٤ ــ ٧٥ ، ٣٧٢ باسناد صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي في تصحيحه .

وأخرجه البزار بسياق المثل أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً به (مثل ابن آدم وماله وأهله وعمله كرجل له ثلاثة اخوة ... الخ) ورجاله رجال الصحيح . كما في مجمع الزوائد ــ ١٠ ــ ٢٥٢ .

وورد الحديث بسياق المثل ــ أيضاً ــ في الأمثال من الكتاب والسنة غير أنه في البخاري ــ ٨ / ١٣٤ ، ومسلم ــ ٤ / ٢٢٧٣ ، والترمذي ــ ٤ / ٥٨٩، والنسائي ــ ٤ / ٤٣ ، وأحمد ــ ٣/ ١١١ عن أنس بن مالك مرفوعاً به . واقتصر على : (يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ، ويبقى معه

واحد : يتبعه أهله ، وماله ، وعمله . فيرجع أهله وماله ،ويبقى عمله) واللفظ للبخاري ، والخلاف بينهم فيه طفيف . وهو كذلك في الترغيب ٢ / ١٨٢ ، ٦ / ١٢ فضلاً عما وافق فيه الحاكم والطبراني . وهو كذلك في المشكاة ــ ٢ ــ ٦٥٠ ، والكشف ــ ٢ــ ٣٨٤ فصحته ــ متنا واسناداً في هذه الكتب ــ أغنى من أن يشار اليها بعد اتفاق الأربعة وأحمد .

ومن الجدير بالملاحظة أن الترمذي كان قد خصص لهذا النص من (باب ما جاء مثل ابن آدم ، وأهله وولده ، وماله وعمله) .

وعقب قائلاً : (هذا حديث حسن صحيح) . والمتن عنده ــ كما عند الثلاثة الآخرين وأحمد ــ لا يكاد يزيد على عنوان الباب إلا قليلاً . ولم يورد في الباب غيره ، وليس في النص الذي أورده ما يشعر بالتمثيل المعهود في أمثال القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف المصرح بمثايتها. تلك الأمثال التي قال فيها الرامهرمزي في مقدمة كتابه أمثال الحديث .

(هذا ذكر الأمثال المروية عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهي على خلاف ما رويناه من كلامه المشاكل للأمثال المذكورة عن متقدمي العرب . فإنّ تلك تقع مواقع الافهام باللفظ الموجز المجمل . وهذه بيان وشرح وتمثيل يوافق أمثال التنزيل) .

كما أن النص لا يشبه أمثال النبي صلى الله عليه وسلم ــ الموجزة السائرة التي تشبه أمثال العرب ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (هدنة على دَخَن) وأشباهه . انظر في هذا الأمثال في القرآن الكريم والأمثال في الحديث النبوي الشريف جمع وتخريج ودراسة لكاتب هذه السطور . فكيف يخصص الامام الترمذي ــ رحمه الله ــ باباً ، ويعنونه بعنوان لا يكاد يزيد على الفاظ المتن لو لم يكن أصل الحديث مطولاً واختصر ومهما يكن من شيء فلو أننا أدرجنا متون ما انتهى المحدثون الى الحكم بصحتها متناً واسناداً لما ندّ من حديث عائشة رضي الله عنها شيء عن تلك المتون ، سوى ما كان من أمر نظمه شعرا.

وليس لنا أن نطمع بتضمن كتب الحديث لهذه القصيدة مع ما عهدناه من ضيقها بالشعر ، وخلوها منه مع ما كان له من أثر فعّال في الصراع بين المؤمنين من جهة ، والكافرين والمشركين ، والكتابيين من جهة أخرى ، وتضمنهما اكثر من حديث وثيق الصلة بالشعر والشعراء .

ويكفينا أنّ أياً من المحدثين لم يشر الى ضعف المتن . وضعف السند كما أسلفنا لا يوجب ضعف المتن ، وقد وقعنا على ما صح سنداً ومتنا وجاء بسياق المثل وعلى اسلوبه مختصرا ، وليس الحديث من أحاديث الأحكام ، وانما هو من احاديث الآداب ، ومعروف تساهل المحدثين فيها وقد وقفنا على كل ما تضمنته الكتب البلاغية من أمثلة العقد . وليس بينها مثل واحد وثق من من قريب أو بعيد ، فلا أقل من أن يكون مثلها إن لم يكن أوثق منها بكثير . فالمثل حديث نبوي شريف وعاقده صحابي وليس بين الذين عقــدوا من عاصره أو جاء بعده بقليل فضلاً عن أن يسبقه . وقــد رأينا أن عقده اكثر انطباقاً على حد العقد من غيره فقد أخذ الحديث بجماة لفظه ومعناه ولم يكن له من غرض غير نظمه وأجاد في نظمه إجادة أبكت رسول الله صلى الله عليه وسلم — والمسلمين من حوله ، وصار عبد الله بن كرز لا يمر بطائفة منهم ، إلا دعوه ، واستنشدوه ، فاذا انشدهم بكوا . وكل الذين ذكرهم البلاغيون، والمعنيون بصناعة الشعر وقواعده ، لم يكن بينهم صحابي واحد . ويمكن أن يعد الأخطل من أقدم من ذكروهم في هذا الشأن حيث قال الحاتمي : (وأبو العتاهية ، ومحمود الوراق شديدا اللهج بذلك كثيراً في اشعارهما. ولصالح بن عبد القدوس درر من ذلك ، إلا أنه لم يكثر اكثارهما) (١٠١) .

ومن تقدم هؤلاء الأخطل . عمد الى قول بعض اليونانيين :

(العشق شغل قلب فارغ) فنظمه ، فقال :

وكم قتلت أروى بلاديةٍ لها ۝ وأروى لِفُرّاغ الرجال قتولُ

فأين هذا من ذاك عقداً وعاقداً ومعقودا ؟ ؟

(١٠١) الحلية — ٢/٩٢ .

الاستشهاد النحوي

في كتاب شواهد التوضيح والتصحيح (لابن مالك)

الدكتور طه محسن

توطئة :

كتاب (الجامع الصحيح) لأبي عبد الله البخاري (ت ٢٥٦ هـ) من أصحّ كتب الحديث النبوي ، ذاع صيته ، وعلت منزلته ، وصار محلّ حفظ وعناية وتقدير من لدن العلماء ، فأقيمت عليه الدراسات والشروح والمختصرات .

وحينما عزم العالم المحدّث شرف الدين اليونيني (٦٢١–٧٠١هـ) على مقابلة اصوله ، ندب جمعاً من الفضلاء ينظرون في نُسخ معتمدة مضبوطة ، وفي الحضرة جمال الدين محمد بن مالك النحوي (٦٠٠ –٦٧٢ هـ) يسمع ما يقرأون ، ويحل ما يستشكلون . وفي ذلك يقول : (فكلما مرّ بهم افظ ذو إشكال بينت فيه الصواب ، وضبط على ما اقتضاه علمي بالعربية . وما افتقر إلى بسط عبارة ، واقامة دلالة ، أخرت أمره إلى جزء أستوفي فيه الكلام مما يحتاج إليه من نظير وشاهد ، ليكون الانتفاع به عاماً ، والبيان تاماً إن شاء الله تعالى) (١)

ثم قيد ملاحظاته في كتاب سماه (شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات

(١) ارشاد الساري ، القسطلاني ١/١٤ .

الجامع الصحيح) (٢) . اختار فيه مئة وثمانين نصاً من صحيح البخاري (٣) وجعلها محور دراسة لغوية ، ناقش فيها مئة وسبعاً وأربعين مسألة في قواعد اللغة العربية (٤) .

فهو إذن من مصادر الدراسة النحوية القيمة التي تعتمد على اســتقراء كلام العرب ، مؤكدة النظر في حديث الكتب الصحيحة .

واذا كان الكتاب قد صنف – في ظاهر الأمر – لتوجيه إعراب نصوص من (الجامع الصحيح) وتصحيح ما أشكل منها ، فاني أرى أن ابن مالك كان يسعى من وراء هذا العمل إلى مناقشة مسائل كانت محل خلاف بين النحاة ، وأنه أراد أن يسدّ خللا رآه في مناهج الذين لم يتوخوا استقراء الكلام العربي كما يجب ، أو اطّرحوا كثيراً من الشواهد النثرية الفصيحة ، ولا سيما التي احتفظت بها كتب الحديث النبوي . فلم يكن لابن مالك بدّ من مخالفتهم فيما ذهبوا إليه ، منطلقاً من نصوص حديث البخاري : لما له في نفوس المسلمين من الاحترام والاكبار .

ومن هنا نجد الكتاب متميزاً من غيره بهذه الخصيصة ، إضافة إلى

---

(٢) طبع لأول مرة في إله آباد بالهند عام ١٣١٩ هـ . ثم نشره عن هذه النسخة محمد فؤاد عبد الباقي بالقاهرة عام ١٩٥٧ . وهي التي اعتمدت عليها في البحث . وقد وقع في هذه المطبوعة أخطاء وتحريفات لم تؤثر على منهج البحث ونتائجه . وأصلحت ما يحتاج الى ذلك في مواطن عن مخطوطة (شواهد التوضيح) الموجودة في مكتبة الأوقاف ببغداد ، وهي برقم (٦٥٨١) وأشرت إلى ذلك في الهوامش .

(٣) منها اثنان وسبعون حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم . وما بقي فهو من كلام الصحابة رضي الله عنهم كابن عباس وحذيفة وعمر وعائشة وعلي وأبي موسى وحارثة بن وهب . وغير الصحابة كأبي جهل وورقة بن نوفل وعمر بن عبد العزيز ومترجم كلام هرقل .

(٤) وهي مسائل نحوية ، ما عدا سبعاً في الصرف وأربعاً في اللغة . وقد عمل محقق الكتاب في آخره فهرساً بالمسائل التي عالجها ابن مالك . ولاحظت أن المؤلف لم يسر في الدراسة على سنن معين ، فلا هو اقتفى أثر البخاري في تبويب كتابه ، ولا هو جمع المسائل المتماثلة في موضوعاتها المخصصة .

كثرة شواهده ووفرتها إذا ما قيست بشواهد ابن مالك في مصنفاته الاخرى، فقد جمع فيه على صغر حجمه أكثر من سبع مئة وعشرين شاهداً نحوياً على اختلاف أنواعها .

وهي ظاهرة لا نجد لها مثيلاً عند النحاة قبل ابن مالك (٥) .

وهذه الميزات أضفت عليه أهمية بالغة زاد منها ما لمؤلفه من شهرة واسعة في ميدان العربية . فهو أبرز نحوي في القرن السابع الهجري ، كان(يضرب به المثل في دقائق النحو وغوامض الصرف ، وغريب اللغات ، وأشعار العرب . مع الحفظ والذكاء والورع والديانة ، والتحري لما ينقله والتحرير فيه) (٦).

وأجمع الذين ترجموا له على أنه كان حريصاً على العلم وحفظه ، كثير المطالعة ، لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه في محله ،وكان لا يرى إلا وهو يصلي أو يتلو أو يصنف أو يقرئ . ويكفي دليلاً على ذلك أنه حفظ يوم وفاته ثمانية شواهد (٧) .

وكانت نه مشاركة في القراءات والتصنيف فيهـــا (٨) . وهو من الرجال المعدودين الذين اهتموا بالحديث في عصره (٩) . قال عنه السيوطي ت ٩١١ هـ (وكان أمة في الاطلاع على الحديث ، فكان أكثر ما يستشهد بالقرآن . فان لم يكن فيه شاهد عـَدَل َ الى الحديث،فان لم يكن فيه شاهد

---

(٥) ولأبي البقاء العكبري (ت ٦١٦ هـ) كتاب (اعراب الحديث النبوي) يقوم على إعراب ما يشكل من الالفاظ الواقعة في الأحاديث ليس غير . أما كتابنا موضوع البحث،فهو – كما سيظهر – دراسة نحوية متميزة تقوم على مناقشة النحاة،والاستناد الى التعليل والقياس والاحتجاج بالشواهد المستفيضة . فالكتابان مختلفان في المادة والمنهج .

(٦) نفح الطيب ، المقري ٢/٢٢٨ .

(٧) نفح الطيب ٢/٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٨) طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ٨/٦٧ . غاية النهاية ، ابن الجزري ٢/١٨٠ .

(٩) طبقات الشافعية الكبرى ، ، السبكي ٨/٦٨ .

عدل إلى أشعار العرب) (١٠) .

قدمت هذا بين يدي الموضوع لأبيّن أنّ صلة المؤلف بالتراث النحوي الذي خلفه السابقون ، والتراث الأدبي الذي انكب على تدبره وحفظه مكنته من توسيع دائرة الاستشهاد ، إذ لم يقف عند ما تركه النحاة الذين تقدموا عليه ، بل أضاف شواهد كثيرة إلى ما عرف قبله . ويستطيع القارئ أن يقف في كل صفحة من صفحات الكتاب على شواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومن أشعار العرب وأقوالهم ،ومن خلال ذلك تتجلى قابلية المؤلف المتميزة ومقدرته على استخدام هذه النصوص بطريقة نحن أحوج ما نكون إليها ما دمنا نسعى إلى تيسير لغتنا .

واقتضت الدراسة أن أستعرض الأنواع التي استدل بها على ذلك الترتيب لأخلص إلى بسط منهجه العام في الاستشهاد .

القرآن الكريم وقراءاته :

استند ابن مالك الى الذكر الحكيم في الاحتجاج للمسائل التي عرض لها وتوجيه مشكل النصوص التي اختارها ، وكان يهرع إليه ما وجد الى ذلك سبيلا ، حتى بلغت شواهده اثنتين ومئتي آية.(١١)وهو يأخذ بظاهرها ، ولا يؤثر التأويل والتقدير ومن أمثلة ذلك تجويزه استعمال « من » في ابتداء غاية الزمان . قال: (وهو ما خفي على أكثر النحويين فمنعوه تقليداً لسيبويه في قوله : وأما « من » فتكون لابتداء الغاية في الأماكن) (١٢) . واستدل بقوله تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه) (١٣)

---

(١٠) بغية الوعاة ١٣٤/١ .
(١١) يضاف اليها (١٥) آية مكررة .
(١٢) شواهد التوضيح ص ١٢٩ - ١٣٠ . وينظر الكتاب ٢٢٤/٢ .
(١٣) التوبة ، آية ١٠٨ .

وهو مذهب الكوفيين . وتأوّل البصريون (من أول يوم) على تقدير : من تأسيس أول يوم (١٤). وما اختاره ابن مالك هو البعيد عن التكلف الظاهر .

واهتمامه بالقراءات جعله يعتمد عليها اعتماداً كبيراً . وبلغ احتجاجه بها في أربعة وأربعين موضعاً ، صرح بأسماء أصحابها ولا سيما القراءُ السبعة ، ومن ذلك أنه أيّد بقراءة حمزة : (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) (١٥) بجر الأرحام ، جواز العطف على ضمير الجر بغير إعادة جواز العطف على ضمير الجر بغير إعـــادة الجار . وهو ممـــا منعه البصريون ورفضوا شواهده (١٦) . ونظير هذا تجويزه نصب المضارع بعد الفاء في جواب « لعل » وهو مما لم يجوزه البصريون (١٧) .وحجته في ذلك قراءة عاصم : (لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى) (١٨) ، وقراءة حفص (لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلعَ إلى إلٰه موسى) (١٩) .

ولم يعتمد المؤلف على السبعة فحسب ، بل أخذ بقراءة غيرهم كطلحة ابن مصرّف وأبي العالية وابن محيصن وأبي رجاء العطاردي .وربما أورد القراءة وهي شاذة مستشهداً لما ذهب إليه ومدعيا القياس فيها . ومن ذلك تأييده بقراءة الأعمش (ولا تمنن تستكثر) (٢٠) بالنصب ، جواز النصب على إضمار « أن » (٢١) وهو مذهب الكوفيين (٢٢) . ومثله تجويزه حذف

---

(١٤) تنظر المسألة (٥٤) من الانصاف ، للانباري ٣٧٠/١ .
(١٥) النساء ، آية : ١ . وينظر شواهد التوضيح ص ٥٣ .
(١٦) ينظر الانصاف ٤٦٣/٢ ، المسألة (٦٥) .
(١٧) البحر المحيط ، أبو حيان ٩٩/١ و ٤٦٥/٧ . الجنى الداني ، المرادي ص ١٢٩ .
(١٨) عبس ، آية : ٣ و ٤ .
(١٩) غافر ، آية : ٣٦ .
(٢٠) المدثر ، آية : ٧٤ .
(٢١) شواهد التوضيح ص ١٧٩ .
(٢٢) تنظر المسألة (٧٧) من الانصاف ٥٥٩/٢ .

همزة الاستفهام في غير الشعر إذا كان معنى ما حذفت منه لا يستقيم إلا بتقديرها . واستدل بنصوص منها قراءة ابن محيصن (سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم) (٢٣) بهمزة واحدة . وهو خلاف مذهب سيبويه (٢٤) .

إنّ ما ذكرته كان في معرض التمثيل ليس غير ، لبيان أنه كان يستشهد بالقراءات ويحتج بها حتى ولو خالفت المشهور من آراء النحاة من غير تأويل في الغالب . وعلى كثرة ما أورد منها لا نجده يضعفها أو يرد شيئاً منها ، كما هو مذهب نحاة من أهل البصرة ، وإنما أخذ بها ، سواء منها ما كان صادراً عن القراء السبعة أم العشـــرة أم كان من الشـــواذ . فهي مصـــدر من مصادر الشواهد النحوية ، يستشهد بها في تأييد مذهبه ، ويقيس عليها (٢٥) ، ولم يتردد في اتباع ما يقضي به المنطق المعقول (من التعويل على اللفظة الواحدة تأتي في القـــرآن ظاهرها جواز ما يمنعه النحـــاة ، فيعول عليها في الجواز ومخالفة الأئمة . وربما رجح ذلك بأبيات مشهورة) ٢٦) .

وهذا مذهب صحيح ، لأن القراءات كلها شواهد نحوية فصيحة ، وهي خير وأقوم من الشواهد الشعرية . ولأن (القرآن فوق مستوى التأويلات ، وأن فيصل الرأي فيه صحة الاستشهاد النحوي والبلاغي بظاهره من غير نظر الى قلـــة أو كثرة ... ذلك أن كل ما يجيء في القـــرآن قوي فصيح ، بل هو في أسمى مراتب القوة والفصاحة) (٢٧) .

الحديث النبوي :

يعدّ ابن مالك في طليعة النحاة الذين استندوا الى الحديث الشريف في

(٢٣) سورة البقرة ، آية : ٦ . وينظر شواهد التوضيح ص ٨٧ — ٨٨ .
(٢٤) الكتاب ١٧٤/٣ . الجني الداني ص ١٠٠ .
(٢٥) باستثناء موضعين . ينظر : شواهد التوضيح ص ١١١ و ١٦١ .
(٢٦) اللغة والنحو بين القديم والحديث ، عباس حسن ص ١٠٠ .
(٢٧) المصدر نفسه ص ١٠٣ — ١٠٤ .

تأييد القواعد النحوية ، بل هو أول من توسع في الاستشهاد به حتى صار من مميزات مذهبه النحوي . ومن ثـمّ اقيم عليه النكير ورمي بالخروج على سنن النحويين المتقدمين والمتأخرين (٢٨) .

وليس هذا مجال البحث عن اختلاف العلماء في الاستشهاد بالحديث . ولا هو مجال الكلام على موقف النحاة ومناقشتهم فيما قبلوه منه وما رفضوا الأخذ به ، فقد سجلت فيه البحوث والمصنفات (٢٩) . ولكن المقصود في هذا البحث بيان موقف ابن مالك منه في (شواهد التوضيح والتصحيح).

إنّ عنوان الكتاب يشير قبل كل شيء إلى أنه شواهد لنصوص مشكلة في صحيح البخاري ، أراد المؤلف أن يوجه إعرابها ، ويُنَظّر لها بكلام العرب الفصحاء ، فكان من هذه النظائر الحديث النبوي . إذ بلغ ما استشهد به خمسة وتسعين حديثاً ، منها ستون برواية البخاري (٣٠) ، وستة عشر عزاها ابن مالك الى كتب الحديث وصحاحه . ورجع محقق الكتاب مثلَها عدداً إلى مظانه من المصادر الحديثية . وما بقي بدون عزو لم يتجاوز الثلاثة ، وهي على قلتها معضدة بشواهد قرآنية وشعرية (٣١) .

وبهذا نعرف أنه لم يكن في استشهاده حاطب ليل ، ولا كان من عادته

---

(٢٨) كان أول المنكرين عليه وأشدهم أبا حيان النحوي ت ٧٤٥ هـ . تنظر مقالته في الاقتراح ، للسيوطي ص ٢٣ . وناقش كلمة أبي حيان غير واحد من الباحثين . والتفصيل في كتاب (الشواهد والاستشهاد في النحو) لعبد الجبار علوان ص ٣٠٩ وما بعدها .

(٢٩) منها : الاستشهاد بالحديث ، لمحمد خضر حسين ، مجلة مجمع اللغة العربية ١٩٩/٣ . و : في اصول النحو ، لسعيد الأفغاني ص ٤٢ وما بعدها . والشواهد والاستشهاد في النحو، لعبد الجبار علوان النايلة ص ٣١٢ وما بعدها . والحديث النبوي في الدراسات اللغوية والنحوية ، لمحمد ضاري حمادي . وفي الحديث الشريف والنحو ، للدكتور خليل بنيان الحسون ، مجلة الاستاذ العدد الثاني ، بغداد ١٩٧٩ .

(٣٠) استناداً الى احالات المحقق في هوامش الكتاب .

(٣١) تنظر الصفحات ٣ و ٣٩ و ٧١ من شواهد التوضيح .

أن يستدل (في إثبات القواعد النحوية مما روي في الحديث وفي الآثار مما نقله الأعاجم الذين يلحنون ، ومما لم يتعين أنه من لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من لفظ الصحابة) (٣٢) ، وانما كان متثبتاً مما ينقل ، مطمئناً الى صحة ما يقول . حتى انه كان يذكر اختلاف الروايات (٣٣) . ويسرد أسماء الرواة ، كقوله في تجرد الفعل « أوشك » من « أنْ » (ولا أعلم تجرده من « أنْ » إلا في قول الشاعر :

يوشك من فرّ من منيته   في بعض غراته يوافقها

وفيما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة والدارمي عن المقدام بن معدي كرب الكندي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يوشك الرجل متكئاً على أريكته ، يحدث بحديث من حديثي ...) (٣٤)

إنّ موقف ابن مالك في عدّ الحديث من مصادر الاحتجاج الرئيسة فريد بالقياس الى من تقدم عليه . ولم يفته التصريح بذلك في الكتاب . ومن ذلك :

قوله في وقوع الشرط مضارعاً والجواب ماضياً : (والنحويون يستضعفون ذلك ، ويراه بعضهم مخصوصاً بالضرورة . والصحيح الحكم بجوازه مطلقاً لثبوته في كلام أفصح الفصحاء ...) (٣٥)

وقوله وهو يرجح اتصال الضمير في نحو « كنته » : (وأما مخالفة السماع فمن قبل أنّ الاتصال ثابت في أفصح الكلام المنثور ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه : إن يكنه فلن تسلط عايه ، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله) (٣٦) .

(٣٢) من كلام أبي حيان في ارتشاف الضرب ص ٨٤ . ينظر كتاب : أبو حيان النحوي ، للدكتورة خديجة الحديثي ص ٣٣٢ .

(٣٣) تنظر الصفحات ٦٥ و ٧٢ و ٨٧ و ٨٩ من شواهد التوضيح .

(٣٤) شواهد التوضيح ص ١٤٤ .

(٣٥) شواهد التوضيح ص ١٤ — ١٥ .

(٣٦) شواهد التوضيح ص ٢٧ — ٢٨ .

وقوله في وقوع خبر كاد مقروناً بـ « أنْ » (فاذا انضم إلى هذا التعليل استعمال فصيح ، ونقل صحيح ، كما في الأحاديث المذكورة ، تأكد الدليل، ولم يوجد لمخالفته سبيل) (٣٧) .

وهذه النظرة في الاحتجاج بالحديث مكنته من أن يعرض آراءه بدقة، ويتخذ لنفسه موقفاً خاصاً حسب ما يمليه عليه اجتهاده ، ويهديه اليـه تفكيره. مستهدياً بما ارتضاه من شواهد .

ومن الأمثلة التي كان فيها الحديث حكمه الفيصل :

– جواز ثبوت الخبر بعد « لولا » (وهو مما خفي على النحويين إلا الرمانيّ والشجري) (٣٨) .

– وجواز حذف الموصول لدلالة صلته عليه ، وهو (مما انفرد به الكوفيون ووافقهم الاخفش . وهم في ذلك مصيبون ... وأحسن ما يستدل به على هذا الحكم قوله صلى الله عليه وسلم : مثل المهجّر كالذي يهدي بدنة ، ثم كالذي يهدي بقرة ، ثم كبشا ، ثم دجاجة ، ثم بيضة) (٣٩).

– وجواز (العطف على ضمير الرفع المتصل غير مفصول بتوكيد أو غيره ، وهو مما لا يجيزه النحويون في النثر إلا على ضعف ، ويزعمون أنّ بابه الشعر . والصحيح جوازه نثراً ونظماً . فمن النثر ما تقدم من قول علي وعمر رضي الله عنهما) (٤٠) .

هذه أمثلة من فيض الآراء التي بثها في الكتاب ، واحتج لكل منها بحديث أو أكثر مرتضيا القياس عليها.وما لم يقس عليه – مع ندرته – فهو مؤوّل (٤١)، كقوله صلى الله عليه وسـلم في صفة الدجـال (وإنّ بين عينيـه مكتوبٌ

(٣٧) شواهد التوضيح ص ١٠١ .
(٣٨) شواهد التوضيح ص ٦٥ .
(٣٩) شواهد التوضيح ص ٧٦ – ٧٧ .
(٤٠) شواهد التوضيح ص ١١٤ .
(٤١) وحكم بالشذوذ على أربعة مواضع سأذكرها . تنظر الصفحات : ٧٩ و ١١١ و ١٥١ و ١٦٠ .

كافر) في رواية رفع (مكتوب) . أوّله على حذف اسم « إنّ » وما بعد ذلك جملة في موضع رفع خبرها (٤٢) .

ومهما يكن من شيء فابن مالك انفرد عمن سبقه من النحاة حين احتج لمجموعة مسائل نحوية بأكثر من مئتين وسبعين حديثاً متوسعاً في هذا الشأن توسعاً نفّس فيه على العربية بعض الشيء .

ولا يسع الدارس إلا الاطمئنان إلى سلامة ما ذهب إليه في عدّ الاحاديث من المصادر التي يعتمد اللغوي والنحوي عليها (٤٣) .

وكان مجمع اللغة العربية معضداً لهذا المذهب ، إذ جاء في الموضوع ضمن أبحاثه ما يأتي : (وخلاصة البحث أنا نرى الاستشهاد بألفاظ ما يروَى في كتب الحديث المدونة في الصدر الأول ، وان اختلفت فيها الرواية ، ولا يستثنى إلا الألفاظ التي تجيء في رواية شاذة ، أو يغمزها بعض المحدثين بالغلط أو التصحيف غمزاً لا مردّ له) (٤٤) .

الشعر :

وعلى حسب الطريقة التي سار عليها في الاحتجاج ، فقد قبل الشعر واعتد به ، وبلغ ما ذكره في الكتاب مئتين وعشرين شاهداً . وكان يستشهد أحيانا للمسألة الواحدة بعدة أبيات كي يؤكد صحة ما ذهب اليه . ومن ذلك :

— في وقوع الشرط مضارعاً والجواب ماضياً . قال : (والنحويون يستضعفون ذلك . ويراه بعضهم مخصوصاً بالضرورة . والصحيح الحكم بجوازه مطلقاً ، لثبوته في كلام أفصح الفصحاء ، وكثرة صدوره عن

(٤٢) شواهد التوضيح ص ١٤٨ .

(٤٣) مدرسة الكوفة ، الدكتور مهدي المخزومي ص ٦٠ .

(٤٤) من بحث عنوانه (الاستشهاد بالحديث) لمحمد خضر حسين ، في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (ج ٣ ص ٢٠٨ سنة ١٩٣٦) . وقرار المجمع بجواز الاحتجاج بالحديث في (ج ٤ ص ٧ سنة ١٩٣٧) . ينظر : الشواهد والاستشهاد في النحو ص ٣٣٧ .

فحول الشعراء (٤٥) . ثم يستشهد بثمانية أبيات .

– وفي العطف على ضمير الجر بغير إعادة الجار . قال : (وهو ممنوع عند البصريين إلا يونس وقطرباً والأخفش . والجواز أصح من المنع ؛ لضعف احتجاج المانعين ، وصحة استعماله نظماً ونثراً) (٤٦) . ثم يذكر ستة أبيات من النظم .

وهو لا يُعنى بذكر المصادر التي استقى منها شواهده الشعرية (٤٧) . كما أنه تركاً كثرها بدون نسبة الى قائليها ؛ إذ بلغ ما لم ينسبه قائل مئة الى وثمانية وستين شاهداً . واستعمل عند ايرادها عبارة : (كقول الشاعر) أو (كقول الآخر) . وتلك طريقة سار عليها النحاة على اختلاف مذاهبهم النحوية وأماكنهم وأزمانهم (٤٨) .

ودرج المؤلف على أن يذكر البيت بتمامه ، لكنه اجتزأ موطن الشاهد في سبعة مواضع من الكتاب ، مكتفيا بشطر أو أقل من الشطر (٤٩) .

وأظهرت الدراسة أنه تعدّى ما في كتب النحو من شواهد إلى مصادر اللغة والبلاغة والأدب والحديث والدواوين، وراح يلتقط منها ما يؤيد رأيه. وبلغت الأبيات التي لم ترد في مصادر النحو قبله حوالي المئة ، منها ستون تقريبا رددها النحاة الذين جاءوا بعده (٥٠) . ولعله تفرد بذكرها شواهد نحوية . وهي بلا شك إضافة جديدة إلى ما عرف منها قبلاً .

(٤٥) شواهد التوضيح ص ١٤ – ١٥ . (٤٦) شواهد التوضيح ص ٥٣ .

(٤٧) باستثناء ستة مواضع صرح فيها بنقله عن سيبويه (ص ٥٥ و ١٠١ و ١٣٠) والفارسي (ص ٣٥ و ٥٩) . والبطليوسي (ص ٨٨) .

(٤٨) الشواهد والاستشهاد في النحو ص ١٢٣ .

(٤٩) تنظر الصفحات ٥٤ و ٦٧ و ٧٩ و ١٤٦ و ١٥٤ و ١٥٥ .

(٥٠) هذا الاحصاء مقارب ، اعتمدت فيه على مصادر النحو المطبوعة ، وعلى تعليقات محقق شواهد التوضيح ، و (معجم شواهد العربية) لعبدالسلام هارون الذي رجع الشواهد الى أكثر من ثلاثة وأربعين كتابا . منها أربعة وثلاثون من مصادر النحو المؤلفة قبل ابن مالك أو في حياته .

إنّ كثرة احتجاجه بالشعر لا يعني أنه اعتمد اعتماداً زائداً على الشعر دون النثر في الاستشهاد ، كما فعل غيره من النحاة (٥١) . بل كان يؤيد القواعد بالشعر ، كما أيدها بالنثر . وهي طريقة مطردة في الكتاب ، ومنهج سليم مستحسن . و (كان يشعر بضرورته وأهميته في الاستشهاد بعض النحاة القدامى . قال أبو اسحاق الشاطبي المتوفى سنة ٩٧٠ هـ في شرحه على ألفية ابن مالك : أما الاعتماد على الشعر مجرّداً عن نثر شهير يضاف اليه أو يوافق لغة مستعملة يحمل ما في الشعر عليها فليس بمعتمد عند أهل التحقيق ؛ لأنّ الشعر محلّ الضرورات) (٥٢) .

أقوال العرب ولغاتهم :

ومما يسلك في كلام العرب ثلاثون نصاً نثرياً أوردها المؤلف في (شواهد التوضيح) منقولة عن كتب النحو واللغة في الغالب (٥٣) . وذكر رواة احدى عشرة عبارة منها (٥٤) .

وكونت هذه الأقوال رافداً آخر من روافد الاستشهاد عنده ، عزز بها آراءه ، من غير نظر الى مذهب من رواها ، بصرياً كان أو كوفياً ؛ لأن الشاهد عنده حجة ما رواه نحوي ثقة .

---

(٥١) أظهرت الدراسة التي قام بها الاستاذ عبد الجبار علوان في كتابه الشواهد والاستشهاد في النحو ص ١٣١ وما بعدها أن من المآخذ على النحويين في شواهدهم اعتمادهم الزائد على الشعر دون النثر في تقعيد القواعد . وأرى أن ابن مالك اختلف عن هؤلاء جميعاً في هذا الاتجاه .

(٥٢) الشواهد والاستشهاد في النحو ص ١٣٥ .

(٥٣) وما روي في كتب الحديث من أقوال الصحابة والتابعين فهو يجري مجرى الحديث الشريف في الاستدلال .

(٥٤) وهم أبو عمرو بن العلاء (ص ٨٦) ويونس (ص ٩٤) والفراء (ص ٢٢ و ٦٠) وسيبويه (ص ١٤١ و ١٤٨ و ٢١٧) والكسائي (ص ٢٩ و ١٠٦ و ٢١٥) والأخفش (ص ١٤٨) .

وأضيفُ إلى ما ذكرت إفادته في مناقشاته النحوية من لغات العرب التي وجد فيها حلاً لمشكل نصوص البخاري إذا خالفت قياساً عند النحاة . واقتصر في الكتاب على لغة ربيعة وبني الحارث وسليم وقريش وتميم(٥٥). وهم فصحاء موثوق بعربيتهم .

المنهج العام للإستشهاد في الكتاب

لقد مكن ابنَ مالك سعةُ ثقافته ، وتنوع مصادرها ، وكثرة محفوظه من رسم منهج متميز في الاستدلال بالشواهد والقياس عليها .

وأهم ملامح هذا الاتجاه احترامه الشديد للمسموع . وهذا الاحترام هو الذي حمله في كثير من الاحيان على قبول الشواهد من القراءات غير المشهورة أو الشاذة ، ومن الشعر وأقوال العرب والحديث الشريف ، ما دامت الرواية موثوقا بها . قاعدته في ذلك : (لا عدول عن الاتباع عند صحة السماع) (٥٦) . ومن هنا لم يتردد عن تغيير بعض الاصول التي وضعت سابقاً لأجل أن تتفق مع الشاهد المسموع حين يتعارض مع القياس(٥٧)

وحتم عليه أخذه بالشواهد والقياسُ عليها مخالفة نحاةٍ التزموا بمقاييس لا يؤيدها السماع . فقد صرح بمخالفته (أكثر النحويين) (٥٨) ومخالفة البصريين (٥٩) وسيبويه (٦٠) والفراء (٦١) .

وقد يوحي اليه السماع برأي جديد يخالف فيه جميع النحاة ، كمذهبه في وجوب حذف اللام الفارقة إذا كان بعد ما و ولي « إن » المخففة نفيٌ ،

---

(٥٥) تنظر الصفحات ٣٧ و ٣٩ و ٤٩ و ٩٧ و ١٨٧ و ٢١٢ .
(٥٦) شواهد التوضيح ص ٩٠ .
(٥٧) ينظر على سبيل المثال ص ٥٢ من شواهد التوضيح .
(٥٨) شواهد التوضيح ص ٩ و ٦٥ و ٦٧ و ١٠٤ .
(٥٩) شواهد التوضيح ص ٤٢ و ٥٣ و ٩١ .
(٦٠) شواهد التوضيح ص ٣٠ و ١٠٧ و ١٢٦ و ١٣٠ .
(٦١) شواهد التوضيح ص ١٢٠ و ١٦٥ .

واللبس مأمون ، محتجاً بقول الشاعر (٦٢) .

إنِ الحقُ لا يخفى على ذي بصيرة   وإن هو لم يعدم خلاف معاند

وقول الآخر :

أما إن علمتُ الله ليس بغــافل   فهان اصطباري أن بليت بظالم

وإلى جانب السماع فانه اتخذ القياس دليلاً دعم به جملة من آرائه ، وجعله أداة يستند إليها في مناقشاته ، ويبني عليها أحكامه . والمسائل التي أيدها بالقياس على قلتها (٦٣) لا يجيز فيها إلا ما كان معضــداً بالســماع . وليس في الكتاب موضــع واحد يعتمد فيه القياس الذي لا يؤيده شاهد أو أكثر .

فمما قاس فيه وأيده بالسماع ، أو أجازه سماعاً وأيده بالقياس :

جواز وقوع التمييز بعد فاعل « نعم » و « بئس » ظاهراً .

قال (وهو مما منعه سيبويه ، فانه لا يجيز أن يقع التمييز بعد فاعل نعم وبئس إلا إذا أُضمر الفاعل) (٦٤) .

وحذف « أنّ » بعد لفظ « بيد » في مثل الحديث الشريف :(نحن الآخرون السابقون يوم القيامة . بيد كلّ أُمة أُوتوا الكتاب من قبلنا) التقدير : بيد أنّ كل . قال : (وهذا الحذف في أنّ نادر ، ولكنه غير مستبعد في القياس على حذف أنْ ، فانهما أُختان في المصدرية وشبيهتان في اللفظ) (٦٥)

إنّ منهجه في المسموع والمقيس على العموم مقبول صحيح . وكثرة التجويز في مذهبه — على ما أرى — مظهر من مظاهر التيسير في العربية ؛ لأن فيه تسهيل فهم كلام العرب على الدارس ، بعيداً عن القيود التي يعسر

(٦٢) شواهد التوضيح ص ٥٢ و ٥٣ . ويراجع ص ١٣٦ .
(٦٣) وهي ست في الصفحات ١٧ و ٢٧ و ١٠٠ و ١٠٩ و ١٣٦ و ١٥٥ .
(٦٤) شواهد التوضيح ص ١٠٧ .
(٦٥) شواهد التوضيح ص ١٥٥ .

الانفكاك عنها . وكان هو يصرح في مناسبات بأنه اختار هذا المذهب لأنه الأسهل ، أو لبعده عن التكلف أو التعقيد (٦٦) . وربما نَعى على نحاة كانوا يضيقون واسعاً ، كقوله مثلاً : (ومن خصّ هذا الحذف بالشعر حاد عن التحقيق ، وضيق حيث لا تضييق ، بل هو في غير الشعر قليل ، وهو فيه كثير) (٦٧) . وقوله : (وقد خولفت القاعدة في هذه الأحاديث ، فعلم بالتحقيق (٦٨) عدم التضييق ، وأنّ من خصه بالشعر أو بالصورة المعينة من النثر مقصر في فتواه عاجز عن نصرة دعواه) .

لقد شمل قياسه النحوي الشائع من كلام العرب وغير الشائع . وكان لا يرفض في الغالب النادر ولا القليل . فربما اكتفى بشاهد واحد واستنبط منه قاعدة وقاس عليها (٦٩) وأعفاه هذا من التأويل النافر والتمحل البعيد ، فقليلاً ما نجده يؤول شاهداً أو يحمله على الشذوذ أو الضرورة .

أقول قليلاً ؛ لأنّ الكتاب لم يخل من الحكم على نصوص بالضرورة أو الشذوذ .

أما الشذوذ فلم يتجاوز الحكم به المواضع الآتية :

١ـ دخول لام الابتداء على خبر كان (٧٠) .

٢ـ وقوع خبر « عسى » و « كاد » مفرداً ، وخبر « جعل » جملة اسمية وفعلية فعلها ماض مصدر بـ « كلما » و « إذا » (٧١) .

٣ـ سدّ الحال مسدّ الخبر مع صلاحيتها لأن تجعل خبراً (٧٢) .

---

(٦٦) شواهد التوضيح ص ١٢ .
(٦٧) شواهد التوضيح ص ١٣٤ .
(٦٨) في شواهد التوضيح ص ١٣٨ : بتحقيق . وما أثبته عن مخطوط الأوقاف رقم ٦٥٨١ .
(٦٩) ينظر مثلا شواهد التوضيح ص ١٣٥ و ١٥٦ .
(٧٠) شواهد التوضيح ص ١٥١ .
(٧١) شواهد التوضيح ص ٧٩ .
(٧٢) شواهد التوضيح ص ١١١ .

٤– إثبات ألف « ما » الاستفهامية بعد حرف الجر (٧٣) .

وقد لاحظت أنه حين حكم على شواهد هذه المسائل بالشذوذ لم يعلل لما ذهب إليه . وهو خلاف المنهج الذي سار عليه وارتضاه في أبواب الكتاب.

واذا وجدنا له عذراً في الموضع الأول والثاني ، لأن لكل منهما شاهداً فرداً ، فلست متفقاً معه في الأخيرين ، ولا سيما الرابع الذي ذكر له ستة شواهد فصيحة ، في حين قاس في مواضع على شاهد واحد . ولكي يتضح الأمر أكثر أنقل نصّ عبارته إذ يقول : (وشذ ثبوت الألف في « بما أهللت» و « لا يبالي المرء بما أخذ من المال » و « إني لأعرف مما هو » . لأن « ما » في المواضع الثلاثة استفهامية مجرورة ، فحقها أن تحذف ألفها ؛ فرقاً بينها وبين الموصولة . هذا هو الكثير . ونظير ثبوت الألف في الأحاديث المذكورة ثبوتها في « عما يتساءلون » (٧٤) على قراءة عكرمة وعيسى . ومن ثبوتها في الشعر قول حسان رضي الله عنه :

على ما قــام يشتمني لئيــم كخنزير تمرغ في رماد

وقول عمر بن أبي ربيعة :

عجباً ما عجبت مما لو ابصــر ت خليلي ما دونه لعجبتــا

لمقال الصفي فيم التجنــي ولما قد جفوتني وهجرتا

وفي عدول حسان عن « علام يقوم يشتمني » وعدول عمر عن « ولم » مع إمكانهما (دليل على أنهما مختاران لا مضطران) (٧٥) .

وفي تعليقه على البيتين إشعار بأن هذا الاستعمال خارج عن الشذوذ الى الندرة ، وهو أيضاً يقودنا إلى معرفة مذهبه في (الضرورة) ،فهي عنده –

(٧٣) شواهد التوضيح ص ١٦٠ .
(٧٤) النبأ ، آية ١ .
(٧٥) شواهد التوضيح ص ١٦٠ – ١٦١ .

كما يبدو – ما لا مندوحة للشاعر عن النطق به (٧٦) . ويجلي هذا المعنى أكثر تعقيبه – وهو يحتج لاقتران خبر « كاد » بـ « أن » – على قول الشاعر :

أبيتم قبول السلم منا فكــدتم

لدى الحرب أن تُغنوا السيوف عن السلّ

يقول : (وهذا الاستعمال مع كونه في شعر ليس بضرورة ؛ لتمكن مستعمله من أن يقول :

أبيتم قبول السلم منا فكدتم

لدى الحرب تغنون السيوف عن السلّ(٧٧)

ولا أريد هنا مناقشة رأيه هذا ، ولكني أرى أنه يبتعد عن الحكم على النصوص بالضرورة ما وجد الى ذلك سبيلا ، ولذلك لم ترد إلا في ثلاثة مواضع اشتملت على خمسة أبيات (٧٨) . وهي إذا ما قيست بوفرة النصوص قليلة جداً .

وهذا يدل على أنه كان يتجنب التعميم في الأحكام ، ويلتزم غالباً الدقة في صوغها مع الاحترازات المتكررة ، فهو يكثر في نعت الشواهد من لفظ (الغريب والنادر والقليل والضعيف والأكثر والأشهر والأفصح) . وكل منها له قيمته ودلالته على الحكم الذي ورد فيه . ومن الأمثلة التي تؤيد هذا الزعم :

قوله : (وفي « فما جعل يشير » غرابة : لأنّ أفعال الشروع إن صحبها نفي كان مع خبرها ، نحو : جعلت لا ألهو . وقد ندر في هذا الحديث

(٧٦) تسهيل الفوائد ، ابن مالك ، ص ٤٨ (من مقدمة المحقق) .

(٧٧) شواهد التوضيح ص ١٠١ .

(٧٨) تنظر الصفحات ٢٦ و ٢٧ و ١٦٦ و ١٧٦ .

دخول « ما » على جعل) (٧٩) .

وقوله (وفي « ليمشطُ » شاهد على وقوع الجملة القسمية خبراً... وهذا في خبر كان غريب، وانما يكثر في حبر المبتدأ ... وفي « لَيردُ عليّ أقوام » شاهد على وقوع المضارع المثبت المستقبل جواب قسم غير مؤكد بالنون . وفيه غرابة . وهو مما زعم أكثرالنحويين أنه لا يجوز إلا في الشعر... والصحيح أنه كثير في الشعر قليل في النثر) (٨٠) .

وقولــه : (وأمر المتكلم نفســه بفعل مقرون بالــلام فصيــح قليل في الاستعمال (٨١) .

وقوله : (وله « دون مَن أحوجُ اليه » أصله : دون مَن هو أحوج اليه ، فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ مع كون الصلة غير مستطالة ، وفيه ضعف ، وهو مع ذلك مستعمل) (٨٢) .

أخلص من هذا الى أنّ لابن مالك وجهة نظر اختص بها في الاستدلال بالشواهد . وله كما يرى بعضهم (طريقة سلكها بين طريقي البصريين والكوفيين . فان مذهب الكوفيين القياس على الشاذ ، ومذهب البصريين اتباع التأويلات البعيدة التي يخالفها الظاهر . وابن مالك يعلم بوقوع ذلك من غير حكم عليه بقياس ولا تأويل، بل قليلاً يقول: إنه شاذ أو ضرورة)(٨٣).

وهذا اسلوب علمي نعته ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) بقوله : (وهذه الطريقة طريقة المحققين . وهي أحسن الطريقين) (٨٤) .

(٧٩) شواهد التوضيح ص ٧٩ .
(٨٠) شواهد التوضيح ص ١٦٥ .
(٨١) شواهد التوضيح ص ١٨٧ .
(٨٢) شواهد التوضيح ص ١٢٣ . وينظر الصفحات ١٧ – ١٨ و ١٠٣ و ١٥٤ و ١٦٦ و ٢٠٥ .
(٨٣) الاقتراح في علم اصول النحو ص ١١٤ .
(٨٤) المصدر نفسه .

وبعد :

فانه لم يتهيأ لكتاب نحوي في مثل حجم (شواهد التوضيح والتصحيح) ما تهيأ له من النصوص ؛ إذ ضم حوالي سبع مئة وعشرين شاهداً على اختلاف أنواعها . وفيه انفرد المؤلف بذكر أبيات شعرية كثيرة استدل بها على قواعد نحوية . عِدّ عن شواهد الحديث النبوي الذي توسع في الاستشهاد به ، فاستدرك على النحاة جملة من القواعد ، وكثيراً من الشواهد ، ونفّس على العربية بعض الشيء .

ومن محاسن منهجه أنّ شواهد النثر تتكافأ وشواهد الشعر أو تزيد عليها، بخلاف النحاة الذين اهتموا اهتماماً زائداً بالشعر .

واعتماد المؤلف على النصوص الكثيرة ، والاسلوب العربي الفصيح وسم كتابه بالسمة التطبيقية الوصفية التي ترفض التعليل والتأويل في الغالب ، وتتوخى التسهيل والتيسير .

وكان لهذا المنهج تأثير واضح على كثير ممن جاء بعده من النحاة الذين تلقفوا شواهده ورددوها في كتبهم واثقين بها ، وطالما يجد المطالع فيها (أنشده ابن مالك) و (ذكره ابن مالك) و (استدل بقوله) و (مثّل بقوله صلى الله عليه وسلم ...) (٨٥) .

وكذلك لقي مذهبه في الاستشهاد عامة ، وبالحديث النبوي خاصة قبولاً حسنا لدى العلماء والباحثين ، ولا سيما المحدثين الذين ضموا

(٨٥) ينظر على سبيل المثال : شروح الألفية لابن الناظم ص ٩٩٧ و ٢٧٢ و ٢٧٧ وابن عقيل ١ / ١٩٤ و ٥٧٥ والأشموني ١ / ٢١٥ و ٢٣٣ و ٤ / ١٢ والجنى الداني ، للمرادي ص ١٠ و ١٩٧ و ٢٢٨ و ٢٦٣ و ٣١٤ و ٣١٧ ومغني اللبيب ، لابن هشام ١ / ٦٧ و ٩٦ و ٩٩ و ٥١٤ و٥٢١ ، وشرح التصريح ، للعليمي ٣٦٥/١ و ٣٧٧ و ٣٩٢ .

أصواتهم إلى صوته في هذا الاتجاه (٨٦) .

وما أجدر دارسينا في هذا الوقت أن يشيحوا وجوههم عن كتب النحو التقليدية التي درجوا على اختيار شواهدهم الجاهزة منها ، وأن يحذوا حذو ابن مالك وهم يُعدّون لطلبة النحو مادته ، فيوجهون نظرهم الى كتب الحديث والسيرة والأدب ودواوين الشعر ؛ ليتخيروا منها الأساليب الرفيعة في الاستشهاد والتمثيل .



(٨٦) منهم : طه الراوي في نظرات في اللغة والنحو ص ٢١ والدكتور مهدي المخزومي في مدرسة الكوفة ص ٦٠ والدكتور صبحي الصالح في دراسات في فقه اللغة ص ١٢٥ وعباس حسن في اللغة والنحو بين القديم والحديث ص ٩٩ و ١٠٤ . وعبد الجبار علوان في الشواهد والاستشهاد في النحو ص ٣٢٢ وما بعدها .

الأعلام المؤنثة الثلاثية الساكنة الوسط
بين الصرف وعدمه

الدكتور احمد نصيف الجنابي
كلية الآداب – الجامعة المستنصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

« المقدمة »

لقد اخترتُ من مسائل الممنوع من الصرف مسألة « الاعلام المؤنثة الساكنة الوسط » ، ولاختلاف الآراء فيها الى درجة قد تصل الى حد التناقض ، جمعت الآراء التي قيلت فيها وناقشتها معتمداً على الشواهد العربية التي ترجع الى عصور الاستشهاد اللغويّ ، ومتبعاً المنهج الاستقرائيّ لدواوين شعرية متعددة ، منها الجاهليّ ومنها الاسلامي ، وخرجت برأي موحد جديد يريح طالب الموضوع من الحيرة حين يواجه كل الآراء المتضاربة ، وقد جاء بحثي في ثلاثة أقسام :

الاول : الآراء في سياقها التاريخيّ .

الثاني : مناقشة الآراء . . .

الثالث : رأيُنَا الجديد . . .

وختمت البحث بالنتائج الجديدة التي توصلت اليها .

والله أسألُ أن يجنبني العثرات وان يهديني لأقوم السبل . وهو حسبي ونعم الوكيل .

★ ★ ★

أولاً : الآراء في سياقها التاريخي

(١) رأي أهل المساواة :

وهم عيسى بن عمر الثقفي (المتوفى ١٤٩ ﻫ) ، ويونس بن حبيب (المتوفى ١٨٢ ﻫ) ، وابو عمر الجرْمي : صالح بن اسحاق (المتوفى ٢٢٥ﻫ)، والاخفش الاوسط (المتوفى ٢١٥ﻫ)، وابو سعيد السيرافي(١)(المتوفى ٣٦٨ﻫ). يقول الاخير في حكم اعلام الاناث الساكنة الوسط : (الاخلاف بين المتقدمين أنها يجوز فيها الصَّرْف ومنع الصرف ، والأقيسُ عند سيبويه ترك الصرف لانه قد اجتمع فيه التأنيث والتعريف ، ونقصان الحركة ليس مما يغيّر الحكم . وانما صرَفَهُ الخفة في قلة الحروف والحركات ، فقاومت خفتها أحد الثقلين . وكان الزجاج يخالف من مضى ولا يجيز الصرف لعدم ثبوت حجته عنده . . والقول عندي ما قاله من مضى لانهم ما أجمعوا على الصرف الا لشهرة ذلك في كلام العرب) (٢) .

فالسيرافي مع المتقدمين من النحاة الذين قالوا بجواز الصرف وعدم الصرف .

ووافق ابو بكر ابن الانباري (وهو من النحاة الكوفيين) أهل المساواة فقال : (إعلم أنّ اسماء المؤنث كلها لا تُجرى (٣) الا يسيراً من أسمائهم نحو : هند ودعد وجُمْل ونُعْم . وما لا يجرى لا يدخله تنوين ولاخفض لأن اعرابه مشبه باعراب المستقبل فمنعوه التنوين كما منعوا المستقبل ، من ذلك قولهم : قامتْ زينب ونوارُ ، واكرمت زينبَ ونوارَ ، ومررت بزينبَ

---

(١) المذكر والمؤنث ، لابن الانباري / ١٣٠ ، وضرائر الشعر ، لابن عصفور /٢٥ ، ووافقهم ابن السراج في كتابه : اصول النحو ٨٦/٢ .

(٢) هامش الكتاب ٢٢/٢ .

(٣) لا يجرى : اصطلاح كوفي يراد به : ما لا ينصرف
وما يجرى : هو ما ينصرف .

ونوارَ ، « تنصب » زينب ونوار وهما في موضع خفض لأنّ ما لا يُجرى لا يدخاه الخفض . فأما هند ودعد وجمل ونعم فانّ للعرب فيه مذهبين : منهم من لا يجريها . ومنهم من يُجريها ، فمن لم يجرها قال : قامت هندُ ودعدُ وجملُ ونُعْمُ ، واكرمت هندَ ودعدَ وجُمْلَ ونُعْمَ ، ومررت بهندَ ودعدَ وجملُ ونعمَ . ومن اجراها قال : قامت هندٌ ودعدٌ وجملٌ ونعمٌ ، واكرمت هنداً ودعداً وُجملاً ونُعماً ، ومررت بهندٍ ودعدٍ وُجملٍ ونُعمٍ) (٤) .

ووافق الاعلم الشنتمريّ في شرحه لشواهد سيبويه أهل المساواة ، فأجاز الصرف وعدم الصرف (٥) .

(٢) رأي الخليل وسيبويه والمبرد :

يرى هؤلاء أنّ كل اسم مؤنث سميته بثلاثة أحرف فكان الاوسط منها ساكناً ، وكانت شيئاً مؤنثاً او اسماً الغالب عليه التأنيث فانت بالخيار : إن شئت صرفته وان شئت لم تصرفه ، وترك الصرف أجود (٦) .

وفي هذا يقول المبرد : (اعلم أنّ المؤنث التأنيث الصحيح بالعلامة والسمة ، فكل ما كان منه بألف التأنيث مقصورة او ممدودة فهو لا ينصرف في معرفة ولا نكرة ، وما كان بالهاء كثرت حروفه او قلّتْ ، او بالبنية نحو : عناق ، فجميع ذلك لا ينصرف في المعرفة وينصرف في النكرة إلاّ ما ذكرنا مما هو على ثلاثة أحرف اوسطها ساكن لا علامة فيه نحو : قدر وشمس ودعد وجمل ، يجوز صرفه في المعرفة والنكرة ، وترك الصرف أجود في المعرفة) (٧) .

---

(٤) المذكر والمؤنث / ١٢٣ – ١٢٤ .

(٥) الاعلم على الكتاب ٢٢/٢ .

(٦) الكتاب ٢٣/٢ وما ينصرف وما لا ينصرف ، للزجاج / ٤٩ .

(٧) المذكر والمؤنث ، للمبرد / ١٢٥ وينظر كتابه : المقتضب ٣٥٠/٣ .

(٣) رأي الكسائي (المتوفى ١٨٩ هـ) :

من المؤسف حقاً أن يضيع كتاب الكسائي في « النحو » وكتابه في معاني القرآن .

والذلك نلجأ الى المراجع التي نقلت من كتبه ولا سيما « اعراب القرآن » لابي جعفر النحاس .

فقد نقل أربع اشارات او نصوص نسبها للكسائي او للكوفيين في هذه المسألة .

ففي النص الاول نقل ان الكسائي قال : يجوز أن تصرف مصر وهي معرفة لخفتها يريد أنها مثل هند (٨) .

وفي النص الثاني يقول : لو سميت امرأة بزيد لم ينصرف وأن سميتها بهند جاز الصرف عند الخليل وسيبويه والكسائي والفراء ، إلا أن الاختيار عند الخليل وسيبويه ترك الصرف ، وعند الكسائي والفراء الاجود «الصرف»(٩)

وفي النصّ الثالث يقول : حكى الكسائي وغيره من الكوفيين أن العرب تصرف كل ما لا ينصرف الا افعل منك (١٠) .

وفي النص الرابع يقول : زعم الكوفيون أن كل ما لا ينصرف يجوز أن ينصرف الا أفعل من كذا ؛ لا يجوز صرفه بوجه في شعر ولا في غيره اذا كان معه مِنْ(*) (١١) .

ومن هذه النصوص المهمة نرى أن الكسائي يرى أنّ أعلام الاناث الثلاثية الساكنة الوسط يجوز فيها الصرف وعدمه ، والوجه الاول أجود .

غير أننا لا نوافق النحاس على قوله : إن الفراء يوافق الكسائي في هذه

---

(٨) اعراب القرآن ١٨٢/١ . (٩) نفسه ١٥٥/٣ .

(١٠) اعراب القرآن ٥٧٣/١ (١١) نفسه ٢٣/٣ .

(*) ويريد بافعل من كذا : اسم التفضيل المجرد من (أل) ، نحو قوله تعالى : « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها او ردوها » .

المسألة لأنّ له رأياً آخر ، هو الآتي . . .

(٤) رأي الفرّاء (المتوفى ٢٠٧ هـ) .

يرى الفراء في هذه المسألة رأياً طريفاً ، فيقول : (واسماء البلدان لا تنصرف خفّتْ او ثقُلتْ ، واسماء النساء اذا خفّ منها شيء جرى اذا كان على ثلاثة أحرف وأوسطها ساكن مثل دعد وهند وجُمْل . وانما انصرفت اذا سمّي بها النساء ؛ لانها تُرَدَّدُ وتكثر بها التسمية فتخف لكثرتها ، واسماء البلدان لا تكاد تعود) (١٢) .

فالفراء يرى أن هذه الاعلام الثلاثية الساكنة الوسط مصروفة ، وذلك لكثرة التسمية بها فتخفف لذلك فتصرف .

لكنّ حكم الفراء على اسماء البلدان بأنها ممنوعة من الصرف خفّتْ او ثقلتْ حكم يحتاج الى تعقيب . فهو ان اراد اسماء البلدان مطلقاً فحكمه غير دقيق ، لانه قد نقل عنه ابن الانباري الكوفيّ (١٣) الثقة أنه قال : « قُباء واضاح يذكّران ويؤنثان فمن ذكّرهما أجراهما ، ومن أنّثهما لم يجرهما » . وان أراد ما اتفق على كونه مؤنثاً صحت دلالة عبارته .

(٥) رأي الزجّاج (المتوفى ٣١١ هـ) .

أما الزجاج فيخالف جمهور البصريين — وهو منهم — فيرى أن هذه الاسماء أحق بالمنع من الصرف وخطأ من أجاز صرفه . وهذا نصّ كلامه :

(اذ كان المؤنث على ثلاثة أحرف اوسطها ساكن وكان ذلك الاسم لشيء مؤنث او مخصوص به التأنيث فانه لا ينصرف في المعرفة وينصرف في النكرة ،وزعم سيبويه والخليل وجميع البصريين .

---

(١٢) معاني القرآن ١/٤٢ — ٤٣ ، ويوافقه ابن الانباري على التعليل فيقول : (وقد سمت العرب بها فاكثرت وشببت بها الشعراء حتى صارت عندهم بمنزلة لمن وقع عليه هذا الاسم فخفت وأجريت لهذا المعنى) ، المذكر والمؤنث ص ١٢٨ .

(١٣) المذكر والمؤنث / ٤٦٩ وتنظر ص ٤٧٩ ، أيضاً .

أنّ الاختيار ترك الصرف وانك إن شئت صرفت .

وكذلك ان كان اسماً يغلب عليه التأنيث نحو : هند ودعد ، فالاختيار أن نقول : رأيت دعدَ ، وزعموا أنه يجوز صرف المؤنث في المعرفة الـــذي اوسطه ساكن ، وأنشد سيبويه : (١٤) .

لم تتقنعْ بفضل مئـــزرهـــا دعدٌ ولم تُغْذَ دعـــد بالعُلَب

فصرفها في البيت ومنعها من الصرف فيه أيضاً . . .) ويستطرد فيقول : (أما ما قالوه من أنه لا ينصرف فحقٌ صواب . واما اجازتهم صرفه فاحتجوا فيه بأنه لما سكن الاوسط وكان مؤنثاً لمؤنث خفّ فصرف ، وهذا خطأ . لانه لو كانت هذه العلة توجب الصرف لم يجز ترك الصرف ، وهم مجمعون معنا على أنّ الاختيار ترك الصرف وعليهم أن يبينوا من اين يجوز الصرف . فاذا بينوا وجب الا يكون ترك الصرف .

فاما الاستشهاد بأن الشاعر في البيت صرف وترك الصرف ، فاما ترك الصرف فجيّد وهو الوجه ، وأما الصرف فعلى جهة الاضطرار وقد أجمعوا على أن جميع ما لا ينصرف يصرف في الشعر) ، انتهى باختصار (١٥) .

فخلاصة رأيه أن العلم الثلاثي الساكن الوسط ممنوع من الصرف . ولا يجوز صرفه الا في الضرورة الشعرية . وان جميع البصريين ذهبوا الى أن الاجود ترك الصرف .

لكن القسم الأخير من رأي الزجاج غير دقيق ، لان قسماً من البصريين قالوا بجواز الوجهين على حد سواء ، وهم أهل التسوية .

---

(١٤) رواية سيبويه ٢٢/٢ : (لم تتلفع . . .) وهو كذلك في جل الاصول النحوية واللغوية ينظر : التبصرة والتذكرة ٥٥٢/٢ واللسان (دعد) ١٤٦/٤ .

ونسب البيت لجرير وهو في ديوانه ونسب لعبيد الله بن قيس الرقيات وهو في ملحق ديوانه، وارجح نسبته للاخير لبطء أيقاعه وخفته .

(١٥) ما ينصرف وما لا ينصرف /٤٩ — ٥٠

(٦) رأي الزّجاجيّ :

أما الزجاجي فقد وردت عنه روايتان الاولى في كتابه « الجمل » فذكر أنه يجوز فيه الوجهان الصرف ومنع الصرف (١٦) .

والرواية الاخرى جاءت في « أماليه » ، فقد حكى أنّ من العرب من يصرف (في الكلام) جميع ما لا ينصرف إلا أفعل منك (١٧) .

(٧) رأي الصميري (*) (من تلاميذ ابي سعيد السيرافي) :

أما « الصيمري » فقد تردد بين كون عدم الصرف هو الاجود كرأي المبرد وغيره ، وكونه لغة الى جانب الصرف ، فقال : (وما كان من اسماء المؤنث على ثلاثة أحرف واوسطه ساكن ففي ذلك خلاف : منهم من يصرفه لخفته ، ومنهم من لا يصرفه لاجتماع التأنيث والتعريف ، وهو القياس . وذلك نحو : هند ودعد وجُمْل .

قال الشاعر :

لم تتلفعْ بفضل مئزرها دعدٌ ، ولم تُسْقَ دعدُ في العلب

فجمع بين اللغتين اصرف دعداً الاولى ولم يصرف الثانية) (١٨)

(٨) رأي أبي عليّ وعبدالقادر الجرجاني :

ويرى ابو عليّ في « الايضاح » ، وعبدالقاهر الجرجاني في شرحه (١٩)، أن صرف المؤنث اذا كان ساكن الوسط جائز ، ويضيفان : « ولا يحمل على ذلك ضرورة الشعر » .

ويتابعهما على هذا الرأي ابن سيده (المتوفى ٤٥٨ هـ) فيقول : (اذا سميت مؤنثاً باسم ثلاثي ساكن الوسط كنت مخيراً في الصرف وتركه ولا

---

(١٦) شرح جمل الزجاجي ، لابن عصفور ٢٠٧/٢ .

(١٧) أمالي الزجاجي / ٨٤ .

(*) هو ابو محمد عبد الله بن علي بن اسحاق الصيمري من شيوخه السيرافي والرماني والاخير توفى ٣٨٤ هـ .

(١٨) التبصرة والتذكرة ٥٥٢/٢ ، في الاصل صرف دعد والصواب ما أثبته .

(١٩) كتاب المقتصد في شرح الايضاح ٩٩٤/٢ .

يحمل على الصرف هنا ضرورةُ شعر) (٢٠) .

(٩) رأي ابن جنّي :

إنّ ابن جني (المتوفى ٣٩٢ هـ) يخالف رأي استاذه ابي عليّ فيرى أن صرف المؤنث الثلاثي الساكن الوسط في الشعر ضرورة . وان منع هـذا الاسم من الصرف هو القياس (٢١) ! !

وهو رأي قريب من رأي الزجاج . . .

وقد قال به « ابن عصفور » (المتوفى ٦٦٩ هـ) ،

(١٠) رأي ابن عصفور :

يرى ابن عصفور في كتابه « ضرائر الشعر » أن « صرف مالا ينصرف » في الشعر ضرورة ، مع اقتناعه بان بعض العرب يصرفون جميع مالا ينصرف في الكلام ، الا أفعل منك (٢٢) .

ويوافق الزجاجيَّ — في شرح جمله — على أن الاسم الثلاثي الساكن الوسط (المؤنث) يجوز فيه الصرف وعدمه (٢٣) .

والغريب والجديد في رأي « ابن عصفور » أنه يرى « صرف مالا ينصرف» ضرورة شعرية ، ثم يروي عن بعض العرب انهم يصرفون جميع مالا ينصرف إلاّ افعل منك ، في غير الضرورة الشعرية ! !

وهذا نص قوله :

« وصرف ما لا ينصرف في الشعر اكثر من يُحصى » .

« وزعم الكسائي والفراء أنه جائز في كل ما لا ينصرف الا أفعل منك نحو : أفضل من زيد » .

---

(٢٠) المخصص ١٧ / ٤٣ (بولاق) .
(٢١) همع الهوامع ٣٤/١ .
(٢٢) ضرائر الشعر / ٢٥ .
(٢٣) شرح جمل الزجاجي ٢٠٧/٢ .

« وذهب بعض البصريين الى أن كل مالا ينصرف يجوز صرفه الا أن يكون في آخره ألف فان ذلك لا يجوز فيه ؛ لان صرفه لا يقام به قافيـة ولا يصحح به وزن » .

« والصحيح أنّ صرفه جائز لما بيناه من أن الشعر قد يسوغ فيه مالا يسوغ في الكلام ، وان لم يضطر الى ذلك الشاعر . وأيضاً فان السماع قد ورد بصرف ما في آخره ألف . قال المثلّمُ بن رياح المُرّيّ :

إني مقسمٌ ما ملكتُ فجاعـلٌ
أجراً لآخرةٍ (ودُنياً) تنفعُ

رواه ابن الاعرابيّ بصرف « دُنيا » .

– فان قلتَ : كيف جعلتَ صرف مالا ينصرف من قبيل الضرائر ، وقـد رغم ابو الحسن الاخفش في « الكبير » له أنه سمع من العرب من يصرف في الكلام جميع مالا ينصرف ، وحكى الزجاجي أيضاً في نوادره مثل ذلك ؟

« فالجواب أن صرف مالا ينصرف في الكلام انما هو لغة لبعض العرب ، واما سائر العرب فلا يجيزون صرف شيء منه في الكلام ، فلذلك جعل من قبيل ما يختص به الشعر » . (٢٤)

(٢) مناقشة الآراء :

قبل أن أناقش رأي من قال : إنّ صرف ما لا ينصرف ضرورةٌ شعرية ، أود أن أسأل :

(١) هل يمكن أن نعد ما جاء عن العرب من باب الضرورة اذا كان هؤلاء العرب يمثلون قبيلة واحدة ؟ (وهي الحجة التي لجأ اليها « ابن عصفور).

(٢) على أية حجة اعتمَد النحاة الذين جعلوا منعَ الاسماء الثلاثية الساكنة الوسط من الصرف هو القياسَ ؟

(٢٤) ضرائر الشعر / ٢٤ – ٢٥ .

(٣) أليست دواوين الشعر العربي في عصور الاحتجاج – على الاقل – ونص القرآن الكريم هما الاساس الذي نبني عليه الاحكام النحوية ؟

(١)

اذا جعلنا كل لهجة من لهجات العرب المخالفة للهجات الرئيسة (لهجة قريش وتميم وهذيل . . .) ، ضرورة شعرية فان هذا المسلك يجعلنا – بحكم منطق البحث العلميّ – نعبد النظر في كثير من الظواهر النحوية واللغوية . . .

واذا قلنا : إن كل لغة تتفرد بها قبيلة عربية واحدة خلافاً لجمهور القبائل تعد ضرورة شعرية فمعنى هذا إلغاء كثير من قواعد النحو واللغة . . .

فهل يصح أن نعد بناء المثنى على الالف (في الحالات الاعرابية الثلاث) ضرورة شعرية – إن جاء في الشعر – وهو لغة بلحارث بن كعبْ (٢٥)

هذا ما لم يقل به أحد إلا « ابن عصفور » ومن على شاكلته ، فقد قال : إن صرف مالا ينصرف انما هو لغة لبعض العرب ، اما سائره العرب فلا يجيزون صرف شيء منه في الكلام . فلذلك يجعل من قبيل ما يختصّ به الشعر .

وهو رأي فيه من التعسّف مالا يخفى ، فوق أن اللهجة قد جاء بها التنزيل. قال تعالى : « إنّ هذان لساحران » (٢٦) .

وهو رأي قال به جماعة من النحويين واللغويين ونقاد الشعر . .

وهل يمكن أنْ نعدّ تحقيق الهمزة الساكنة الوسطية في مثل بئر ورأس وفأس من قبيل الضرورة الشعرية ، وقد قال الفرّاء : إنّ بني تميم وحدهم تحققون هذه الهمزة ، أما سائر العرب فلا يهمزون (*) . . . ؟

---

(٢٥) معاني القرآن ، للفراء ٢/١٨٤ .

(٢٦) سورة طه ، الآية ٦٣ ، وهي قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ، ينظر : كتاب السبعة في القراءات ، لابن مجاهد / ٤١٩ .

(*) ايضاح الوقف والابتداء ، لابن الانباري ١ / ١٦٦ .

هذا ما لم يقل به أحد ممّنْ يُعَوّل على كلامه .

واذا كان مفهوم الضرورة الشعرية ما قاله ابو حيان الاندلسيّ : « يعنون بالضرورة أن ذلك من تراكيبهم الواقعة في الشعر المختصة به ولا يقع في كلامهم النثري ، وانما يستعملون ذلك في الشعر خاصة دون الكلام . ولا يعنى النحويون بالضرورة انه لا مندوحة عن النطق بهذا اللفظ ، وانما يعنون ما ذكرناه ، وإلا كان لا توجد ضرورة ، لأنه ما من لفظ إلا ويمكن للشاعر أن يغيره » (٢٧)

اذا كان هذا مفهوم الضرورة الشعرية فاننا نستطيع أن نرد على القائلين بها — في مجال بحثنا — بقولنا :

إنّ صرف ما لا ينصـــرف قد جاء في القرآن الكريم وفي قراءات القراء السبعة الذين تواترت قراءاتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقـــد قرأ نافع بن عبدالرحمن (المتوفى ١٦٩ هـ) ، وعاصـــم بن أبي النّجود برواية ابي بكر بن عيّاش (المتوفى ١٩٣ هـ) والكسائي (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) بتنوين « سلاسلاً » (٢٨) في الآية الكريمة : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاً واغلالاً وسعيراً » (٢٩) .

---

(٢٧) الاشباه والنظائر في النحو ، للسيوطي ١ / ٢١٩ ، واقتصرت على قول أبي حيان الذي يمثل الاتجاه السائد عند النحاة واصحاب الضرورات . وقد قال ابن مالك قبله : « إن الضرورة ما ليس للشاعر عنه مندوحة » (خزانة الادب ١ / ١٥) ، وهذا القول مرفوض لدى اكثر النحاة ومؤلفي الضرورات الشعرية ، وقد رد عليه ابو حيان في نصه المذكور .

ولم اتعرض في بحثي لمناقشة الاراء لانها ليست من صميم البحث ، كما انه قد سبقني الى ذلك كتاب فضلاء اشير الى من رجعت اليه منهم :

الشواهد والاستشهاد في النحو ، لعبد الجبار علوان ، مطبعة الزاهراء ، (بغداد ١٩٧٦) صفحات : ١٦٤ وما بعدها ، والضرورة الشعرية دراسة اسلوبية ، للسيد ابراهيم محمد ، دار الاندلس ، (بيروت ١٩٧٩) . والضرورة الشعرية دراسة لغوية نقدية ، للدكتور عبد الوهاب العدواني ، رسالة دكتوراه متقدمة لكلية الاداب بجامعة بغداد ١٩٨١ .

(٢٨) كتاب السبعة /٦٦٣ ، واعراب القرآن للنحاس ٥٧٣/١ ، والكشف عن وجوه القراءات السبع ، مكي ٣٥٢/٢ .

(٢٩) سورة الانسان ، الآية ٤ .

وقرأ الثلاثة (٣٠) : « كانت قواريراً . قواريراً من فضة » (٣١) .

وعقب ابو جعفر النحاس على القراءة الاولى بقوله : (الحجة لمن نوّن سلاسلاً ما حكاه الكسائي وغيره من الكوفيين أن العرب تصرف كل ما لا ينصرف إلا أفعل منك) (٣٢) .

وتابعه على ذلك مكي بن (٣٣) ابي طالب القيسي (المتوفى ٤٣٧ ﻫ) .

ولم ينفرد برواية ذلك الكسائي ولا الكوفيون ، فقد روى الاخفش الاوسط فقال : (سمعنا من العرب من يصرف هذا ويصرف جميع مالا ينصرف) (٣٤) .

وروى هذه الظاهرة الزجاجيّ في « أماليه » فكيف يصح أن نجعل صرف مالا ينصرف ضرورة شعرية ، بعد كل هذه الروايات المتضافرة ؟ !

أما الحجة التي اعتمد عليها الذين قالوا : إن منع الاسماء الثلاثية الساكنة الوسط من الصرف ، هو القياس ، فهي اعتقادهم بأنّ المنــع من الصرف في هذا النوع اكثر وروداً في شعر العرب ، من الصوف . . .

ومما لا بد من ذكره أنّ المعنيّ بشعر العرب هو شعر عصور الاحتجاج ، وهو سندي في الردّ والمناقشة ، لأن المناقشة لا تكون صحيحة إلا باتفاق الطرفين المتناقشين على أساس واحد .

(٣)

لقد استقريت ثلاثة أنماط من دواوين الشعر العربيّ ، او قل : ثلاث مجموعات :

(٣٠) كتاب السبعة / ٦٦٣ والكشف ٣٥٤/٢ .

(٣١) سورة الانسان ، الايتان : ١٥ — ١٦ .

(٣٢) اعراب القرآن ٥٧٣/١ .

(٣٣) الكشف ٢ / ٣٥٢ .

(٣٤) الكشف ٢ / ٣٥٢ .

الاولى : مجموعة السبع الطوال (المعلقات) .
الثانية : دواوين امرىء القيس وزهير بن أبي سُلمى وابنه كعب .
الثالثة : ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، فأظهر الاستقراء النتائج الآتية :

أولاً : إن الاعلام المؤنثة الساكنة الوسط ، مثل : « هند » قد جاءت مصروفة في كل المواضع التي وردت فيها في القصائد السبع الطوال الجاهليات. وهي قصائد اتفقت الامة العربية – حتى عصور الاحتجاج – على استحسانها .

ثانياً : إنّ « هنداً » جاءت مصروفة في كل المواضع التي جاءت فيها في دواوين امرىء القيس وزهير وكعب .

ثالثاً : وجاءت « هند » أيضاً ، و « نُعْم » و « جُمْل » مصروفة في كل المواضع التي جاءت فيها في ديوان عمر بن أبي ربيعة .

وقد اخترت ديوان عمر بن أبي ربيعة لانه اكثر الشعراء الاسلاميين ذكراً لهذه الاسماء المؤنثة الساكنة الوسط .

وهذه قائمة إحصائية لاسم « هند » ومواضع وروده في « ديوان عمر » مصنفة على أساس الحالة الاعرابية مع موقع الاسم في البيت .

ثم اتبعتها قائمة احصائية لاسم « نُعْم » ، ثم « جُمْل » . .

(*) استقراء اسم « هند » في حشو البيت :

– ١ –

رقم القصيدة	رقم الصفحة	الحالة الاعرابية
٢٦	١٤٢	الرفـع
٣١	١٤٧	الرفـع
٦١	١٨٥	الـرفع

٨٩	٢٢٥	الرفع
١١٦	٢٧٢	الرفع
١٥١	٣١٦	الرفع
١٥٥	٣٢٠	الرفع
١٦٥	٣٣١	الرفع
٣٣٢	٤٠٢	الرفع
٣١١	٤٦٩	الرفع
٣٢١	٤٧٤	الرفع

– ب –

رقم القصيدة	رقم الصفحة	الحالة الاعرابية
٢٧	١٤٣	النصب
٧٧	٢٠٧	النصب
١٥٥	٣٢٠	النصب
١٦٦	٣٣٢	النصب
٢٢٦	٣٩٨	النصب
٢٩٠	٤٥٥	النصب

– ج –

رقم القصيدة	رقم الصفحة	الحالة الاعرابية
٢٢	١٣٧	الجرّ
٤٩	١٦٩	الجر
٥٩	١٨٣	الجر
٦١	١٨٥	الجر
٧٤ب	٢٠٣	الجر
١١٦	٢٧٢	الجر
١٤١	٣٠٣	الجر

١٥٥	٣٢٠	الجر
١٦٥	٣٣١	الجر
١٧٧	٣٤٣	الجر
٣١١	٤٦٩	الجر
٣٢٧	٤٧٧	الجر

(*) استقراء اسم « نُعْم »

— أ —

رقم القصيدة	رقم الصفحة	الحالة	الموقع
٥٦	٨٢	الرفع	حشو البيت
١٠٨	٢٥٧	الرفع	حشوه
٢٥٨	٤٢٦	الرفع	حشوه
		— ب —	
١٠٨	٢٥٧	النصب	حشو البيت
		— ج —	
١	٩٢	الجر	حشو البيت)
١	٩٢	الجر	حشوه
١	٩٢	الجر	حشوه
١٤٩	٣١٣	الجر	حشوه
٢٠٥	٣٧٩	الجرّ	(عروضه)

(*) اسم « جُمْل »

رقم القصيدة	رقم الصفحة	الحالة	الموقع
١٤٣	٣٠٥	الرفع	في العروض
١٤٣	٣٠٥	الجر	في الحشو

(٣) رأيُنَا الجَـديد

(١)

وخلاصة هذا الاستقراء تدل على :

أن الظاهرة السائدة في اللغة العربية في اعلام النساء الثلاثية الساكنة الوسط هي الصرف .

وان اسم « هند » قد جاء في ثلاثة مجموعات من دواوين الشعر العربيّ مصروفاً ، ولم يأت غير مصروف .

وانّ اسم « هند » جاء في ديوان عمر بن أبي ربيعة مصروفاً في ثلاث وثلاثين مرة ، تسع وعشرين مرة في « حشو البيت » ، واربع مرات في « عروضه » (*) .

وان اكثر الاسماء النسائية الثلاثية الساكنة الوسط اطلاقاً على النساء اسم « هند » وتفسير ذلك يرجع الى أن هذا الاسم كان وسيلة من وسائل تضليل الخصوم الحساد ، والتعمية عليهم . فالشاعر اذا أراد أن يخفي اطلق عليها اسم هند . وهذا الاسم في الاناث كاسم زيد وعمرو في الذكور من حيث عدم دلالته على معين في حالات كثيرة ، ونادراً ما يراد به معين .

(٢)

ولذلك فان رأي من ذهب الى أنّ الاعلام الثلاثية الساكنة الوسط يتساوى فيها الصرف ومنعه ، هو رأي ضعيف .

وانّ رأي من قال بمنعه من الصرف مطلقاً رأي غير صحيح .

وان رأي من قال بان صرفه في الشعر ضرورة شعرية ، رأي غير مسلم به .

(*) اذا كان الاسم العلم مصروفاً في « حشوالبيت » فهو مصروف في « عروضه » لا محالة... (ينظر بحثنا : « الكشف عن قانون يصرف ما لا ينصرف ») .

(٣)

أما ما روي أنه غير مصروف من تلكم الاسماء فقليل جداً اذا قيس بالكثرة التي جاءت مصروفة (وقد قدمناه) .

ويمكن تقسيم غير المصروف – على قلته – قسمين :

القسم الاول : ما جاء على لغة من يمنع هذا اللون من الصرف من قبائل العرب . ومنه قول عبيدالله بن قيس الرقيات :

لم تتلفّعْ بفضل مئزرها   دعدٌ ولم تُغْذَ دعدُ في العُلَبِ

القسم الثاني : ما جاء خالياً من التنوين لتناسب ايقاع الشعر ، وفي هذه الحال يكون الضرب والعروض متوازنين . ومثال هذا قول الاخطل التغلبيّ :

الا حبذا هندٌ وارض بها (هندُ)

وهندٌ أتى من دونها النأي و (البعدُ)

فالتناسب الموسيقي قد حصل بين (هند والبعد) ؛ وهي حالة ايقاعية افضل ان اسميها (حالة التوازن الايقاعيّ) .

وهي حالة يحصل بها التوازن في ثلاث ظواهر ايقاعية هي :

(أ) توازن عروض الرجز وضربه .

(ب) التصريع (٣٥) . . .

(ج) التقفية (٣٦) . . .

وقد روي بيت جرير بثلاث صور :

الاولى :

أقلّي اللوم عاذل والعتابا   وقولي : إن اصبتُ لقد أصابا

الثانية :

اقلي اللومعاذل والعتابْ   وقولي ان اصبت لقب أصابْ

(٣٥) التصريح ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه تنقص بنقصه وتزيد بزيادته (العمدة ١ : ١٧٣) .

(٣٦) التقفية : ان يتساوى العروض والضرب من غير زيادة ولا نقص (العمدة ١٧٤/١) .

الثالثة :

أقلي اللوم عاذل والعتابنْ　　　وقولي إن أصبت لقد أصابنْ

وهذه النون هي نون الترنم . ويسميها بعض اللغويين « تنويناً » (٣٧) . ولا فرق بينهما من الناحية الايقاعية .

لذلك لا بد أن تكون رواية البيت بصورة واحدة : (٤٨)

إما : العتابا . . . أصابا .

واما : العتابْ . . . أصابْ .

واما : العتابنْ . . . أصابن .

حيث يجب الموازنة بين شطري البيت انسجاماً مع حالة التوازن الايقاعيّ .

* * *

فالظاهرة السائدة في هذه الاعلام الثلاثية الساكنة الوسط أنها مصروفة إلا في لغة منحسرة ضيقة ، يبدو أنها كانت في الاصل موازية للصرف ، قبل أن تستقر العربية على الظاهرة الاولى .

ومثلُ هذه الظاهرة سيادةً وانحساراً مثلُ خبر كان حين يفصل بينه وبين اسمها بضمير الشأن . فاكثر العرب ينصبون خبر كان ، ويجعلون ضمير الشأن لا محل له من الاعراب . وعلى هذا القراءة السبعية للآية الكريمة « وما ظلمناهم ولكنْ كانوا هم الظالمين » (٤٩) . والآية الاخرى « وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلمَ واطغى » (٤٠) .

---

(٣٧) خزانة الادب ٣٤/١ .

(٣٨) تنظر هذه الصور الثلاث في المراجع الاتية :
ديوان جرير / ٦٤ والكتاب ٢٩٨/٢ ، والقوافي للاخفش / ١٢١ ، والمقتضب للمبرد ٢٤٠/١ والخصائص ٩٦/٢ وابن يعيش ١١٥/٤ وهمع الهوامع ٨٠/٢ وخزانة الادب ٣٤/١ .

(٣٩) سورة الزخرف ، الآية ٧٦

(٤٠) سورة النجم ، الآية ٥٢

وقال سيبويه : (وناسٌ كثير من العرب يقولون : وما ظلمناهم ولكنْ كانوا هم الظالمون) (٤١) أي : انهم يجعلون ما كان ضمير فصل عند غيرهم ويرفعون ما بعده (٤٢) .

وبيّن ابو عمر الجرميّ أن هذه اللغة هي لغة تميم (٤٣) .

واثبت قراءة رفع الظالمين المبرد والصيمريّ وابو حيان الاندلسيّ (٤٤) .

ومن شواهدها الشعرية قول قيس بن ذريح (٤٥) :

تبكي على لبني وانـــت تركتهـــا

وكنت عليها بالملا أنت أقـــدرُ

على تقدير : انت : مبتدأ . واقدر : خبرها ، وجملة « انت أقدر » خبر كان .

* * *

اما حالة التوازن الايقاعيّ فليست خاصة بالشعر بل موجودة في القرآن الكريم أيضاً ، أعني في القراءات القرآنية . فقد قرر علماء القراءات أن الفاصلة في القرآن كالقافية في الشعر (٤٦) .

والتوازن بين الفواصل يمثل حالة التوازن الايقاعي في النثر . فقد تأتي الجملـــة في سياق ما ، يتعين معـــه أن يُحذف جزء من الجملة : قـــد يكون هذا الجزء ظرفاً ، وقد يكون مفعولاً به ، وقد يكون حرفاً ، بـــل قد يكون أجزاء متعددة ، وكل هذه الحذوف اوبعضها — حسب الحالة —

---

(٤١) الكتاب ٣٩٥/١

(٤٢) البحر المحيط ٢٧/٨

(٤٣) نفسه ٢٧/٨

(٤٤) المقتضب ١٠٥/٤ والتبصرة والتذكرة ٥١٤/١ والبحر المحيط ٢٧/٨ .

(٤٥) الكتاب ٣٩٥/١ والمقتضب ١٠٥/٤ والبحر المحيط ٢٧/٨ (وفيه : تحن الى ليلى) .

(٤٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١٩٥/٢ .

تؤدي غرضاً واحداً هو المحافظة على التوازن الايقاعي للفواصل ، مثلما يحصل التوازن الايقاعيّ بين العروض والضرب في الشعر . وقد يقتضي هذا الايقاع تقديم جزء من أجزاء الجملة ، او تأخيره ليناسب الايقاع ، او التوازن الايقاعيّ . بل قد يؤثر هذا التوازن الايقاعي في الصيغ فيؤدي الى استبدال صيغة بصيغة أخرى .

فالوسائل التي يؤثر فيها « التوازن الايقاعي » في بناء الجملة العربية، ثلاث :

أولاً : طريقة التقديم والتأخير .

ثانياً : طريقة الزيادة والحذف .

ثالثاً : طريقة تغيير الصيغة .

ومن الامثلة على الطريقة الاولى استعمال الفعل (اختلف) في القرآن الكريم.

يقال اختلف القوم في الامر فهم مختلفون . وقد جاءت أمثلة كثيرة في القرآن الكريم توضح أن الاصل في استعمال هذا الفعل أن يأتي الجار والمجرور بعد الفعل . وهذا هو الاصل في استعمال الجار والمجرور في العربية .

— قال تعالى : « وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاقٍ بَعيد » (٤٧)

— وقال تعالى : فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ » (٤٨) .

— وقال تعالى : « وانّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه » (٤٩) .

غير أنّ الفعل جاء في آيات أخر فقُدِّم الجار والمجرور فيها وأُخِّر الفعل ليناسب التوازن الايقاعي .

ومن الامثلة على ذلك قوله تعالى : « ليبيّن لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون » (٥٠) ، لأن الآية قبلها تنتهي بالفعل (تفعلون) ، والآية التي

(٤٧) سورة البقرة ، الآية ١٧٦

(٤٨) سورة البقرة ، الآية ٢١٣

(٤٩) سورة النساء ، الآية ١٥٧

(٥٠) سورة النحل ، الآية ٩٢

بعدها تنتهي بالفعل (تعملون) .

وقد يتقدم الجار والمجرور على المفعول الثاني كما في الآية الثامنة مـن سورة الاسراء : « وانْ عدتم عُدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » .

وقد جاءت بهذه الصورة من التقديم والتأخير مراعاة للتوازن الايقاعيّ ، لأن الآية التي قبلها (السابعة) جاءت بهذا النسق : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرّوا ما علوا تتبيراً » . وجاءت الآية التي بعدها (التاسعة) بهذا النسق : « ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً » .

ولو جاء الجار والمجرور حسب القاعدة الشكلية لقيل : « وجَعَلْنا جهنّمَ حصيراً للكافرين » ، وعندئذ يختل التوازن الايقاعيّ وتذهبُ حلاوة التنغيم . . . فسبحان الذي أتقن كل شيء .

أما أمثلة الطريقة الثانية ، فمثال الزيادة قوله تعالى : « لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون » (٥١) ، اذ كُرِّرتْ (لعل) مراعاةً للتوازن الايقاعّي ، ولو جاءت على الاصل لقيل : (لعلّي ارجع الى الناس فيعلموا) ، اذ ينصب الفعلُ بالفاء في جواب الرجاء .

أما الحذف فمثاله قوله تعالى : (قل : هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعلمون) (٥٢) . المعنى : هل يستوي من لا علم له ومن له عِلم ، من غير أنْ يقصد النصّ على معلوم ؛ على حد تعبير « عبدالقاهر الجرجاني » (٥٣) . وقد ذكر أمثلة أخرى لكنه لم يلاحظ (التوازن الايقاعي) ، لا في الاولى ولا في الاخرة (٥٤) .

وقد يحذف المفعول به ويؤدي الحذف اكثر من ارادة (التوازنالايقاعيّ) ،

(٥١) سورة يوسف ، الآية ٤٦
(٥٢) سورة الزمر ، الآية ٩
(٥٣-٥٤) دلائل الاعجاز ، صفحات : ١١٨ وما بعدها (ط . المنار)

ومن امثلته قوله تعالى : (ذَرْهُمْ يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ فسوف يعلمون) (٥٥) وهنا حذف المفعول به ، وكانت نهاية الآية (فسوف يعلمون) ليؤذي السياق ثلاثة أغراض في آنٍ واحدٍ .

(١) التوازن الايقاعيّ بين الفواصل .

(٢) وليؤدي السياق معنى التهديد ويثير في النفوس الجاحدة الخَسوفَ من عذاب الآخرة (والتقريب السياق الى الاذهان نقول : انه مثلُ قولكَ لمن تريد تهديده : سترى ! !)

(٣) للايغال في تعذيب الكفار واقلاق راحتهم النفسية في الدنيا ، لأنّ عدم وضوح الرؤية يؤدي الى القلق والاضطراب .

أما أمثلة الطريقة الثالثة (أي : تغيير الصيغة) فتتحقق بوسائل متعددة منها :

(أ) التحوّل مِنْ صيغة الفاعل الى صيغة المفعول .

كما في الآية الكريمة : (واذا قرأت القرآن جَعَلْنا بينكَ وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجاباً مستوراً) (٥٦) ؛ أي : ساتراً . ولو جاءت الصيغة (ساتراً) لاختلّ التوازن الايقاعيّ لأن الاية التي قبلها كانت نهايتها (غفوراً) والآية التي بعدها كانت نهايتها (نُفوراً) ، فجاءت بصيغة (مستوراً)ليتمّ التوازن الايقاعيّ .

(ب) التحوّل من إسناد المفرد الى اسناد الجمع .

ومن أمثلتها الآية الكريمة : إنَّ ربكَ هو أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين » (٥٧) .

ولو جرى الكلام على النسق المعتاد لقيل : (وهو أعلم بمن اهتدى) ، بدليل الآية الكريمة : « إنّ ربك هو اعلمُ بمن ضل عن سبيله ، وهو اعلم

(٥٥) سورة الحجر ، الآية ٣

(٥٦) سورة الاسراء ، الآية ٤٥

(٥٧) سورة النحل ، الآية ١٢٥

بمن اهتدى » (٥٨) .

وتوجيه هذا أن الآية الاولى يقتضي توازنها الايقاعيّ أن تكون **نهايتها** (بالمهتدين) ، لأنّ جُلّ الفواصل في آياتها جاءت بالنون المُرْدَفةِ بالياء او الواو .

وتوجدوسائل أُخَرُ يمكن أن تنتمي الىهذه الحالة ، أعرضتعنها اختصاراً .

وكلهذه الاساليبالفنية المعجزة العالية تؤكد أنّ « حالة التوازن الايقاعيّ» لها قيمة كبيرة في تغيير الصيغ والتراكيب ، وهي حالة لا تختصّ بالشعر وحده حتى يجعلها بعض المولعين بما يسمى الضرورات الشعرية حالة خاصة بالشعر . انها حالة موجودة في الشعر وفي النثر على حدٍّ سواء .

ولو طُبِّقَتْ « حالة التوازن الايقاعيّ » تطبيقاً دقيقاً لتخلصنا من كثير من الاختلافات الطويلة بين النحاة .

فالشاهد النحويّ المشهور :

يا أقرعُ بنَ حابسٍ يا أقرعُ   إنّكَ إنْ يُصْرَعْ أخوك تُصْرَعُ

اختلف النحاة في تعليل رفع الفعل (تصرعُ) : فهو عند سيبويه على نيّة التقديم وتضمنه الجواب في المعنى ، والتقدير — عنده — « إنّكَ تُصْرَعُ إنْ يُصْرَعْ أخوك » . وهو مما يختص بالشعر ، أي انه يعده ضرورة شعرية (٥٩) .

وتابعه على ذلك (الصَّيمَريّ (٦٠) و (الاعلم الشنتمريّ) (٦١) .

وهو عند (المبرد) مرفوع ضرورةً ، والاختيارُ جزمُهُ لأنه لا يجوز في قول البصريين — في الكلام إلاّ أنْ توقع الجواب فعلاً مضارعاً مجزوماً او فاء ، الا في الشعر (٦٢) ، والجواب حُذفتْ منه الفاء ، وقد وقع في محلّهِ

(٥٨) سورة النجم ، الآية ٣٠

(٥٩) الكتاب ٤٣٦/١

(٦٠) التبصرة والتذكرة ٤١٣/١

(٦١) هامش الكتاب ٤٣٦/١ — ٤٣٧

(٦٢) المقتضب ، المبرد ٧١/٢

فلا يُنوى فيه التقديم والتأخير . وجازمه الاداة عملت فيه كما عملت في الشرط ،

واختار الرأي الاخير ابن عصفور والأُبديّ (٦٣) وقيل : جازمه فعل الشرط ، وهو رأي ابن مالك وغيره (٦٤) .

وقد طُرحتْ آراء أخرى في هذه المسألة يمكن أن يرجع اليها من شاء في مواضعها (٦٥) .

وكلها آراء نظرت الى جزئية واحدة في جملة الشرط ، وظلّتْ تدور حول هذا المحور . . .

وهذه النظرة التجزيئية للنص هي عاة من علل المعيارية النحوية ، شكا منها الجاحظ في البيان والتبيين . قبلنا .

ولو نظر النحاة الى النصوص نظرة أخرى لتغيرت هذه النتيجة المتصلة بهذا البيت (ونتائج أخر تتصل بقضية التوازن الايقاعيّ) .

إن النظرة الى هذا البيت وامثاله من زاوية التوازن الايقاعيّ ترينا أن البيت من الرجز وهو مُصَرَّعٌ بطبيعته (او مُقَفّى) : ولا فرق بين التعبيرين في النتيجة . والتصريع يقتضي التوازن بين العروض والضرب توازناً كلياً . . .

ولو نظرنا الى الشواهد النحوية الشعرية من زاوية التوازن الايقاعيّ ومن زاوية السياق لتخلصنا من كثير من التعقيدات النحوية او الضرورات . . . ولخرجنا من تلك الدائرة الضيقة الى ميدان لغتنا الفسيح . . .

(٦٣) ، (٦٤) همع الهوامع ، للسيوطي ٦١/٢

(٦٥) الانصاف في مسائل الخلاف ٦٢٣ وابن يعيش ١٥٧/٨ وهمع الهوامع ٦١/٢ والخزانة ٣٩٦/٣ .

خاتمة البحث ونتائجه

لقد اخترت « أعلام النساء الثلاثية الساكنة الوسط » موضوعاً لبحثي لأنه من الموضوعات التي كثرت فيها الآراء (عند النحاة القدماء) الى حد التناقض، وهذا يؤدي الى الاضطراب وعدم الاهتداء الى رأي موحد ، لازيل هـذا الاضطراب والتناقض بابداء رأي موحد وبيان الاخطاء وعدم الدقة في الآراء التي قيلت فيه .

واتبعت منهج الاستقراء بديلاً عن القياس الذي لا يمكن أن يكون منهجاً دقيقاً للخطأ والصواب لأن مفهومه عندالقدماء غيرمستقر ولانه يتعارض مع : الاستقراء في احيان متعددة .

وبعد انتهاء الجولة في رياض اللغة العربية الكريمة ظهرت لي النتائج الآتية

اولاً : انّ الظاهرة السائدة في اللغة العربية ، في اعلام النساءالثلاثية الساكنة الوسط هي الصرف .

ثانياً : وان عدم الصرف لم يأت إلا في لهجة منحسرة يبدو أنها كانت في الاصل موازيةً للصرف قبل أن تستقر العربية على الظاهرة الاولى .

ثالثاً : والظاهرة الأخيرة مثل « خبر كان » حين يُفصل بينه وبين اسمها بضمير الشأن . فالظاهرة الاولى هي أن يكون خبرها منصوباً . كما في قوله تعالى : « وقوم نوح من قبلُ انهم كانوا هم أظلمَ وأطغى »
(سورة النجم ، الآية ٥٢) .

أما رفع خبر كان حين يفصل بينه وبين اسمها بضمير الفصل فهو لهجة منحسرة ، وهي لغة تميم . . .

رابعاً : وانّ رأي من قال : « إن اعلام النساء الثلاثية الساكنة الوسط »

ممنوعة من الصرف ، رأي غير صحيح لانه يخالف الظاهرة السائدة في لغة العرب .

خامساً : وانّ رأي من قال : إن تلك الاعلام مصروفة مطلقاً ، وهو رأي تنقصه الدقة لانه يعطل قسماً من النصوص العربية الصحيحة التي جاءت فيها تلك الاعلام ممنوعة من الصرف .

سادساً : وانّ رأي « أهل التسوية » – وهم جماعة من البصريين وبعض الكوفيين – ليس سليماً لانه يخالف النتائج المستقراة من كلام العرب .

سابعاً : وانّ صرف مالا ينصرف في الشعر ليس ضرورة شعرية لانه لغة من لغات العرب ، جاءت بها القراءات السبع ، ورواها عن العرب جماعة من الثقات ؛ منهم : الكسائيّ والاخفش والزجاجيّ .

ثامناً : إن حالة التوازن الايقاعيّ موجودة في الشعر والنثر على حد سواء . ولهذا يمكن أن نفسر بها ما رآه بعض النحويين (كالزجاج ومن تابعه) ضرورة شعرية بأنه ظاهرة من ظواهر التوازن الايقاعيّ ، وليس ضرورة شعرية .

تاسعاً : وان حالة التوازن الايقاعيّ يمكن ان تحل جملة من المشكلات التي تفرزها أبيات الشواهد النحوية ، فتريح المتعلم والعالم .

عاشراً : إن حمل أية لغة لا تتفق مع القياس او المعيارية النحوية ، على الضرورة الشعرية ، أمر ليس له ما يبرره من منطق العلم ولا من منطق اللغة ، ولهذا يجب أن نعيد النظر فيما سماه النحاة (الضرورات الشعرية) ، حتى لا نهدر جزءاً من اللغة الفصيحة ، في الوقت الذي نستشهد فيه بالابيات التي لا يعرف قائلها .

سهم الألحاظ في وهم الألفاظ

لابن الحنبليّ المتوفى سنة ٩٧١ هـ

الدكتور
حاتم صالح الضامن

كلية الآداب ــ جامعة بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله العربيّ المبين .

مقدمة

كانت اللغة العربية ــ وما زالت ــ موضع عناية العلماء لأنّها لغة القرآن الكريم ، قال تعالى : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (يوسف ٢) ، وقال عزّ وجلّ : « وكذلكَ أنزلناه قرآناً عربياً » (طه ١١٣) ، وقالَ تعالى : « لسان الذي يُلحدون إليه أعجمي وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين » (النحل ١٠٣) .

ولعلّ من أهم مظاهر العناية بها هو الحرص على سلامتها من الخطأ والدخيل ، لذا فقد انبرى العلماء للذبِّ عن هذه اللغة الشريفة فألفوا كتباً كثيرة كان لها أثر كبير في صيانة اللغة وتنقيتها من اللحن والعامي والدخيل ، فذكرت الخطأ المستعمل والصواب الذي يجب أن يجري به الاستعمال .

وقد أحصى هذه الكتب وعرّف بها الأخ الدكتور رمضان عبدالتواب في كتابه النفيس (لحن العامة والتطور اللغوي) فأغناني عن ذكرها .

واليوم نقدم كتاباً آخر من كتب التصحيح اللغوي وهو (سهم الألحاظ في وهم الألفاظ) لرضي الدين بن الحنبلي أحد العلماء المشهورين في القرن

العاشر الهجري ليأخذ مكانه بين هذه الكتب بعد أن ظلّ حقبة طويلة بعيداً عن أيدي الدارسين .

وبعدُ فاللغةُ العربيةُ الفصيحةُ هي عنُوانُ مَجْدِ الأُمّةِ ورَمْزُ وجودِها وقِوامُ حياتها ودليلُ وحدتها .

والحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله .



المؤلف

هو رضي الدين محمد بن ابراهيم بن يوسف بن عبدالرحمن المعروف بابن الحنبليّ .

ولد سنة ٩٠٨ هـ في حلب ، ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها، ثم حجّ وقصد دمشق ونهل من علمائها وانتفع به جماعة . ثم عاد الى حلب واستقر فيها يدرس ويفتي الى أن توفي سنة ٩٧١ هـ (*) .

وقد استوفى مشايخه في كتابه درر الحبب فمنهم :

(١) الشيخ أحمد بن الحسين الباكزي : أخذ عنه علوم القرآن .

(*) ينظر عن ابن الحنبلي :
الكواكب السائرة ٤٢/٣
كشف الظنون : في مواضع مختلفة .
ريحانة الألبا ١٦٩/١
شذرات الذهب ٣٦٥/٨
هدية العارفين ٢٤٨/٢
إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٥٩/٦
الأعلام ١٩٣/٦
معجم المؤلفين ٢٢٣/٧
جهود ابن الحنبلي اللغوية .
مقدمة نور الإنسان لابن الحنبلي .
مقدمة بحر العوام فيما أصاب فيه العوام .

(٢) الشهاب الهندي : قرأ عليه كتاب (المطوّل) وحواشيه للشريف الجرجاني.

(٣) محمد بن شعبان الديروطي : قرأ عليه شرح النخبة لابن حجر العسقلاني في مصطلح الحديث وحصل بها على اجازة للاقراء . كما أجازه الديروطي برواية صحيحي مسلم والبخاري عنه .

(٤) محمد الخناجري : قرأ عليه كتاب (نزهة الألباب في علم الحساب) للمكناسي .

(٥) موسى بن الحسين الرسولي : قرأ عليه البلاغة .

(٦) ولي الدين الشرواني : قرأ عليه متن الجغميني في الهيئة .

(٧) البرهان ابراهيم العبادي : قرأ عليه عدة فنون إلى أن أجاز له جميع ما يجوز له عنه .

(٨) عبداللطيف الجامي : لقّنه الذكر ، وأجاز له تلقين الذكر .

(٩) علي بن محمد الحصكفي الموصلي : أخذ عنه القواعد الصرفية والنحوية والعروضية والمنطقية .

(١٠) جار الله محمد بن عبدالعزيز بن فهد المكي : أخذ عنه كتابه (التحفة اللطيفة في أنباء المسجد الحرام والكعبة الشريفة) وأجاز له روايته .

(١١) السيد عيسى الصفوي : قرأ عليه تفسيره على سورة عمّ الى آخر القرآن .

(١٢) موسى بن حسن الكردي : قرأ عليه علم البلاغة .

(١٣) عبدالرحمن بن فخر النساء : قرأ عليه الفقه وشرح الجاربردي على الشافية .

أمّا تلاميذه فكثيرون ، وقد ترجم لقسم منهم في كتابه درر الحبب ، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر :

(١) أحمد بن الملاّ (المنلا) : وقد لازمه عشرين سنة وكتب كثيراً من مؤلفاته .

(٢) محمد بن محمد أبو الثناء المشهور بابن البيلوني :

(٣) زين العابدين نعمة الله ابراهيم المشهور بعبادي جلبي .

(٤) محمد بن قاسم شمس الدين المشهور بابن المنقار .

(٥) محمد بن مسعود بن محمد الشيرازي .

(٦) مصطفى بن أحمد الكَفَوي .

(٧) محمد بن أبي اليمن محمد الغزي .

(٨) محمد بن عمر بن عمر بن عيسى بن موسى .

(٩) محمد بن علي الحصكفي الحلبي المشهور بملا محمد .

(١٠) محمد بن أحمد بن محمد التبريزي الشافعي .

وكان ابن الحنبلي عالماً بكل صنوف العلم المعروفة في عصره والناظر الى عناوين كتبه الآتية يلمس ذلك .

وكان له كثير من الشعر نثره في كتبه .

آثاره :

أ ــ المطبوعة :

(١) أنوار الحلك على شرح المنار لابن ملك .

(٢) بحر العوّام فيما أصاب فيه العوام .

(٣) در الحبب في تاريخ أعيان حلب .

(٤) قفو الأثر في صفو علم الأثر .

(٥) نور الانسان في اشتقاق لفظ الانسان .

ب ــ المخطوطة :

(١) الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة .

(٢) تحفة الأفاضل في صناعة الفاضل .

(٣) تذكرة من نسي في الوسط الهندسي .

(٤) تروية الظامي في تبرئة الجامي .

(٥) جنيات الحسّاب في علم الحساب .

(٥آ) الجواري المنشآت في الحواري المنشآت .

(٦) حاشية على شرح تصريف العزي للتفتازاني .

(٧) حاشية على شرح اللب .

(٨) حاشية على شرح لباب العقد .

(٩) حدائق أحداق الأزهار ومصابيح أنوار الأنوار .

(١٠) الحدائق الأنسية في كشف حقائق الأندلسية .

(١١) حوراء الخيام وعذراء ذوي الهيام في رؤية خير الأنام في اليقظة والمنام .

(١٢) الدرر الساطعة في الأدوية القاطعة .

(١٣) ديوان شعر .

(١٤) ربط الشوارد في حلّ الشواهد .

(١٥) رسالة تشتمل على جملة ما يهواه السامع لقصد تشنيف السامع .

(١٦) رسالة في المتصل والمنفصل . وقد حققها السيد نهاد حسوبي .

(١٧) رفع الحجاب عن قواعد الحساب .

(١٨) الروائح العودية في المدائح السعودية .

(١٩) روضة الأرواح على السراجية .

(٢٠) الزبد والضرب في تاريخ حلب .

(٢١) سهم الألحاظ في وهم الألفاظ. وهو هـذا الكتاب وسـيأتي الحديث عنـه .

(٢٢) سوابغ النوابغ : في شرح نوابغ الكلم للزمخشري ، ويسمى أيضاً : شرح نوابغ الكلم .

(٢٣) شقائق الأكم بدقائق الحكم .

(٢٤) عقد الخلاص في نقد كلام الخواص . وقد حققه السيد نهاد حسوبي .

(٢٥) غمز العين الى كنز العين .

(٢٦) الفوائد السرية في شرح الجزرية .

(٢٧) كحل العيون النجل في حلّ مسألة الكحل . وهي تحت الطبع بتحقيقنا .

(٢٨) كنز من حاجى وعمّى في الأحاجي والمُعَمّى .

(٢٩) مخايل الملاحة في مسائل الفلاحة .

(٣٠) مرتع الظبا ومربع ذوي الصبا .

(٣١) المصابيح ، في الحساب . وهو غير كتاب (مصابيح أرباب الرئاسة ومفاتيح أبواب الكياسة) الذي نُسب إليه . وهو لأبيه كما في درر الحبب ١–١–٥٥ وكشف الظنون ١–٤٢ وهدية العارفين ١–٢٧ . وهو ملخص لكتاب (آداب السياسة) لابن الأثير .

جـ — كتب أخرى لم نقف عليها بعد :

(١) إحكام الأشعار بأحكام الأشعار .

(٢) إخبار المستفيد بأخبار خالد بن الوليد .

(٣) اعانة العارض في تصحيح واقعات الفرائض .

(٤) انموذج العلوم لذوي البصائر والفهوم .

(٥) تأهيل من خطب في ترتيب الصحابة في الخطب .

(٦) التعريف على تغايط التطريف في شرح التصريف لابن هلال .

(٧) تعليقة على تفسير البيضاوي ٥

(٨) تلميظ الشهد لأهل الحل والعقد .

(٩) حاشية على شرح الوقاية لصدر الشريعة .

(١٠) الحياض المترعة في وفق الأربعين في الأربعة .

(١١) ذبالة السراج على رسالة السراج .

(١٢) ذخيرة الممات في القول بتلقين من مات .

(١٣) رسالة في عشرين بحثاً في عشرين علماً .

(١٤) سرح المقلتين في حكم القلتين .

(١٥) الشراب النيلي في ولاية الجيلي .

(١٦) شرح ايساغوجي في المنطق .

(١٧) شرح حكم ابن عطاء الاسكندري .

(١٨) شرح اللباب .

(١٩) شرح نزهة النظار في صناعة الغبار .

(٢٠) ظل العريش في منع حل البنج والحشيش .

(٢١) عدة الحاسب وعمدة المحاسب .

(٢٢) العرف الوردي في نصرة الشيخ الهندي .

(٢٣) الفتح الجلي على شرح المصباح لسيدي علي .

(٢٤) فتح العين عن الاسم غير أو عين .

(٢٥) الفرع الأثيث في الحديث .

(٢٦) القول القاصم للقاسي قاسم .

(٢٧) الكنز المظهر في استخراج المضمر .

(٢٨) لبّ القاصدين .

(٢٩) مستوجبة التشريف بتوضيح شرح التصريف .

(٣٠) مصباح الدجى في حرف الرجا .
(٣١) مطلوب الخاني في السفر السليماني .
(٣٢) مغني الحبيب عن مغني اللبيب .
(٣٣) المنثور العودي على النظام السعودي .
(٣٤) موارد الصفا وفوائد الشفا .
(٣٥) نجوم المريد ورجوم المريد .
(٣٦) وسيلة المظلوم الى تحصيل العلوم .



الكتـــاب

اسمه :

اسم الكتاب الصحيح هو (سَهْم الألحاظ في وهم الألفاظ) ، كما جاء في عنوان المخطوطة التي كتبها ابن الملاّ تلميذ المؤلف ، وقد أشـــار ابن الحنبليّ نفسه الى اسم الكتاب إذ قال في المقدمة : وسميّته (سَهْم الألحاظ في وهم الألفاظ) ، إذ كان صرف هذا السهم الى طرف هذا الوهم .

وقد حُرِّف الاسم في هدية العارفين الى : (سهام الألحاظ في وهم الألفاظ) . وحُرِّف أيضاً الى : (سهل الألحاظ في وهم الألفاظ) في إعلام النبلاء ومقدمتي بحر العوّام ودرر الحبب .

موضوعه :

الكتاب من كتب التصحيح اللغوي لما تلحن فيه العامة . وهو ذيل لكتاب درة الغواص للحريري كما نصّ على ذلك المؤلف إذ قالَ بعد أن ذكر درة الغواص : (... أحببت أن أذيله تذييلاً ، وأضم الى استعارته المكنية مني تخييلاً فشمّرت الذّيل ، ووضعت بإذن الله تعالى هذا الذّيل ...) .

وقـــد أورد المؤلف في هذا الكتاب مئة وثلاثاً وثلاثين لفظة من الألفاظ التي تخطئُ العامة في ضبطها أو في معناها ، وأشار الى صوابها ، معتمداً في ذلك على الكتب والمعجمات .

منهجه :

لم يرتب المؤلف كتابه على حروف الهجاء بل كان يسرد الألفاظ معتمداً في معظمها على الصحاح والقاموس المحيط وكتب أخرى سنشير إليها عند الحديث عن مصادره .

وبدأ المؤلف كتابه بالسبحة ثم الأنموذج وانتهى بالحديث عن البداية وعلّمته .

وكان يذكر اللفظة كما تنطق عند العامة أوّلاً ثم يشير الى الصواب ذاكراً الكتب التي اعتمد عليها في هذا التصحيح أو العلماء من غير ذكر كتبهم .

كقوله : (ومن ذلك قولهم : الكتان ، لما يتخذ من الخيوط : بكسر الكاف ، وإنما هو بفتحها على ما في الصحاح وأدب الكاتب) .

وكقوله : (ومن ذلك : الدبس ، بالكسر فالسكون ، لما يعمل من عصير العنب كالعسل. فقد اقتصر في القاموس على أنّه عسل التمر وعسل النحل. وقال المطرزي : الدبس عصير الرطب ، فاقتصر عليه) .

وكان المؤلف يخالف أحياناً ما جاء في القاموس المحيط أو يستدرك عليه ، كقوله : (ومن ذلك : اعزاز ، بهمزة في أوّله ، لبلدة قرب حلب . وإنما هو بدونها مع فتح أَوَّله ، كطرابلس ، بفتح الأول ، للبلدتين : التي بالشام والتي بالمغرب ، خلافاً لمن قال : إنّ الشامية أطرابلس ، بهمزة في أوله ، والمغربية بدونها) وهو الفيروز آبادي .

وكقوله : (ومن ذلك : الدرباس ، كقِرطاس ، لخشبة تُجعل بين الباب والجدار لئلا يفتح . فقد اقتصر في القاموس على أنه الأسد والكلب العقور) .

مصادره :

اعتمد المؤلف في كتابه على مصادر كثيرة ذكر منها :

١ــ أدب الكاتب : ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) .

٢ــ الفاخر : المفضل بن سلمة (ت ٢٩١ هـ) .

٣ــ البارع : أبو علي القالي (ت ٣٥٦ هـ) .

٤ــ الصحاح : الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) .

٥ــ الكلم النوابغ : الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) .

٦ــ المعرب : الجواليقي (ت ٥٤٢ هـ) .

٧- مطالع الأنوار على صحاح الآثار : ابن قرقول (ت ٥٦٩ هـ) .
٨- النهاية في غريب الحديث والأثر : ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) .
٩- المغرب في ترتيب المعرب : المطرزي (ت ٦١٠ هـ) .
١٠- الانفعال : الصغاني (ت ٦٥٠ هـ) .
١١- التكملة والذيل والصلة : الصغاني .
١٢- التسهيل : ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) .
١٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) .
١٤- شرح الدرة الألفية : الغرناطي (ت ٧١٢ هـ) .
١٥- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ : ابن السمين (ت ٧٥٦ هـ) .
١٦- مغني اللبيب : ابن هشام (ت ٧٦١ هـ) .
١٧- شرح المفتاح : التفتازاني (ت ٧٩٣ هـ) .
١٨- القاموس المحيط : الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ) .
١٩- التقريب في علم الغريب : ابن خطيب الدهشة (ت ٨٣٤ هـ) .

ونقل ابن الحنبلي عن ابن السكيت (ت٢٤٤هـ) وابن الأنباري (ت٣٢٨هـ) وابن بري (ت ٥٨٢ هـ) والنووي (ت ٦٧٦ هـ) والجعبري (ت ٧٣٢ هـ) وأبي حيان النحوي (ت ٧٤٥ هـ) من غير ذكر لأسماء كتبهم .

شواهده :

أما شواهده من الأشعار والأرجاز فقد بلغت ثلاثة وثلاثين بيتاً .

مخطوطة الكتاب :

أصل مخطوطة الكتاب تحتفظ به مكتبة شهيد علي باستانبول تحت رقم ٢٧٤٦ ، ومنه ميكروفيلم في معهد المخطوطات بالقاهرة تحت رقم ١٥١ لغة .

ويقع الكتاب في عشر ورقات ضمن مجموع ، يبدأ من ورقة ١٢٦ وينتهي بورقة ١٣٥ . وفي كل صفحة ثمانية عشر سطراً .

وجاء في صفحة العنوان : (سهم الألحاظ في وهم الألفاظ . تأليف شيخنا العلامة شيخ الاسلام رضي الدين بن محمد بن الحنبلي الحنفي ، نفع الله تعالى بعلومه) .

وقد كتب النسخة تلميذ ابن الحنبلي ، وهو ابن الملاّ الذي نقلها من نسخة بخط المؤلف ، وقد كتبت في حياته سنة سبع وستين وتسع مائة ، أي قبل وفاته بأربع سنوات .

ولا بد من الإشارة الى أن كثيراً من الكلمات قد خلت من التنقيط ممـا زاد في صعوبة التحقيق .

وأخيراً أقدم خالص شكري الى الأخ الدكتور صبيح التميمي الذي تفضل بتصوير هذه المخطوطة ، والى الأخ السيد نهاد حسوبي الذي استنسخ هذه المخطوطة لأنّه اضطلع من قبل بخط ابن الملاّ عند تحقيق كتاب ابن الحنبلي (عقد الخلاص) بخط ابن الملاّ أيضاً ، راجياً لهما كل خير .

والحمدُ لله أولاً وآخراً إنّه نعم المولى ونعم النصير .

حاتم صالح الضامن
كليـة الآداب ــ جامعـة بغـداد



بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن نوّر بمطالعات آلائه مصابيح المعاني [illegible] إحكاماً علماً ليحرزوا
المعاني وصرف مسالكهم من الخطأ عن نهج الخطأ وشيّد لهم من وجه الصواب [illegible] الخطأ
وصلى وسلم على من حوى سابق العطاء في حلبة السبق ونسخ مصانع الخطأ بلغته الفصحى من
لفظ محمد الناطق بالصواب الهادي المهدي التواب وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأحبابه
ما الحلقت الألسن بحلاف الأشباح والمعاني مثل أصناف الأرواح. أما بعد
فيقول العبد الواهي والفقير اللاهي من هو المقصور على المقصور الجلي محمد بن إبراهيم ابن الحنبلي
الحلبي مولداً الربعي محتداً [illegible] الحنفي مذهباً [illegible] عن سهم الوهم وكان [illegible] سنة
من سني النصح [illegible] أهل الأدب [illegible] نظرت في كتاب درة الغواص في أوهام
الخواص للأديب [illegible] والأديب اللامع أبي محمد القاسم بن علي الحريري الربعي [illegible]
دار السعود [illegible]
[illegible]
في [illegible] أجبته [illegible]
[illegible] وصفت [illegible] تعالى
هذا الذيل [illegible] وسميته سهم الالحاظ في وهم الالفاظ
اذ كان صرف هذا السهم [illegible] هذا الوهم [illegible] الاصابة [illegible] الوصول
[illegible]
وان [illegible]
[illegible]

الولد

الصفحة الأولى

اذ الحصلة للعلامة وحكى الجزري اعلم القصار النوبي في مجلد والنوب ... واعلم العارف عمل النفسه

علامة الحسان معصم اعلى حكاية ذلك ايضا وفي هذا العام . وراس ان امام . بعون الله الملك

العلام والحمد لله وحده وصلى الله تعالى على سيدنا ومحمد وآله

وصحبه وآتى الفراغ من نقل هذا الكتاب المبارك منقولا من

خط المؤلف شيخنا العلامة المحقق نظر الله

ولع شهر ذي الحجة الحرام سنة سبع وستين وتسعمائة على يد كاتبه اضعف العباد احمد محمد

الشهير بابن الملا الشاعر عفا الله عنه وعن والديه والمسلمين اجمعين م م

الصفحة الأخيرة

(١٢٦ ب) بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدكَ يا مَنْ نوّرَ مقاماتِ البلغاء بمصابيحِ المعاني ، وزيّنَ ألسنةَ الفصحاء بجواهرِ اللُّغَى ويواقيت المباني ، وصرّفَ مالهم من الخُطا عن نهج الخَطا ، وكشَفَ لهم عن وجهِ الصوابِ ذيّاكَ الغطا ، ونصلي ونسلمُ على مَنْ هو سابقُ البلغاء في حَلْبَةِ اللُّغَى . ومِصْقَعُ (١) مصاقعِ الخُطباء فليذرِ اللّغْوَ مَنْ لغَا ، محمدٍ الناطقِ بالصوابِ ، الهادي الى هَدْي الثوابِ ، وعلى آلهِ وأصحابهِ وأزواجهِ وأحبابهِ ، ما اختلفتِ المباني اختلافَ الأشباحِ ، وائتلفت المعاني مثلَ ائتلافِ الأرواحِ .

أما بعدُ فيقولُ الفقيرُ الواهي والحقيرُ اللاهي ، مَنْ هو المقصورُ على التقصيرِ الجليّ ، محمدُ بنُ ابراهيمَ بنِ الحنبليّ ، الحلبيّ مولداً ، الربعيّ مَحْتِداً (٢) ، القادريّ مَشْرَباً ، الحنفيّ مَذْهباً ، صِينَ عن سَهْمِ الوَهْمِ ، ولا شِينَ بشيءٍ من سيِّىءِ الفَهْمِ :

لمّا احتجَّ أهلُ الأدبِ ، وطمحَ نظرُ مَنْ تأدَّبَ الى كتابِ (دُرَّةِ الغوّاصِ في أوهامِ الخوّاصِ) (٣) للأديبِ الأصمعيِّ والأريبِ الألمعيِّ أبي محمد القاسم بن عليّ الرَّبعيّ (٤) . كُسِيَ في دارِ النعيم حريراً ، ولا برحَ طَرْفُهُ في مقامِ التنعمِ بها قَريراً ، لِما أنَّهُ في عقدِ الفنون الأدبيةِ دُرَّةٌ ، وفي علومِ العربيةِ غُرَّةٌ . تميلُ إليه النفوس بالمَرَّةِ ، وتَطْمَحُ إليهِ الأنظارُ لما أنَّهُ قُرَّةٌ ، وإنْ كانَ للسَهَرةِ في مضمار القدح فيه مُهْرَةٌ ، وللأذكياء في

---

(١) المصقع : البليغ يتفنن في مذاهب القول .

(٢) المحتد (بفتح فسكون فكسر) : الأصل .

(٣) طبع أكثر من مرة .

(٤) هو الحريري صاحب المقامات ، ت ٥١٦ هـ . (الأنساب ١٣٨/٤ ، نزهة الألباء ٣٧٩ ، إنباه الرواة ٢٣/٣) .

هيجاءِ البحثِ فيه سَيْفٌ ذو شُهْرَة ، أَحْبَبْتُ أنْ أُذَيِّلَهُ تذييلاً ، وأضمَّ الى استعارتِه المكنيةِ مني تخييلاً ، فشمرّتُ الذَّيْلَ ، ووضعتُ باذن الله تعالى هذا الذَّيْلَ ، تذكرةً لاخواني ، وتبصرةً لجلة خلاّني ، وسمّيْتُهُ (سَهْمَ الألحاظ في وَهْم الألفاظ) ، إذْكانَ صَرْفُ هذا السَهْمِ الى طَرَفِ هذا الوَهْمِ ، حيثُ لا حصول للإصابةِ في حيزِ الوصولِ والإصابةِ .

واللهَ أسألُ ، وإنَّ سواهُ لن يُسأَلَ ، أنْ ينفعَ بهِ القاصي والداني ، والمثري والعاني ، وأنْ لا يجعله مَطْمَحَ أنظارِ القادحين ، ولا مطرحَ أعْراضِ مالهم ولو مِن بعدِ حين ، ولكن مظنّة لمقبولِ النقول بل مئينة لقبولِ ذوي العقول ما نقول ، وسبباً للدعاءِ الجميلِ في العاجلةِ وطريقاً الى (١٢٧ أ) الجزاءِ الجليلِ في الآجلةِ . إنّهُ على كل شيءٍ قديرٌ ، وبالإجابةِ معينٌ وجديرٌ .

* * *

١ـ فممـــا وهموا فيه وغلطوا : (السُّبْحَةُ) ، بضَمِّ السينِ . والصحيحُ فتحها . وهي بالسينِ أفصحُ من الصادِ ، بتصريحِ من صاحبِ القاموس (٥) ؛ فهي على عَكْسِ « صِراط » (٦) لما أنّهُ بالصادِ أَفْصَحُ من السينِ . ومن ثمَّ جَزَمَ الجَعْبَرِيّ (٧) اختيارَ قراءةِ الصادِ فيه لأنّها الفُصحى القرشية .

---

(٥) هو مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، ت ٨١٧ هـ . (الضوء اللامع ١٠/٧٩ ، بغية الوعاة ١/٢٧٣ ، أزهار الرياض ٣/٣٨) . وينظر : القاموس ١/٢٢٦ .

(٦) الفاتحة ٦ ، ٧ وسور أخرى (ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٠٧) .

(٧) ابراهيم بن عمر ، عالم بالقراءات ، ت ٧٣٢ هـ . (طبقات الشافعية الكبرى ٩/٣٩٨ ، غاية النهاية ١/٢١ ، النجوم الزاهرة ٩/٢٩٦) . وينظر : الاقناع في القراءات السبع ٥٩٥ ، سراج القارئ ٣١ ، شرح تلخيص الفوائد ١٩ .

٢- ومن ذلكَ : (الأُنْموذَجُ) . ففي القاموس (٨) : النَّموذَجُ ، بفتح النونِ : مِثالُ الشيءِ [مُعَرَّبٌ] ، والأُنموذجُ لحْنٌ .

ولا عِبْرَةَ بقولِ مَنْ سَبَقَهُ كصاحِبِ المُغْرِبِ (٩) حيثُ قال : النَّموذَجُ ، بالفتح ، والأُنموذَجُ ، بالضَّمِّ : تعريبُ نَموذَه .

وكالتَفْتازانيِّ (١٠) حيثُ جَزَمَ في مباحثِ الفصاحةِ من شرحِ المفتاح بأنَّ الأُنموذَجَ مُعَرَّبُ نموذه أو نمودار مُقِرّاً للسكّاكيِّ (١١) على استعمالِه في مفتاحِه .

٣- ونظيرُ تعريبِ نموذه ، إذ صارَ آخِرُهُ جيماً ، تعريبُ (ساذه) (١٢) حتى قِيلَ : ساذَج (١٣) ، على مثالِ قالَب .

وليسَ ساذَج كلمةً عربيةً لِما ذَكَرَهُ الجواليقيّ (١٤) من أنّكَ إذا مَرَّتْ بِكَ كلمةٌ اجتمعَ فيها السينُ مع الذالِ فحُكْمُها أنّها كلمةٌ مُعَرَّبَةٌ عن كلمةٍ أُخرى عَجَمِيَّةٍ .

---

(٨) القاموس ٢١٠/١ وما بين القوسين منه .

(٩) هو ناصر الدين المطرزي ، ت ٦١٠ هـ . وقوله في المغرب ٣٢٨/٢ .

(١٠) هو مسعود بن عمر ، ت ٧٩٣ هـ . (الدرر الكامنة ١١٩/٥ ، بغية الوعاة ٢٨٥/٢ ، مفتاح السعادة ٢٠٥/١) .

(١١) هو يوسف بن أبي بكر صاحب مفتاح العلوم ، ت ٦٢٦ هـ . (معجم الأدباء ٥٨/٢٠ ، بغية الوعاة ٣٦٤/٢ ، مفتاح السعادة ٢٠٣/١) .

(١٢) في القاموس ١٩٣/١ وشفاء الغليل ١٤٨ والألفاظ الفارسية المعربة ٨٨ : (ساده) بالدال المهملة .

(١٣) المعرب ٢٤٦ .

(١٤) هو موهوب بن أحمد ، ت ٥٤٠ هـ . (نزهة الألباء ٣٩٦ ، معجم الأدباء ٢٠٥/١٩ ، إنباه الرواة ٣٣٥/٣) .

٤- ومن ذلكَ : (الحِجْرةُ) بالكسر فالسكون : للأُنثى من الخَيْلِ . ففي القاموسِ (١٥) أيضاً ذَكَرَ أنَّ الحِجْرَ من غيرِ هاءٍ للأُنثى منها وأنّها بالهاءِ لَحْنٌ .

٥- ومن ذلكَ : (اقْلِيدِسُ) . ففي القاموسِ (١٦) أيضاً : (أُوقْلِيدِسُ ، بالضَّمِّ وزيادة الواو : اسمُ رجلٍ وَضَعَ كتاباً في هذا العلم المعروفِ ، وقولُ ابنِ عَبّادٍ (١٧) : اقْلِيدِس اسمُ كتابٍ ، غَلَطٌ) .

ووَجْهُ تغليطِهِ إيّاه حذفُ الواوِ لا جَعْلُهُ اسمَ كتابٍ ، لأنّهُ قد اطْلِقَ على كتابِ ذلكَ الرجلِ كثيراً بطريقِ المجازِ ، ككتبٍ كثيرةٍ اطْلِقَ عليها اسماء واضعيها . ولقد كثرَ استعمالُ اقليدس بدونِ الواوِ في كلامِ المولدين حتى كانَ من قبيلِ الغلطِ المشهورِ .

ومنه ما وَقَعَ في قولِ بَعْضِهِم (١٨) :

مُحِيطٌ بأشكالِ الملاحةِ وَجْهُهُ
كأنَّ به اقْلِيدِساً يَتَحَدَّثُ

فعارِضُهُ خَطُّ استواء وخالُهُ
به نُقْطَةٌ والشكْلُ شَكْلٌ مُثَلَّثُ

٦- ومن ذلكَ : (الكُسُّ) للحِرِ . والصحيحُ أنْ يُقالَ : حِرٌ . ففي القاموسِ أيضاً(١٩) : الكُسُّ ، بالضَّمِّ ، للحِرِ ليسَ من كلامِهم ، إنّما

---

(١٥) القاموس ٤/٢ .

(١٦) القاموس ٢٤٢/٢ . وينظر : تثقيف اللسان ١٤١ ، خير الكلام ١٨ .

(١٧) هو الصاحب اسماعيل بن عباد ، ت ٣٨٥ هـ . (يتيمة الدهر ١٩٢/٣ ، معجم الأدباء ١٦٨/٦ ، وفيات الأعيان ٢٢٨/١) .

(١٨) ابن جابر الضرير في نفح الطيب ٦٨١/٢ .

(١٩) القاموس ٢٤٦/٢ .

هو مُوَلَّدٌ . هذا كلامُهُ . ويلزمُ منه أنْ يكونَ غلَطاً بالنسبة الى كلامِ العربِ العرباء . وعلى استعمالِهِ في كلامِ المولّدِين قولُ مَنْ قالَ :

جاءَ الشتاءُ وعندي مِن حوائجِهِ
سَبْعٌ إذا القَطْرُ عن حاجاتنا جاء
كِنٌّ وكيسٌ وكانونٌ وكاسُ طِــلا
مع الكبابِ وكُسٍ ... وكِساء (٢٠)

(١٢٧ ب) ولكونِهِ مُوَلّداً لم يُجْمَعْ بيْنَهُ وبَيْنَ الكَمَرَةِ في بَيْتِ مَنْ جَمَعَ بينَ الأعضاءِ العشرةِ التي في أوائلِ أسمائِها الكافُ في بَيْتٍ واحدٍ فقالَ :

إنْ قُلتَ كم في الفتى عضو بأوّلِهِ
كافٌ فخُذْهُ مني عداً يبلغُ العَشَره
كَفٌّ وكَعْبٌ وكشْحٌ كاهِلٌ كَتِفٌ
كوعٌ كلى كبدٌ كرسوعٌ الكَمَرَه

والكَمَرَةُ ، بفتحتين : واحِدةُ الكَمَر ، كالثَمَرَةِ واحدة الثَمَرِ . والمكمورُ : الرجلُ الذي أصابَ الخاتنُ طرفَ كَمَرَتِهِ . وكامَرْتُهُ فكمرتُهُ أكمُرُهُ : إذا غلبته بعظم الكَمَرَةِ . .

٧- ومن ذلكَ : (المَرْدَكُوش) بالكافِ ، للمَرْزَنجوش . وإنّما هو بالقاف ، مُعَرَّبُ مُرْدَه كُوش ، بضم الميم ، وقد عَرَّبوه بفتح الميم وقلب الكافِ قافاً دون حذف الهاء لثبوتِها خطّاً فقط . وتفسيره بالمرزنجوش ، بزيادةِ نونٍ قبلَ الجيم ، هو ما في القاموس (٢١) .

(٢٠) مكان النقاط كلمة غير واضحة .
(٢١) القاموس ٢٨٧/٢ .

وأمّا مُعرَّبُ الجواليقي (٢٢) ففيه أنّهُ المَرْزَجُوش ، بدون النون ، وذلكَ أنّهُ قالَ فيه : (والمَرْزَجُوش والمَرْدَقُوش والعَنْقَزُ والسَّمْسَقُ واحدٌ . وليسَ المَرْدَقُوش والمَرْزَجُوش من كلامِ العرب ، إنّما هي بالفارسية مَرْدُكوش ، أي ميّتُ الأُذُنِ) .

وهو مخالِفٌ لِما مَرَّ مِن حيثُ سكونُ الدالِ وعدم الهاءِ خطّاً في أصْلِهِ الفارسيّ على هذا القولِ .

٨ـ ومن ذلكَ : (المَصِّيصَةُ) بتشديد الصادِ ، لبلدٍ في الشام (٢٣) . ففي القاموس (٢٤) أنّها كسَفِينة وأنّها لا تُشَدَّدُ .

٩ـ ومن ذلكَ : (القَنَّبِيطُ) بفتحِ القافِ والنون المشدَّدة . وإنّما هو بضَمٍّ القافِ مع فتحِ النونِ المشدَّدةِ (٢٥) .

١٠ـ ومن ذلكَ : (طابَ حَمّامُكَ) . ففي القاموسِ (٢٦) أنّهُ لا يُقالُ ، وإنّما يُقالُ : طابَتْ حِمّتُكَ ، بالكَسْرِ .

١١ـ ومن ذلكَ : (انْعَدَمَ) . قالَ في القاموسِ (٢٧) : وقولُ المتكلِّمينَ : انعدمَ ، لَحْنٌ .

١٢ـ ومن ذلكَ قولهم : (الله) بحذفِ الألفِ . فقدجزَمَ البَيْضَاوِيّ (٢٨)

---

(٢٢) المعرب ٣٥٧ . وفيه : إنما هي بالفارسية : مردقوش .

(٢٣) معجم ما استعجم ١٢٣٥ ، معجم البلدان ١٤٤/٥ وهي فيهما بتشديد الصاد . وضبطها البكري بكسر الميم .

(٢٤) القاموس ٣١٨/٢ .

(٢٥) تثقيف اللسان ١٠٧ ، القاموس ٣٨٣/٢ .

(٢٦) القاموس ١٠٠/٤ . وفي الأصل : طابت حمامك . وأثبتنا رواية القاموس .

(٢٧) القاموس ١٤٨/٤ وفيه : وقول المتكلمين : وجد فانعدم ، لحن .

(٢٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٣ . والبيضاوي هو عبدالله بن عمر ، ت ٦٨٥ هـ ، (بغية الوعاة ٥٢/٢ ، طبقات المفسرين ١٤٢/١ ، شذرات الذهب ٣٩٢/٥) .

بأَنَّهُ لَحْنٌ . وجَعَلَ الحذفَ في قولِهِ (٢٩) :

أَلاَ لا باركَ اللهُ في سُهَيْلٍ   إذا ما اللهُ باركَ في الرجالِ

لضرورةِ الشعر ، وهو فيه في المصراعِ الأوَّلِ كما لا يخفى .

١٣- ومن ذلكَ : (القَيْلولةُ) في معنى الإقالةِ . فلا يُقالُ : سأَلْتُهُ القَيْلولةَ في البيعِ . قالَ صاحبُ أَدَبِ الكاتبِ (٣٠) : سألتُهُ الإقالةَ في البيع . والعامةُ تقولُ : القَيْلُولة ، وذلكَ خَطَأٌ ، إنّما القيلولةُ نومُ نصفِ النهارِ . هذا كلامُهُ (٣١) .

ويعضدُهُ عَدَمُ حكايةِ صاحبي الصحاحِ (٣٢) والقاموس إيّاها بهذا المعنى . وقولُ صاحبِ المُغْرِب (٣٣) : والقيْلولةُ في مَعنى الإقالة مما لم أجِدْهُ .

١٤- ومن ذلك : (تُرْياق) بضَمِّ التاء . وإنّما هو بكسرها . والدِّرْياقُ لُغَةٌ فيه ، كما ذَكَرَهُ الجَواليقي (٣٤) ، قالَ : وهو روميٌّ مُعَرَّبٌ ، وأَنْشَدَ (٣٥) :

---

(٢٩) ينظر في البيت : الخصائص ١٣٤/٣ ، المحتسب ١٨١/١ ، ضرائر الشعر ١٣١ ، خزانة الأدب ٣٤١/٤ .

(٣٠) هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، ت ٢٧٦ هـ . (طبقات النحويين واللغويين ١٨٣ ، الفهرست ٨٥ ، تاريخ العلماء النحويين ٢٠٩) .

(٣١) أدب الكاتب ٤١٧ .

(٣٢) صاحب الصحاح هو اسماعيل بن حماد الجوهري ، ت ٣٩٣ هـ . (نزهة الألباء ٣٤٤ ، مرآة الجنان ٤٤٦/٢ ، شذرات الذهب ١٣٤/٣) .

(٣٣) المغرب في ترتيب المعرب ٢٠٢/٢ .

(٣٤) المعرب ١٩٠ . وينظر : المدخل الى تقويم اللسان ق١ ص ٦١ ففيه أربع لغات هي : الترياق والدرياق والطرياق والدراق .

(٣٥) لرؤبة ، ديوانه ١٤٢ . وفيه : وترياقي .

رِيقي ودِرياقي شِفاءُ السَّمِّ

وحَكَى صاحبُ أدبِ الكاتبِ (٣٦) : الطِرْياق ، بكَسْرِ الطاء (١٢٨ آ) أيضاً ، فقد تعاقبتِ الحروفُ النِّطْعِيّةُ الثلاثةُ (٣٧) في أوَّلِهِ ، أنّها مِن مخرجٍ واحدٍ تقريبي على ما قَرَّرَ في محلِهِ .

وأمّا الدِّرْياقَةُ ، وهي الخَمْرُ ، فلم يحكِ فيها الجواليقي (٣٨) غيْرَ الدّالِ ، وأنْشَدَ لحَسّان (٣٩) :

مِن خمْرِ بَيْسانَ تَخيَّرْتُها ... دِرْياقَةً تُوشِكُ فَتْرَ العِظامْ

وبعدَ هــذا البيتِ على ما وَجَدْتُهُ بخَطِّ أبي محمدٍ عبدِالله بنِ بَرِّي المَقْدِسِيّ (٤٠) :

وهي حرامٌ طَيِّبٌ شُرْبُهــا ... يا ربّ ما أَطْيَبَ شُرْبَ الحرامْ

١٥– ومن ذلك : (طَرَسُوس) لبَلَدٍ ، بسكونِ الراءِ ، في غيرِ الشعرِ ، على ما في الصحاح(٤١) من روايتها بفتح الراءِ مع الجزمِ بأنّهــا لا تُخفَّفُ أي بالإسكانِ إلاّ في الشعر ، لأنّ فَعْلولاً ليسَ من أبنيتِهِم .

١٦– ومِثْلُهُ : (القَرَبوس) للســرجِ ، جزَمَ (٤٢) أيضــاً بأنّهُ لا يُخفّفُ إلاّ في الشعرِ . وقولُ الشاعرِ (٤٣) :

(٣٦) لم أقف على قولته في أدب الكاتب .
(٣٧) وهي الطاء والدال والتاء .
(٣٨) المعرب ١٩٠ .
(٣٩) ديوانه ١٠٦/١ وفيه البيت الأول فقط .
(٤٠) توفي سنة ٥٨٢ هـ . (معجم الأدباء ٥٦/١٢ ، إنباه الرواة ١١٠/٢ ، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ١٣٩/١) .
(٤١) الصحاح (طرس) . (٤٢) أي الجوهري في الصحاح (قربس) .
(٤٣) يزيد بن مسلمة . وقيل : محمد بن يزيد بن مسلمة . (الكامل ٥٣٨ ، دلائل الإعجاز ٥٨ ، معاهد التنصيص ١٣٢/٢) .

وإذا احتبى قَرَبُوسُهُ بعنانِهِ عَلَكَ الشَّكيمَ الى انصرافِ الزائرِ

يحتملُ الإسكانَ على الإضمارِ في (متفاعلن) إلاَّ أنْ يثبتَ التحريك بالفتحِ على التمامِ .

١٧– ومن ذلك قولُهُم : (قَرَّ) اللهُ عَيْنَكَ . والصوابُ : أَقَرَّ ، بالهمزة . وعليه اقتصرَ صاحبُ القاموسِ (٤٤) . والمعنى : أَبْرَدَ اللهُ دَمْعَتَكَ ، لأَنَّ دَمْعَةَ السرورِ باردةٌ ، ودَمْعَةَ الحُزْنِ حارَّةٌ .

وأَقَرَّ مُشْتَقٌّ من القَرورِ ، وهو الماءُ الباردُ (٤٥) . هكـذا قالَ الأَصمعيّ (٤٦) .

قالَ صاحبُ الفاخرِ ، وهو المُفَضَّلُ بنُ سَلَمَةَ بنِ عاصمٍ (٤٧) صاحبُ أبي زكريا يحيى الفرّاء(٤٨) : وقالَ غيرُ الأصمعيّ : معنى (أَقَرَّ اللهُ عَيْنَكَ) أي صادَفْتَ ما يُرْضيكَ فتقرّ عينُك من النَّظَرِ الى غيرِه . هذا ما نَقَلَهُ عن غيرِ الأصمعيّ .

وعلى ما مَرَّ عن الأصمعيّ اعتمدَ بعضُ فُقَهائنا في مسألةِ بكاءِ البكرِ البالغةِ عندَ الاستئذانِ على نكاحِها فقالَ : إنْ كانَ دَمْعُها بارِداً فدليلُ الرضَى ، أو حارّاً فدليلُ خِلافِهِ .

وبالجملةِ فقَرَّ المتعدي خَطَأٌ ، وأمّا اللازمُ نحو: قَرَّتْ عَيْنُكَ فصوابٌ.

---

(٤٤) القاموس ١١٥/٢ .

(٤٥) ينظر : أمثال أبي عكرمة ١٠٦ ، الفاخر ٦ والزاهر ٣٠٠/١ وفيهما قول الأصمعي .

(٤٦) هو عبدالملك بن قريب ، ت ٢١٦ هـ . (مراتب النحويين ٤٦ ، الجرح والتعديل ٣٦٣/٢/٢ ، غاية النهاية ٤٧٠/١) .

(٤٧) توفي سنة ٢٩١ هـ . (تاريخ بغداد ١٢٤/١٣ ، نور القبس ٣٣٩ ، طبقات المفسرين ٣٢٠/٢) .

(٤٨) توفي سنة ٢٠٧ هـ . (طبقات النحويين واللغويين ١٣١ ، تاريخ بغداد ١٤٩/١٤) .

ولله درُّ الزمخشريّ (٤٩) إذْ قالَ في المائة النوابغِ : (عَيْني تَقَرُّ بِكُمْ عندَ تَقَرُّ بِكُمْ) (٥٠) .

١٨- ومن ذلك : (رُزْمَةُ) الثيابِ ، بضمِّ الراءِ بعدَها زايٌ ساكنةٌ .
والمنقولُ في الفاخرِ (٥١) كَسْرُ الراءِ : قالَ الأصمعيّ وغيرُهُ : إنّما يُقالُ : رِزْمَةٌ لما كانَ فيه ثيابٌ مختلفةٌ . وهو من قولهِم :
قد رازَمَ طعامَهُ ، إذا خلَطَ سَمْناً وزَيْتاً أوربا وسَمْناً وغير ذلك .

وفي القاموس (٥٢) : والرِزْمَةُ ، بالكَسْرِ : ما شُدَّ في ثوبٍ واحدٍ .

١٩- ومن ذلكَ قولُهُم : جاءوا على (بِكرَةِ) أبيهِم ، بكسرِ الموحدةِ .
والمنقولُ (١٢٨ب) في الفاخرِ (٥٣) أيضاً فَتْحُها . والمعنى : جاءوا على طريقةٍ واحدةٍ ، أو جاءوا بأجمعِهِم ، أو جاءوا بَعْضُهُم إثْرَ بعضٍ .
والمعنى الثاني من هذه المعاني الثلاثةِ هو الملحوظُ في زمانِنا .

٢٠- ومن ذلك قولهم : (في سبيلِ اللهِ عليك) . قالَ في أدبِ الكاتبِ (٥٤) : وهو خطأٌ ، إنّما هو : في سبيلِ اللهِ أنْتَ .

٢١- ومن ذلكَ قولهم : إنْ فَعَلْتَ كذا وكذا (فبِها ونِعْمَه). قالَ في أدَبِ الكاتبِ (٥٥) : يذهبون الى النعمة ، وإنّما هو : ونِعْمَتْ ، بالتاءِ ، في الوَقْفِ . يريدون : ونِعْمَتِ الخَصْلَةُ ، فحذفوا . وقالَ قَوْمٌ : فبها ونَعِمْتَ ، بكسر العين وتسكين الميم ، من النعيم . انتهى .

---

(٤٩) هو محمود بن عمر ، ت ٥٣٨ هـ . (نزهة الألباء ٣٩١ ، إنباه الرواة ٣/٢٦٥ ، البلغة في تاريخ أئمة اللغة ٢٥٦) .

(٥٠) نوابغ الكلم ٣ . (٥١) الفاخر ٢٦٧ . و (أوربا وسمناً) ليست في الفاخر .

(٥٢) القاموس ٤/١١٩ . (٥٣) الفاخر ٢٥ .

(٥٤) أدب الكاتب ٤١٣ . (٥٥) أدب الكاتب ٤١٤ .

وفي القاموس (٥٦) : ويُقالُ : إنْ فَعَلْتَ فيها ونِعْمَتْ . بتاءٍ ساكنةٍ وقْفاً ووَصْلاً ، أي نِعْمَتِ الخَصْلَةُ .

٢٢– ومن ذلك قولهم : (قَفَلْتُ) البابَ . بالتخفيف . فقد اقتصرَ الجوهري (٥٧) على حكايةِ أَقْفَلَ البابَ . وقَفَّلْتُ الأبوابَ ، بالتشديدِ . مثل : أغلقَ . وغلّقَ . به أيضاً. ومنه قولُه تعالى: « وغَلَّقَتِ الأبوابَ »(٥٨).

وجزم صاحب أدب الكاتب (٥٩) بأنّه لا يُقالُ : قَفَلْتُ البابَ . بالتخفيف . وهذا كما لا يُقال : غَلَقْتُه ، بالتخفيف . فهو مَغْلوقٌ ، لما أنّهُ لغة رديئة متروكة . حتى قالَ أبو الأسودِ الدؤلي (٦٠) :

ولا أقولُ لقِدرِ القومِ قَدْ غَلِيَتْ ولا أقولُ لبابِ الدارِ مغلوقُ

وعلى لغةِ أَغْلَقْتُ جاءَ قولُ الفرَزْدَقِ (٦١) :

ما زِلْتُ أَفْتَحُ أبواباً وأُغْلِقُها حتى أَتَيْتُ أبا عَمْرِو بنَ عَمّارِ

أَنْشَدَهُ الجوهري (٦٢) . وهو من جملةِ ثلاثةِ أبياتِ قالها الفرزدَقُ في مدحِ أبي عمرو بن العلاء (٦٣). فعن الفرزدقِ أنّهُ لمّا توارى أبو عمرو من الحجاجِ (٦٤) ما زالَ يتوصلُ حتى لقيه فقالها ، ولكنْ بلفظِ :

ما زِلتُ أغلقُ أبواباً وأفتحها . . . .

---

(٥٦) القاموس ١٨٢/٤ . (٥٧) الصحاح (قفل) .
(٥٨) يوسف ٢٣ . (٥٩) أدب الكاتب ٣٧١ .
(٦٠) ديوانه ١٦٩ . (٦١) ديوانه ٣٨٢ .
(٦٢) الصحاح (غلق) .
(٦٣) أحد القراء السبعة ، ت ١٥٤ هـ . (أخبار النحويين البصريين ٢٢ ، التيسير ٥ ، نور القبس ٢٥) .
(٦٤) الحجاج بن يوسف الثقفي ، عامل عبدالملك بن مروان على العراق وخراسان ، ت ٩٥ هـ . (مروج الذهب ١٢٥/٣ ، الأوائل ٦٠/٢ ، وفيات الأعيان ٢٩/٢) .

وسألَهُ عن اسمِهِ فقالَ : أبو عمرو . قالَ : فلم أراجِعْهُ لهيبتِهِ .

وقولُ الفرزدقِ إنّهُ ابنُ عمّار . من بابِ النسبةِ بالبنوةِ الى الجدّ ، وإلاّ فهو أبو عمرو بن العلاء بن عمّار ، كما ذكروه .

٢٣– ومن ذلك قولهم لآلةِ النجّارِ المخصوصة : (القَدُّومُ) بتشديدِ الدال . ففي أدبِ الكاتبِ (٦٥) أنّهُ لا يُقالُ : قَدُّوم ، بتشديدِها . ومثلُهُ عن ابنِ السكّيت (٦٦) . وقالَ ابنُ الأنباريّ (٦٧) : العامّةُ تُخطِئُ فيها وتُثقِّلُ . ومثلُهُ في البارعِ (٦٨) . وقولُهُ (٦٩) :

فقاتُ أعيرانِي القَدُومَ لَعَلّني

ناطِقٌ بتخفيفِ الدالِ بلاجدال .فلا مجالَ لاعتبارِ قولِ صاحبِ المُغْرِبِ(٧٠) : (وأمّا القَدومُ من آلاتِ النجّارِ فالتشديدُ فيه لُغَةٌ) بعدَ هذهِ الأقوالِ .

على أنّ صاحبي (١٢٩ آ) المطالعِ والتقريبِ (٧١) لم يحكيا فيها التشديد أصلاً ، بل في المطالعِ أنّها مُخَفَّفَةٌ لا غيْر .

---

(٦٥) أدب الكاتب ٣٧٨ .

(٦٦) اصلاح المنطق ١٨٣ . وابن السكيت هو يعقوب بن اسحاق ، ت ٢٤٤ هـ . (تاريخ بغداد ٢٧٣/٤ ، معجم الأدباء ٥٠/٢٠ ، إنباه الرواة ٥٠/٤) .

(٦٧) أبو بكر محمد بن القاسم ، ت ٣٢٨ هـ . (الفهرست ٨٢ ، تاريخ بغداد ١١٨/٣ ، الأنساب ٣٥٣/١) . وقولته في كتابه المذكر والمؤنث ٤١٤ .

(٦٨) أخل به كتاب البارع المطبوع بتحقيق د . هاشم الطعان ، رحمه الله تعالى .

(٦٩) بلا عزو في اللسان (قدم) والمقاصد النحوية ٣٥٠/١ وهمع الهوامع ٢٢٤/١ ، وعجزه : أخط بها قبراً لأبيض ماجد .

(٧٠) المغرب في ترتيب المعرب ١٦٢/٢ .

(٧١) صاحب (مطالع الأنوار على صحاح الآثار) هو ابن قرقول ، ت ٥٦٩ هـ . وصاحب (التقريب في علم الغريب) هو ابن خطيب الدهشة ، ت ٨٣٤ هـ .

وأمّا ما روي من أنّهُ (اختَتَنَ ابراهيمُ عليه السلامُ ، بالقَدُومِ) (٧٢) فالقدوم فيه مروي بالتشديد والتخفيف . وهو على الأوّلِ قريةٌ بالشامِ . كما ذكره صاحب المطالع . زادَ صاحبُ التكملة (٧٣) فقال : عندَ حلب . وعلى التخفيف يحتملُ القرية المذكورة وآلة النّجّارِ المخصوصة .

قال النووي (٧٤) : والأكثرونَ على التخفيفِ وعلى إرادةِ الآلةِ .

٢٤- ومن ذلك قولُهُم : (الكِتّان) لِما يُتّخَذُ منهُ الخيوطُ ، بكَسْرِ الكافِ . وإنّما هو بفتحِها على ما في الصحاحِ (٧٥) وأدَبِ الكاتبِ (٧٦) والتقريبِ من الاقتصارِ على فَتْحِها . وعلى ما في المُغْرِبِ (٧٧) من ضَبْطِهِ بالقلمِ بالفتحِ دونَ غيرِهِ . وهو غيرُ القِنّبِ الذي يُتّخَذُ منهُ الحبالُ عندَ بَعْضٍ ، وغيره عندَ بعضٍ . وعليهِ جرَى استعمالُ أهلِ زماننا .

٢٥- ومن ذلكَ : هي ثيابٌ (جُدَد) بضم الجيم وفتحِ الدالِ الأولى . وحكَى في أدبِ الكاتبِ (٧٨) ضَمّ الدالِ الأولى ، قالَ : (ولا يُقالُ : جُدَدٌ ، بفتحِها) . انتهى .

وفي الصحاح (٧٩) : (و ثيابٌ جُدُدٌ ، مِثْلُ سريرٍ وسُرُرٍ) . قالَهُ بعدَ أنْ قالَ ما نَصُّهُ : (وجَدّ الشيءُ ، أي صارَ جَديداً ، وهو نقيضُ الخَلَقِ . وثوبٌ جديدٌ . وهو في معنى مجدودٍ ، يُرادُ به حينَ جَدّهُ الحائكُ ، أي قَطَعَهُ).فاحتملَ جُدُدٌ أنْ يكونَ جمعاً لجديدٍ بكلا مَعْنَيَيْهِ.

(٧٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٧/٤ .

(٧٣) هو الصغاني المتوفى ٦٥٠ ﻫ في كتابه التكملة والذيل والصلة ١١٨/٦ .

(٧٤) يحيى بن شرف ، ت ٦٧٦ ﻫ . (النجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ ، الأعلام ١٨٥/٩) .

(٧٥) الصحاح (كتن) . (٧٦) أدب الكاتب ٣٨٨ . (٧٧) المغرب في ترتيب المعرب ٢٠٨/٢ .

(٧٨) أدب الكاتب ٣٩٤ . (٧٩) الصحاح (جدد) .

٢٦- ومن ذلك قولُهُم : (انحفظَ) و (انقرأ) و (انكتبَ) . ففي ديباجةِ الانفعال (٨٠) للإمامِ الصغاني أنّ (انحفظ وانقرأ وانكتب) مستحدثٌ استحدثه المولّدون مما لا يُعتدُّ بوجودِهِ ولا يُعبأُ بكونِهِ .

٢٧- ومن ذلك : (الجَبْهَةُ) و (الجَبينُ) لا يكادُ الناسُ يفرقونَ بينهما . والجَبْهَةُ مَسْجِدُ الرجلِ الذي يُصيبه نَدَبُ السجودِ ، والجبينانِ يكتنفانها ، من كلِّ جانبٍ جبينٌ . كذا في أدبِ الكاتبِ (٨١) .

وصاحِبُ القاموس(٨٢) على التفرقةِ بينهما أيضاً . فقد قَطَعَ بأنَّ الجَبْهَةَ موضعُ السجودِ من الوجه أو مستوى ما بينَ الحاجبين الى الناصية . وأنَّ الجبينين حرفانِ مُكْتَنِفا الجَبْهَةِ من جانبيهما فيما بينَ الحاجبين مُصْعِداً الى قُصاصِ الشَعَرِ . الى أنْ نَقَلَ قولاً آخرَ في تفسيرِ الجبينِ فقالَ : أو حُروفُ (٨٣) الجَبْهَةِ ما بَيْنَ الصُدْغَيْنِ مُتَّصِلاً بحذاءِ (٨٤) الناصيةِ كُلُّهُ جبينٌ . انتهى .

وفي عمدةِ الحفاظِ (٨٥) في تفسيرِ قولِهِ تعالى : « وتَلَّهُ للجبينِ » (٨٦) أنَّهُ واحدُ الجبينين ، وهما جانبا الجبهةِ .

---

(٨٠) الانفعال ١ - ٢ . والصغاني هو الحسن بن محمد بن الحسن ، ت ٦٥٠ هـ كما سلف . (معجم الأدباء ١٨٩/٩ ، النجوم الزاهرة ٢٦/٧ ، شذرات الذهب ٢٥٠/٥) .

(٨١) أدب الكاتب ٣٦ . وينظر : تقويم اللسان ١١٠ ، خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام ٢٧ .

(٨٢) القاموس ٢٠٨/٤ و ٢٨٢ .

(٨٣) من القاموس . وفي الأصل : حرف .

(٨٤) من القاموس . وفي الأصل : عدا .

(٨٥) (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ) : كتاب في غريب القرآن مازال مخطوطاً ، ومؤلفه أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ، ت ٧٥٦ هـ .

(٨٦) الصافات ١٠٣ .

٢٨ـ ومن (١٢٩ ب) ذلك قولُهُم : هو ابنُ عَمِّي (لَحِيح) . وإنّما المنقولُ في الصحاحِ (٨٧) وأدبِ الكاتبِ (٨٨) : هو ابنُ عَمِّي لَحّاً ، وهو ابنُ عَمٍّ لحٍّ . قالَ في الصحاح : (ولَحِحَتْ عينُهُ ، بالكَسْرِ ، إذا لَصِقَتْ بالرَمَصِ . وهو أحَدُ ما جاءَ على الأصلِ ، مِثْلُ : ضَبِبَ البَلَدُ ، بإظهارِ التضعيفِ . ومنه قولُهُم : هو ابنُ عَمِّي لَحّاً ، أي لاصِقُ النَسَبِ . ونُصِبَ على الحالِ لأنَّ ما قبله معرفةٌ . ونقولُ في النكرةِ : هو ابنُ عَمٍّ لَحٍّ ، بالكَسْرِ ، لأنَهُ نعتٌ للعَمِّ . [وكذلكَ المؤنثُ والاثنانِ والجمعُ] (٨٩) . فإنْ لم يَكُنْ لَحّاً ، وكانَ رجلاً من العشيرةِ قُلْتَ : هو ابنُ عَمٍّ الكَلالَةِ ، وابنُ عَمٍّ كلالَةٌ) . هذا كلامُهُ .

وكلالةٌ فيه ، بالرفعِ ، صفةُ ابنٍ ، لا بالخفضِ صِفةُ عمٍّ ، بخلافِ لَحٍّ في مثالِ النكرةِ فإنّهُ صفةُ عَمٍّ ، كما ذكرهُ .

٢٩ـ ومن ذلك قولُهُم : وَقَعَ في الشراب (ذُبّانةٌ) أو (ذُبّان) بضَمِّ الذالِ المعجمةِ وتشديدِ الموحدةِ ، على توهمِ الذُبّانَة ، بالنونِ ، واحدة الذُبّان ، كالذُبَابةِ ، بالموحدة بعدَ الألفِ ، واحدة الذُباب ، بضَمِّ ذالِهما وتخفيفِ بائِهما .

والصوابُ أنْ يقالَ : وَقَعَ فيه ذُبَابةٌ أو ذُبَابٌ ، بالباءِ دونَ النونِ (٩٠) نَعَمْ يُقالُ : ذِبّان ، بالكسر ، في جمعِ ذُباب ، كغِربانٍ في جَمْعِ غُرابٍ.حكاه الجوهريّ(٩١). قالَ : ولا تَقُلْ : ذِبّانةٌ ، يعني بالكَسْرِ ،

---

(٨٧) الصحاح (لحح) . ٥٣ وينظر المنصف ١ / ٢٠٠ وسفر السعادة ١ / ٤٥٤ .

(٨٨) أدب الكاتب ٥٣ . (٨٩) من الصحاح .

(٩٠) لحن العوام ٣١ ، تثقيف اللسان ١٩٤ ، المدخل الى تقويم اللسان ق ٤ ص ٩٧ ، الجمانة في إزالة الرطانة ١٣ . (٩١) الصحاح (ذبب) .

على أنّها واحدةُ الذِبّانِ ، بالكَسْرِ ، بناء على أنّهُ جنسٌ لا جمعُ ذُبابٍ .

بقيَ شيءٌ وهو أنَّ مَنْ أهملَ ذالَ الذُبَابِ فقد لَحَنَ أيضاً . وكـذا مَنْ أهملها وفتحَ الميمَ من المِذَبَّةِ ، إذْ هي الآلةُ التي يُطْرَدُ بها الذُبابُ ، من : ذَبَبْتُ عن فُلانٍ : طردت عنهُ . فتكونُ بالإعجامِ والكَسْرِ جزماً .

٣٠- ومن ذلكَ : (الكِلْوةُ) بكسرالكاف. وإنّما هي الكُلْيَةُ أو الكُلْوَةُ ، بالضمِّ فيهما . قال ابنُ السِّكِّيتِ (٩٢) : ولا تَقُلْ : كِلْوة . ومثلُهُ قالَ في أدبِ الكاتبِ (٩٣) بضبطِ كُلْوة ، التي لا تُقالُ بالكَسْرِ . وعلى ضَمِّ كُلْوة اقتصرَ صاحبُ القاموسِ (٩٤) .

٣١- ومن ذلكَ قولُهُم : عِرْقُ (الانسا) ، بزيادةِ همزةٍ . وإنّما الصوابُ تركها . قالَ ابنُ السِّكِّيتِ (٩٥) : (هو عِرْقُ النَّسا . قالَ : وقالَ الأصمعيّ : هو النَّسَا ، ولا تقُلْ : عِرْقُ النَّسَا ، كما لا تَقُلْ : عِرْقُ الأَكْحَلِ ولا عِرْقُ الأَنْجَلِ ، وإنّما هو الأَكْحَلُ والأَنْجَلُ) . كذا في الصحاح (٩٦) . وما في القاموسِ (٩٧) عن الزَّجّاجِ (٩٨) : (لا تقل : عِرْقُ النَّسَا ، لأنَّ الشيءَ لا يُضافُ الى نفسِهِ) فمردودٌ لأنَّ هذه الإضافةَ من بابِ إضافةِ العامِ الى الخاصِ ، نحو شجر الاراك ، وعلم الفقه .

---

(٩٢) اصلاح المنطق ٣٤٢ وفيه : وتقول : هذه كلية ، ولا تقل : كلوة .

(٩٣) أدب الكاتب ٤٠٨ . (٩٤) القاموس ٣٨٣/٤ .

(٩٥) اصلاح المنطق ١٦٤ . وينظر : التنبيه على غلط الجاهل والنبيه ٥٩٦ ، خير الكلام ٥٩ . ويلاحظ أن ابن الحنبلي نقل قول ابن السكيت من الصحاح .

(٩٦) الصحاح (نسا) . (٩٧) القاموس ٣٩٥/٤ .

(٩٨) ينظر : الرد على الزجاج في مسائل أخذها على ثعلب ٢١ . والزجاج هو أبو اسحاق ابراهيم ابن السري ، ت ٣١١ هـ . (تاريخ بغداد ٨٩/٦ ، معجم الأدباء ١٣٠/١ ، طبقات المفسرين ١٧/١) .

فإنْ كانَ المنعُ لمجردِ ذلكَ فالمنعُ في حيزِ المنعِ . نَعَمْ إنْ كانَ لِما أنَّ ذلكَ غير مسموع ، فافهمْ .

٣٢– ومن ذلك قولُ بَعْضِهِم : (يا هو) . فعَنِ الشيخِ أبي حيّان(٩٩) (١٣٠ آ) أنّهُ قالَ : وقولُ جَهَلَةِ الصوفيةِ في نداءِ اللهِ : يا هو ، ليسَ جارياً على كلامِ العرَبِ . هذا كلامُهُ .

وحُكْمُ كلامِهِم في هذا المقام أنَّ النداءَ يقتضي الخِطابَ ، فلا يكونُ ضميرُ الغَيْبَةِ ، وكذا ضميرُ التكلمِ ، منادى . وأمّا ضميرُ الخِطابِ ففيه خِلافٌ . وظاهِرُ كلامِ ابنِ مالكٍ (١٠٠) أنّهُ يجوزُ ، فتقولُ : يا إيّاك ، ويا أنتَ . قالَ : و (يا إيّاك) هو القياسُ ، لأنَّ المنادى منصوبٌ ، فلا يكونُ إلاّ مِن ضمائِرِ النصبِ . وأمّا (يا أنْتَ) فشاذٌ . هذا كلامُهُ .

وقد استشهدَ على ما جَوَّزَهُ مِن (يا إيّاك) و (يا أنْتَ) بشاهدين . إلاّ أنَّ الشيخَ أبا حيّان قد تأوَّلهما بما نَقَلَهُ الغَرناطيّ (١٠١) عنه في محله من شرحِ الدُرَّةِ الألفية (١٠٢) .

٣٣– ومن ذلك : (الجُعْبَةُ) بضَمِّ الجيمِ ، لكِنانةِ النُشّابِ . وإنّما هي بِفَتحِها (١٠٣) .

---

(٩٩) هو أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي النحوي المفسر ، ت ٧٤٥ هـ . (الدرر الكامنة ٧٠/٥ ، حسن المحاضرة ٥٣٤/١ ، البدر الطالع ٢٨٨/٢) .

(١٠٠) هو جمال الدين محمد بن مالك ، ت ٦٧٢ هـ . (تذكرة الحفاظ ١٤٩١ ، الوافي بالوفيات ٣٥٩/٣ ، فوات الوفيات ٤٠٧/٣) . وينظر : التسهيل ١٧٩ ، شرح الكافية الشافية ١٢٩٠ وينظر أيضاً في هذه المسألة : الانصاف ٣٢٥ ، المساعد على تسهيل الفوائد ٤٨٢/٢–٤٨٣ ، خزانة الأدب ٢٨٩/١ .

(١٠١) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف صاحب ابن جابر الضرير ، ت ٧٧٩ هـ . (الدرر الكامنة ٣٦١/١ ، بغية الوعاة ٤٠٣/١) .

(١٠٢) لابن معطي المغربي المتوفى ٦٢٨ هـ .

(١٠٣) اللسان والتاج (جعب) .

٣٤- ومن ذلك : (السُّدَابُ) بضمّ المهملةِ واهمال الدّالِ ، للبَقْلِ المعروفِ . وإنّما هو بفتحِ المهملةِ واعجامِ الذّالِ (١٠٤) .

٣٥- ومن ذلك : (البَرْغُوثُ) بفتحِ الأَوّلِ . وإنّما هو بضَمّهِ(١٠٥).

٣٦- ومن ذلك : (السُّنْبادِجُ) بكَسْرِ الدالِ المهملة ، للحجر الذي يجلو به الصَّيْقَلُ السيوفَ . وإنّما هو بفتحِ الذالِ المعجمة (١٠٦) .

٣٧- ومن ذلك : (الشَّيْطَرَجُ) للدواءِ المعروفِ ، بفتحِ الشينِ . وإنّما هو بكَسْرِها (١٠٧) .

٣٨- ومن ذلك : (الصَّهْريجُ) بفتحِ الصادِ ، لحوضٍ يجتمعُ فيه الماءُ . وإنّما هو بكَسْرِها . والجمعُ : الصَّهاريجُ .

وفي مُعَرَّبِ الجواليقيّ (١٠٨) أنّ الصَّهاريجَ كالحِياضِ يجتمعُ فيها الماءُ . فلمْ يجعلْها حِياضاً ، وهو الأَظهرَ .

وقالوا في المفردِ والجمعِ : صِهْريٌّ ، بكسرِ الصادِ أيضاً ، وصهاريِ ، فقَلَبوا الجيمَ ياءً وأَدْغَموا . وهذا كما قَلَبَ الياءَ جيماً مَنْ قالَ (١٠٩) :

خالي عُوَيْفٌ وأبو عَلِجٌ

أرادَ : وأبو علِيّ ، فقَلَبَ الياءَ جيماً ، إلاّ أنّ المنقلبَ ثَمّةَ مُخَفَّفٌ ، وها هُنا مُشَدَّدٌ .

٣٩- ومن ذلكَ : (لَمَحَهُ) : اختَلَسَ النظرَ إليه . وإنّما المنقولُ في القاموس (١١٠) : لَمَحَ إليه .

---

(١٠٤) جمهرة اللغة ٢٥٠/١ ، المعرب ٢٣٧ ، شفاء الغليل ١٤٧ ، معجم أسماء النباتات ٧١ .

(١٠٥) القاموس ١٦٢/١ .

(١٠٦) القاموس ١٩٥/١ .

(١٠٧) القاموس ١٩٦/١ ، وتذكرة أولي الألباب ١ / ٢٢٠ وهو معرب جيترك بالهندية .

(١٠٨) المعرب ٢٦٣ .وينظر: المدخل الى تقويم اللسان ق١ ص ٧٨،اللسان والتاج (صهرج).

(١٠٩) بلا عزو في الكتاب ٢٨٨/٢ وشرح شواهد الشافية ٢١٢ . وينظر: معجم شواهد العربية ٤٥٦ .

(١١٠) القاموس ٢٤٧/١ .

٤٠- ومن ذلك : (اتَّزَرَ) . ففي القاموسِ (١١١) : (وائتَزَرَ بِهِ وتأزَّرَ [به] ولا تَقُلِ اتَّزَرَ) . قالَ : (وقد جاءَ في بَعْضِ الأحاديثِ ، ولَعَلَّهُ من تحريفِ الرُّواةِ) . انتهى .

وعلى اللغةِ الأولى جاءَ في الحديثِ : (كانَ يُباشِرُ بعضَ نسائِهِ وهي مُؤتَزِرةٌ في حالةِ الحَيْضِ) (١١٢) . أي مشدودةُ الإزارِ .

قالَ صاحبُ النهايةِ : وقد جاءَ في بعضِ الرواياتِ : وهي مُتَّزِرَةٌ ، وهو خَطَأٌ ، لأنَّ الهمزةَ لا تُدْغَمُ في التاءِ . انتهى .

ولا (١٣٠ب) يردَّ عليه (اتخذ) لأنّه من (تخذ) لا من أخَذَ ، وهما بمعنى .

٤١- ومن ذلك : (الجِبْرِينيُّ) في النسبةِ الى جِبْرِين كغِسْلين ، لقريةٍ بناحيةِ عَزازَ(١١٣) ، منها أحمدُ بنُ هِبَةِ اللهِ النحوي المُقْرِئُ(١١٤) ففي القاموسِ (١١٥) أنَّ النسبةَ إليها : جِبْرانيٌّ ، على غيرِ قياسٍ . قالَ : وضبطَهُ ابنُ نُقْطَةَ (١١٦) بالفتحِ .

٤٢- ومن ذلك : (الجُلُنّارُ) بضَمِّ الجيمِ واللامِ المشَدَّدَةِ ، لزَهْرَةِ الرمّانِ . وإنّما هو بضَمِّ الجيم وفتحِ اللامِ [المشَدَّدَةِ] ، مُعَرَّبُ كُلْنار (١١٧) .

---

(١١١) القاموس ٣٦٣/١ والزيادة منه .

(١١٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٤/١ . وصاحب النهاية هو مجد الدين ابن الأثير واسمه المبارك بن محمد ، ت ٦٠٦ هـ . (معجم الأدباء ٧١/١٧ ، إنباه الرواة ٢٥٧/٣ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٦٦/٨) .

(١١٣) معجم البلدان ١٠١/١ و ١١٨/٤ وهما من أعمال حلب .

(١١٤) المشتبه في الرجال ١٩٧/١ ، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ٣٨٢ وفيهما ضبط ابن نقطة بفتح الجيم من جبراني .

(١١٥) القاموس ٣٨٥/١ .

(١١٦) هو محمد بن عبدالغني ، ت ٦٢٩ هـ . (وفيات الأعيان ٣٩٢/٤ ، تذكرة الحفاظ ١٤١٢ ، الوافي بالوفيات ٢٦٧/٣) .

(١١٧) القاموس ٣٩٢/١ والزيادة منه . وينظر : بحر العوام فيما أصاب فيه العوام ٩١ .

٤٣- ومن ذلك : (اعزاز) بهمزة في أوّلِه ، لبلدة قُرْبَ حَلَب . وإنّما هو بدونِها معَ فتحِ أوّلِهِ ، كطَرابُلُس ، بفتحِ الأولِ ، للبلدتينِ : التي بالشامِ والتي بالمغرب ، خلافاً لِمَنْ (١١٨) قالَ : إنّ الشاميّةَ أَطْرابُلُسُ ، بهمزةٍ في أوّلِهِ ، والمغربية بدونِها .

٤٤- ومن ذلك : (خَناصِرَةُ) بفتحِ الخاء ، لبلدةٍ من عَمَلِ حَلَبَ . وإنّما هي بضَمِّها (١١٩) .

٤٥- ومن ذلك : (الزُّمّارَةُ) بضَمِّ الزاي ، لِما يُزمَرُ بِهِ ، كالمِزْمارِ . وإنّما هي بفَتْحِها ، كجَبّانَةٍ (١٢٠) .

٤٦- ومن ذلك : (الزَّنْبُورُ) بفتحِ الزاي ، للذُّبابِ اللسّاعِ . وإنّما هو بضَمِّها (١٢١) .

٤٧- ومن ذلك : (الزَّعْتَرُ) بفتحِ الزاي ، للنبتِ المعروف . وإنّما هو سَعْتَرٌ أو صَعْتَرٌ ، بالسينِ أو الصادِ (١٢٢) .

٤٨- ومن ذلك : (القُبّار) : بالقافِ (١٢٣) ، للأَصَفِ (١٢٤) . وإنّما هو الكَبَرُ ، بالكافِ وتحريك الباء .

وأفادَ صاحبُ القاموسِ (١٢٥) أنّ العامّةَ تقولُ : كُبّارٌ ، بالكافِ .

ومن كلامِ بعضِ المُحدثين مما استعملَ فيه الزعترَ والقبّارَ ، ما أنْشَدَنِيه شيخُنا الأديبُ الأريبُ علاء الدين أبو الحسن عليّ الموصليّ (١٢٦) لأديبٍ

(١١٨) هو الفيروز آبادي في القاموس ٢/٢٢٦ .
(١١٩) القاموس ٢/٢٤ . (١٢٠) القاموس ٢/٤٠ . (١٢١) القاموس ٢/٤١ .
(١٢٢) معجم أسماء النباتات ٨٧ .
(١٢٣) لحن العوام ٤٣ ، شفاء الغليل ٢١٤ .
(١٢٤) النبات ٣٤ وفيه : زعم بعض الرواة أن الأصف لغة في اللصف .
(١٢٥) القاموس ٢/١٢٤ .
(١٢٦) علي بن محمد بن عبدالرحيم، ت ٩٢٥هـ . (درر الحبب في تاريخ أعيان حلب ١/٢/٩٧٩، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ١/٢٦٤) .

راعَى فيه صنعةَ التورية فأحسنَ وقالَ :

سأَلْتُ اناساً عن ضريحِ ابن مالِكٍ   فأخبرني شخصٌ بِهِ وهو حفّارُ
وقد كانَ بينَ الناسِ يُدعى بزَعْتَرٍ   فوا عجباً من زَعْتَرٍ وهو قبّارُ

٤٩- ومن ذلك : (سُنْجَةُ) الميزانِ ، بضمِّ السينِ . وإنّما هي بفَتْحِها ، على ما في القاموسِ (١٢٧) ، أو بفتحِ الصادِ .

٥٠- ومن ذلك : (السَّوْكَرانُ) لنبت مخصوصٍ . وإنّما الصوابُ أنْ يُقالَ : الشَّوْكَران ، باعجام السين . أو الشَّيْكران ، بالياء مع إعجامِها ، إمّا مع فتح الكافِ أو ضَمِّها . أو السَّيْكران ، بالياء ، مع إهمالِها (١٢٨) . قالَ في القاموسِ (١٢٩) : ووَهِمَ الجَوْهَرِيُّ (١٣٠) .

٥١- ومن ذلك : (الصَّبْرُ) بسكونِ الباءِ ، لعُصارةِ شَجَرٍ مُرٍّ . وإنّما هو الصَّبِرُ(١٣١) ، ككَتِفٍ ، ولا يُسَكّنُ إلاَ في ضرورةِ الشعرِ.بنَصٍّ من (١٣١ أ) الفيروزآباديّ (١٣٢) ، نحو :

أَمَرَّ مِن مَقْرٍ وصَبْرٍ وحُظُظْ (١٣٣)

وأمّا الصَّبْرُ ، مُراداً به حَبْس النفسِ ، فهو ساكِنُ الباءِ مُطْلَقاً . وما أَلطفَ ما قِيلَ :

الصَّبْرُ يوجدُ إنْ باءُ لهُ كُسِرَتْ   لكِنّهُ بسـكونِ الباءِ مَفْقُودُ

---

(١٢٧) القاموس ١٩٥/١ .
(١٢٨) ينظر : معجم أسماء النباتات ٧٨ و ٨٦ .
(١٢٩) القاموس ٦٣/٢ .
(١٣٠) الصحاح (شكر) وفيه : (والشيكران ضرب من النبت) . فليس ثمة وهم كما زعم صاحب القاموس .
(١٣١) معجم أسماء النباتات ٨٧ .
(١٣٢) القاموس ٦٧/٢ .
(١٣٣) بلا عزو في الصحاح (صبر) والتنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح ١٤٤/٢و ٢٠٧ . وفيهما : من صبر ومقر . والمقر : الصبر أيضاً .

٥٢- ومن ذلك : (العُبَيْثران) بضَمِّ العَيْنِ وبالمُثَنّاة ، لنبات مخصوصٍ ، مسحوقُهُ إنْ عُجِنَ بعَسَلٍ واحتملتْهُ المرأةُ أسْخَنَها وحَبّلَها . وإنما هو العَبَيْثُرانُ أو العَبَوْثُرانُ ، بفتحِ العينِ وبالمُثَلّثةِ فيهما (١٣٤) .

٥٣- ومن ذلك : (معارةُ) عَلْياء . لكورَةٍ على مرحلةٍ من حَلَبَ . وقرية قربَ كَفَرْطابَ ، من أعمالها . وإنّما هي مَعَرَّةُ عَلْياء ، بالراءِ المُشَدَّدَةِ ، كمَعَرَّةِ النُّعْمانِ (١٣٥) .

٥٤- ومن ذلك : (كَفَرْطاب) و (كَفَر كلبين) (١٣٦) ونحوهما من أسماءِ بعض القُرى ، بفتح الفاء . وإنّما الصوابُ سكونُها ، لأنّ الكَفْرَ ، بسكونِها ، اسمُ القريةِ . وأمّا بفتحها فلا .

٥٥- ومن ذلك : قولُ بِشْرِ بنِ أبي خازمٍ (١٣٧) ، لا الطِّرِمّاح كما قالَ الجوهري (١٣٨) ، وغلط في ذلك بتصريحٍ من صاحبِ القاموس(١٣٩) :

وَجَدْنا في كتابِ بني تَميمٍ أحَقُّ الخَيْلِ بالرَّكْضِ المُعارُ

على روايةِ المُعار ، بضَمِّ الميمِ ، من العارية . ففي القاموس أنّهُ بكَسْرِها للفرسِ الذي يحيدُ عن الطريق براكبِه .

٥٦- ومن ذلك : (قِيساريّة) بكسرِ القافِ وتشديدِ الياء ، لبلدينِ احداهما بالرومِ ، والأخرى بفلسطين . والصوابُ فيهما الفتحُ والتخفيفُ (١٤٠) .

٥٧- ومن ذلك : (الكُنبارُ) بضَمِّ الكافِ ، لحبلِ ليفِ النارجيل . وإنّما هو بكَسْرِها (١٤١) .

---

(١٣٤) القاموس ٨٤/٢ ، معجم أسماء النباتات ٩٨ . وينظر : سفر السعادة ١ / ٣٦٤ .

(١٣٥) القاموس ٨٨/٢ . (١٣٦) معجم ما استعجم ١١٣١ .

(١٣٧) ديوانه ٧٨ . والخلاف في نسبة البيت قديم ، ينظر : شرح المفضليات ٦٧٦ .

(١٣٨) الصحاح (عير) . (١٣٩) القاموس ٩٨/٢ .

(١٤٠) معجم ما استعجم ١١٠٦ ، الروض المعطار ٤٨٦ . وفي معجم البلدان ٤٢١/٤ مشددة الياء . (١٤١) القاموس ١٢٩/٢ .

٥٨- ومن ذلك : (الكُورُ) لزقٍّ يَنْفُخُ فيهِ الحدَّادُ . وإنّما هو الكِير ، بالكَسْرِ . وأمّا الكُورُ فهو المبنِيُّ من الطينِ (١٤٢) .

٥٩- ومن ذلك : (ناطِرون) بالنون ، لقرية بالشام . والصوابُ فيه : ما طِرون ، بالميم (١٤٣) . قالَ في القاموس (١٤٤) : وذكره الجوهري في (ن ط ر) ، وهو غلَطٌ .

٦٠- ومن ذلك : (مُغْرة) بضَمِّ الميم ، لطينٍ أحمَرَ . وإنّما هو بفتحِها ، إمّا مع سكونِ المعجمةِ أو مع فتحِها (١٤٥) .

٦١- ومن ذلك : (النَوفَرُ) لضَرْبٍ من الرياحين ينبتُ في المياه الراكِدةِ . والصوابُ أنْ يُقالَ فيه : النَيْلُوفَرُ أو النَيْنُوفَرُ ، بنونٍ مفتوحةٍ بعدها مثنّاةٌ تحتيةٌ ساكنةٌ فلامٌ ونونٌ مضمومتان (١٤٦) .

٦٢- ومن ذلك : (الدِّهْلِيزُ) بالفتح ، لما بينَ البابِ والدارِ . وإنّما هو بالكَسْرِ ، فهو كقِنْدِيلٍ الذي إذا كُسِرَ صَحَّ (١٤٧) .

٦٣- ومن ذلك : (انْسانةٌ) للمرأة . قالَ في القاموس (١٤٨) : والمرأةُ انْسانٌ ، وبالهاءِ (١٣١ ب) عامِيَّةٌ ، وسُمِعَ في شعرٍ كأنَّهُ مُوَلَّدٌ :

لقد كَسَتْنِي في الهوى ملابِسَ الصَّبِّ الغَزِلْ
انْسانَةٌ فَتّانَةٌ بَدْرُ الدُّجَى منها خَجِلْ
إذا زَنَتْ عَيْني بها فبالدُّموعِ تَغْتَسِلْ

٦٤- ومن ذلك : (المِزْرابُ) في المِيزابِ ، على ما ذَكَرَهُ الجواليقي (١٤٩)

---

(١٤٢) القاموس ١٣٠/٢ . (١٤٣) معجم البلدان ٤٢/٥ .
(١٤٤) القاموس ١٣٥/٢ . (١٤٥) القاموس ١٣٥/٢ .
(١٤٦) تثقيف اللسان ٢١٩ ، القاموس ١٤٧/٢ ، خير الكلام ٥٨ وفيها اللام والنون مفتوحتان.
(١٤٧) القاموس ١٧٦/٢ . وينظر : المدخل الى تقويم اللسان ق٢ ص ٢٥٦ .
(١٤٨) القاموس ١٩٨/٢ وفيه الأبيات .
(١٤٩) المعرب ٣٧٤ وفيه : مرزاب . وهي لغة أخرى . ينظر اللسان (رزب ، زرب) .

مِن أنّهُ لا يُقالُ : مِزْرابٌ . لكنَّ صاحبَ القاموس (١٥٠) على أنّهُ يُقالُ ، وأنَّ المِئْزابَ من أَزَبَ الماءُ ، كضَرَبَ : جرَى . قالَ : أو هو فارسِيٌّ مُعَرَّبٌ ، أي بُلِ الماءَ .

٦٥- ومن ذلك : (بُغراص) بضَمِّ الموحدةِ وبالصادِ ، لبلدٍ بلِحْفِ جبَلِ اللُّكامِ . وإنّما هي بفَتْحِ الموحدةِ وبالسِّينِ (١٥١) .

٦٦- ومن ذلك : (تِلِمْسان) بكسرِ التاءِ والميمِ ، بينهمـا لامٌ ساكِنَةٌ ، لقاعِدَةِ مَمْلَكَةٍ بالغَرْبِ مشهورةٍ . وإنّما هي بكَسْرِ التاءِ واللامِ ، وسكونِ الميمِ (١٥٢) .

٦٧- ومن ذلك : (رُودِسُ) ، بكَسْرِ الدّالِ المهملةِ ، لجزيرةٍ للرومِ تجاه الاسكندرية ، على ليلةٍ منها ، غزاها معاوية ، رضي الله عنه . وإنّما هي بكَسْرِ الذّالِ المعجمةِ (١٥٣) .

٦٨- ومن ذلك : (طَرْسُوسُ) بسكونِ الراءِ ، لبلدٍ اسلاميٍّ كانَ للأَرْمَنِ ثُمَّ أُعيدَ إلى أهْلِ الإسلامِ .وإنّما هي بفَتْحِها كحَلَزُون(١٥٤).

٦٩- ومن ذلك : (قُبْرُصُ) بالصادِ ، لجزيرةٍ عظيمةٍ للرومِ ، بِها تُوُفِّيَتْ أُمُّ حرامٍ بنتُ مِلْحان الأَنْصاريّة (١٥٥) . وإنّمـا هي بالسِّين (١٥٦) .

---

(١٥٠) القاموس ٣٦/١ .
(١٥١) معجم البلدان ٤٦٧/١ .
(١٥٢) معجم البلدان ٤٤/٢ .
(١٥٣) القاموس المحيط ٢ / ٢١٩ . وفيه أيضاً جزيرة أخرى غير هذه بالدال المهملة . ينظر : معجم ما استعجم ٦٨٣ ، معجم البلدان ٣ / ٧٨ ، خير الكلام ٣٢ . وفي بحر العوام ٩٣ : (وبعض الناس يضم دالها، وهو لحن فيما أعلم) .
(١٥٤) القاموس ٢٢٦/٢ . وينظر : تقويم اللسان ١٥٣ ، خير الكلام ٣٩ .
(١٥٥) الاستيعاب ١٩٣١ ، أسد الغابة ٣١٧/٧ ، الإصابة ١٨٩/٨ .
(١٥٦) معجم البلدان ٣٥/٤ ، القاموس ٢٣٨/٢ ، خير الكلام ٤٦ .

٧٠ـ ومن ذلك : (بَلا طُنُسُ) بالسين المهملةِ ، لبلدٍ صَغيرٍ بالشامِ . وإنّما هي بالمُعْجَمَةِ (١٥٧) .

٧١ـ ومن ذلك : (الدِّبْس) بالكَسْرِ فالسكون ، لِما يعمل مِن عصيرِ العنب كالعسلِ . فقد اقتصرَ في القاموسِ (١٥٨) على أنّهُ عَسَلُ التّمْرِ وعَسَلُ النّحْلِ (١٥٩) .

وقالَ المُطَرِّزيّ : الدِّبسُ عَصيرُ الرُطَبِ . فاقتَصَرَ عليهِ .

٧١أ ـ ومن ذلك : (الداحِسُ) لقَرْحَةٍ أو بَثْرَةٍ تظهــرُ بينَ الظُفُرِ واللّحمِ فَيَنْقَلِعُ منها الظُفُرُ . وإنما هي الداحوسُ (١٦٠) .

٧٢ـ ومن ذلك : (الدِّرْباسُ) كقِرْطاس ، لخَشَبَةٍ تُجْعَلُ بينَ البابِ والجدارِ لئلا يُفْتَحَ . فقد اقتصرَ في القاموسِ (١٦١) على أنّهُ الأسدُ والكلبُ العقور .

٧٣ـ ومن ذلك (الفِلْسُ) بالكَسْرِ ، لِما يُباعُ بهِ ويُشترى . وإنمــا هو الفَلْسُ ، بالفتحِ .وأمّا الفِلْسُ ، بالكَسْرِ ،فهو صَنَمٌ لطيِّء (١٦٢) .

٧٤ـ ومن ذلك : الرُّمّانُ (المَلّيسِيّ) بفتحِ الميمِ وتشديدِ اللامِ . والصوابُ : الإمْلِيسيُّ ، بهمزةٍ ولامٍ مكسورتينِ ، بينهما مِيمٌ (١٣٢ آ) ساكِنةٌ (١٦٣) .

---

(١٥٧) كذا في القاموس ٢٦٣/٢ . وهي بالسين المهملة في معجم البلدان ٤٧٨/١ .

(١٥٨) القاموس ٢١٣/٢ .

(١٥٩) المغرب ٢٨١/١ . وسلف ذكر المطرزي في الحاشية رقم (٩) وينظر عنه : (التكملة لوفيات النقلة ٢٧٩/٢ ، بغية الوعاة ٣١١/٢) .

(١٦٠) ينظر : القاموس ٢١٤/٢ ففيه : والداحس والداحوس : قرحة أو . . .

(١٦١) ينظر : القاموس ٢١٥/٢ .

(١٦٢) القاموس ٢٣٨/٢ . وينظر : الأصنام ٥٩ .

(١٦٣) الفصيح ٢٧ ، تثقيف اللسان ١٧٢ ، تقويم اللسان ٨٧ ، خير الكلام ٢٢ .

والإمْلِيسُ ، كإنْكِيس ، وبهاءٍ : الفَلاةُ ليسَ بها نباتٌ .
والرُّمّانُ الإمْلِيسيّ ، قالَ في القاموسِ (١٦٤) : كأنّهُ منسوبٌ إليهِ .

٧٥ـ ومن ذلك : (بَيْدَقُ) الشطرنج ، بإهمالِ الدالِ . وإنّما هو بإعجامِها . وهو في الأصلِ : الدليلُ في السّفَرِ ، والصغيرُ الخفيفُ . نَصّ على هذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ صاحبُ القاموسِ (١٦٥) .

قالَ الجَـوَاليقيّ (١٦٦) : وقـد تكلّمَتْ بِهِ العَرَبُ ، وأنْشَـدَ للفَرَزْدَقِ (١٦٧) :

مَنَعْتُكَ ميراثَ الملوكِ وتاجَهُمْ ... وأنْتَ لِدِرْعِي بَيْدَقٌ في البَيَاذِقِ

قالَ الجواليقيّ : أي آخذُ سلاحَ الملوكِ وأنْتَ راجلٌ تعدو بينَ يَدَيَّ .
قالَ : وهو بالفارسيةِ : بَيْذَه .

٧٦ـ ومن ذلكَ : (البُخْنَقُ) لثوبٍ مخصوصٍ ترسلُهُ المرأةُ وراءَ عُنُقِها وظَهْرِها . وإنّما هو على ما في القاموس(١٦٨) لأشياءَ أُخَرَ سوى ذلك كالخِرْقَةِ التي تَتَقَنّعُ بها الجاريةُ فَتَشُدُّ طَرَفَيْها تحتَ حَنَكِها لِتَقِيَ الخِمارَ مِن الدُّهْنِ ، والدُّهْنَ مِن الغُبارِ ، وكالبُرْقعِ والبُرْنُسِ .

٧٧ـ ومن ذلك : (أَخْلاطٌ) بالهمزةِ ، لبلدٍ بإرْمِينِيَّةَ . وإنّما هو بدونِها ، ككِتابٍ (١٦٩) . قالَ صاحبُ القاموسِ (١٧٠) : ولا تَقُلْ : أَخْلاطٌ .

---

(١٦٤) القاموس ٢٥٢/٢ .
(١٦٥) القاموس ٢١١/٣ .
(١٦٦) المعرب ١٣٠ – ١٣١ .
(١٦٧) ديوانه ٥٨٨ .
(١٦٨) القاموس ٢١١/٣ .
(١٦٩) معجم ما استعجم ٥٠٧ ، معجم البلدان ٣٨٠/٢ ، الروض المعطار ٢٢٠ .
(١٧٠) القاموس ٣٥٩/٢ .

٧٨- ومن ذلك : (شُمَيْساطُ) بشينٍ معجمةٍ ثُمَّ مهملة ، لبلدٍ بشاطيءِ الفُراتِ . منه الرئيسُ المُحَدِّثُ أبو القاسمِ عليُّ الدِّمَشْقِيّ (١٧١). وواقِفُ الخانِقاه بها . وإنّما هو بمُهْمَلَتَيْنِ (١٧٢) .

٧٩- ومن ذلك : (القُطُّ) بالضَمِّ ، للسِّنَّوْرِ . وإنّما هو بالكَسْرِ ، كجَمْعِهِ : قِطاط (١٧٣) .

٨٠- ومن ذلك : (قَفْطٌ) بفتحِ القافِ ، لبلدٍ بصعيدِ مِصْرَ موقوفٍ على العلويين مِن أيامِ أميرِ المؤمنينَ عليّ ، رضي الله عنه. وإنّما هو بكَسْرِها(١٧٤).

٨١- ومن ذلك : (اليَقْظَةُ) بإسكانِ القافِ ، لنقيضِ النومِ . وإنّما هي بفَتْحِها (١٧٥) .

٨٢- ومن ذلك : (بِزاعا) بالكَسْرِ والقَصْرِ ، لقريةٍ بين مَنْبِجَ وحَلَبَ . منها عبدُ القاهر البِزاعِيُّ القائلُ :

أَظنوا أَنَّهُمْ بــانوا   وهُمْ في القَلْبِ سُكّانُ

وإنّما هي بُزاعَة : بالضَمِّ والتاء ، كثُمامة (١٧٦) .

٨٣- ومن ذلك: دَيْرُ (سَمْعانَ) بالفتحِ ، لمَوْضِعٍ بحَلَبَ ، ومَوْضِعٍ بحِمْصَ ، به دُفِنَ عمرُ بنُ عبدالعزيزِ ، رضي الله عنه .

وإنّما هو بالكَسْرِ ، كحِرْمان (١٧٧) .

---

(١٧١) أبو القاسم علي بن محمد السلمي السميساطي، ت ٤٥٣ هـ . (الأنساب ٢٤٦/٧ ، اللباب ١٤٣/٢ ، معجم البلدان ٢٥٨/٣) .

(١٧٢) معجم ما استعجم ٧٥٧ ، معجم البلدان ٢٥٨/٣ ، الروض المعطار ٣٢٣ .

(١٧٣) القاموس ٣٨٠/٢ .

(١٧٤) معجم البلدان ٣٨٣/٤ ، الروض المعطار ٤٧٧ .

(١٧٥) تثقيف اللسان ١١٤ .

(١٧٦) القاموس ٥/٣ . وينظر : معجم البلدان ٤٠٩/١ .

(١٧٧) معجم البلدان ٥١٧/٢ ، الروض المعطار ٢٥١ ، القاموس ٤١/٣ .

٨٤– ومن ذلك : (السُّمَيْذَعُ) بضمِّ السينِ ، للسيِّدِ الكريمِ الشريفِ السَّخيِّ المُوَطّأ الأكنافِ . وإنّما هو بفتحها .

قالَ في القاموس (١٧٨) : السَّمَيْذَعُ ، بفتح السينِ والميم ، بَعْدَها مُثَنَّاةٌ تَحتيّةٌ ، ومُعْجَمَةٌ مفتوحةٌ ، ولا تُضَمُّ السِّينُ فانّهُ خَطَأٌ .

٨٥– ومن ذلك : (السَّقيعُ) بالسينِ ، للساقِطِ من السماء بالليلِ كأنّهُ ثلجٌ . وإنّما هو بالصادِ . وقد صُقِعَتِ الأرضُ ، بالضمِّ (١٧٩) .

٨٦– ومن ذلك : (الصُّباغُ) (١٣٢ ب) بالضمِّ ، لِما يُصْبَغُ به . وإنّما هو بالكَسْرِ ، كالصِّبْغِ به (١٨٠) .

٨٧– ومن ذلك: (اللثْغَةُ) بفتحِ الأوّلِ ، لتحوُّلِ اللسانِ من السينِ الى الثاءِ ، أو من الراءِ الى الغَيْنِ أو اللامِ أو الياءِ ، أو من حَرْفٍ الى حَرْفٍ ، أو لأنْ لا يتِمَّ رَفْعُ لسانِهِ ، وفيه ثِقَلٌ . وإنّما هي بضَمّةٍ ، مِثْلُ اللُّكْنَةِ (١٨١) .

٨٨– ومن ذلك : (الدِقافُ) بالدال ، للخِصامِ والجِلادِ . وإنّما هو بالثاءِ المُثَلّثَةِ (١٨٢) .

٨٩– ومن ذلك : (حَفَفَتِ) المرأةُ وَجْهَها من الشَّعَر . وإنّما الصوابُ : حَفّتْ حِفافاً ، بالكَسْرِ ، وحَفّاً : قَشَرَتْهُ ، كاحْتَفَتْ (١٨٣).

٩٠– ومن ذلك : (الخَطّافُ) بفتحِ الخاء ، لطائرٍ أسودَ . وإنّما هو بضَمِّها ، كرُمّانٍ (١٨٤) .

---

(١٧٨) القاموس ٣/٤٠ . وهو بالدال المهملة في الفصيح ٢٥ والصحاح واللسان (سمدع) وأشار الزبيدي الى ذلك أيضاً في التاج (سميذع) .

(١٧٩) القاموس ٣/٥٠ .

(١٨٠) القاموس ٣/١٠٩ .

(١٨١) القاموس ٣/١١٢ .

(١٨٢) القاموس ٣/١٢١ .

(١٨٣) المدخل الى تقويم اللسان ق٢ ص ٢٨١ ، القاموس ٣/١٢٨ .

(١٨٤) القاموس ٣/١٣٥ .

٩١- ومن ذلك : (أَخْفافٌ) في جَمْعِ الخُفِّ الذي يُلْبَسُ .
وإنّما جَمْعُهُ : خِفافٌ ككِتابٍ (١٨٥) .

وأمّا الأخْفافُ فهو جمعُ خُفِّ البعيرِ أو النّعامِ . ومن أشعارِهم (١٨٦) :

ودَوِّيَةٍ قَفْرٍ تَمَشّى نَعامُهَا كَمَشْيِ النّصارى في خِفافِ الأَرَنْدَجِ

أي كمشيِ العذارى في خِفافِهِنّ المصنوعةِ من الأَرَنْدَجِ . ففي البيتِ تشبيهُ مشيِ ذَواتِ الأخفافِ بمشيِ ذَواتِ الخِفافِ .

والأَرَنْدَجُ بالهمزة والراء والدال المهملة المفتوحات ، وبالنونِ والجيم : جِلْدٌ أَسْوَدُ (١٨٧) .

٩٢- ومن ذلك : (الشُّنْفُ) بالضَمِّ ، للقُرْطِ الأعلى ، أو للمِعْلاقِ الذي فوقَ الأُذُنِ ، أو ما عُلِّقَ في أعلاها .

وأمّا ما عُلِّقَ في أَسْفَلِها فَقُرْطٌ .

والصوابُ فيه الفتحُ ، ففي القاموسِ (١٨٨) أنّهُ بالضَّمِّ لَحْنٌ .

٩٣- ومن ذلك : (الظُّرْفُ) بالضَّمِّ ، للكِياسَةِ . والصوابُ فيه الفَتْحُ . ففي القاموسِ (١٨٩) : الظَّرْفُ : الوعاءُ والكِياسَةُ ، ظَرُفَ ككَرُمَ ظَرْفاً ، وظَرَافَةً ، قليلةٌ ، فهو ظَرِيفٌ من ظُرَفاءَ . هذا كلامُهُ .

ووَجْهُ الضَّمِّ في قولِ الناسِ : (فُلانٌ فيه لُطْفٌ وظُرْفٌ) قَصد الازدواجِ . كما يُقالُ : جَبَرِيّة ، بفتحِ الباءِ ، إذا قِيلَ : قَدَرِيّة ، للازدواجِ أيضاً ، فيمَنْ قالَ : إنَّ تسكينَهَا هو الصوابُ .
وعن بَعْضِهِم أنّهُ لَحْنٌ . والظاهِرُ الأَوَّلُ .

---

(١٨٥) القاموس ١٣٥/٣ . (١٨٦) للشماخ ، ديوانه ٨٣ وفيه : نعاجها . . . اليرندج .
(١٨٧) اللسان والتاج (ردج) . (١٨٨) القاموس ١٦٠/٣ .
(١٨٩) القاموس ١٧٠/٣ .

٩٤- ومن ذلك : (القَصْفُ) إذا أُرِيدَ به الإقامة في الأَكْلِ والشُرْبِ ، في مِثْلِ قَوْلِ بَعْضِ المُوَلَّدِين (١٩٠) :

تَبَسَّمَ زَهْرُ البانِ عَنْ طيبِ نَشْرِهِ
وأَقْبَلَ في حُسْنٍ يجلُّ عن الوَصْفِ

هلمُّوا إليهِ بينَ قَصْفٍ ولَذَّةٍ
فإنَّ غُصُونَ البانِ تصلحُ للقَصْفِ

والصوابُ : قُصُوفٌ ، بالقافِ المضمومةِ والواو. قالَ في القاموس (١٩١) : وأمّا القَصْفُ من اللّهْوِ فغيرُ عربيٍّ . (١٣٣ آ) انتهى .

وفي آخرِ البيتينِ المذكورين توريةٌ حسنةٌ . وما في المعنيينِ المعتبرين فيها للقَصْفِ معنى الكَسْرِ . يُقالُ : قَصَفَهُ يَقْصِفُهُ قَصْفاً : كَسَرَهُ .

٩٥- ومن ذلك : حِصْنُ (كَيْف) : للبلدِ الذي بَيْنَ آمِدَ وجزيرةِ ابنِ عُمَرَ . وإنّما هو : حِصْنُ كِيفَى ، بكَسْرِ الكافِ والقَصْرِ كضِيزى (١٩٢) .

٩٦- ومن ذلك : (الشُّقُرُّقُ) بضَمِّ الشينِ والقافِ والراءِ المشدَّدَةِ ، للأَخْيَلِ المذكور في قولِهِ (١٩٣) :

ذَرِيني وعِلمي بالأُمورِ وشِيمتي
فما طائري فيهـا عليكِ بأخْيَلا

وهو الطائرُ المعروفُ المُرَقَّطُ بخُضْرَةٍ وحُمْرَةٍ وبياضٍ .

---

(١٩٠) التاج (قصف) وفيه : تبسم ثغرالبان . والبيتان للشاب الظريف ، ديوانه ١٨٢ وفيه : تبسم زهر اللوز عن در مبسم وأصبح . . . (١٩١) القاموس ٣/١٨٥ .

(١٩٢) القاموس ٣/١٩٤ . وفي معجم البلدان ٢/٢٦٥ والروض المعطار ٣١٦ : حصن كيفا .

(١٩٣) حسان بن ثابت ، ديوانه ١/٤٤ .

وإنّما هو الشِّقِرَّاقُ، بفتحِ الشينِ أو كسرِها مع تشديدِ الراء . ويُقالُ فيه أيْضاً : شِقْراقٌ ، كقِرْطاسٍ . وشَرَقْرَقٌ ، كسَفَرْجَلٍ (١٩٤) ، وغير ذلك .

٩٧- ومن ذلك : (الدِّكَّةُ) بكَسْرِ الدالِ ، لرباطِ السراويلِ . وإنّما الصوابُ : التِّكَّةُ ، بكَسْرِ التاء (١٩٥) .

٩٨- ومن ذلك : (المِصْطَكَا) بكَسْرِ الميمِ ، للعِلْكِ الروميِّ المشهورِ. وإنّما الصوابُ فَتْحُها أو ضَمُّها . ويجوزُ فيه المَدُّ ، ولكِنْ معَ الفَتْحِ فَقَطْ (١٩٦) .

٩٩- ومن ذلك : (الثّأليلُ) لبَثْرٍ صغيرٍ معروفٍ . وإنّما هو الثُّؤْلولُ ، بضَمِّ المُثَلّثَةِ وسكونِ الهمزةِ ، كزُنْبورٍ (١٩٧) .

١٠٠- ومن ذلك : (القُمَّلُ) كسُكَّرٍ ، لقَمْلِ الناسِ . وإنّما هو قَمْلٌ ، بالفتحِ فالسكونِ (١٩٨) .

قالَ في القاموسِ (١٩٩) : والقُمَّلُ ، كسُكَّرٍ : صِغارُ الذَّرِّ والدَّبَا الذي لا أجنحةَ لَهُ ، أو شيٌّ صغيرٌ بجناحٍ أحْمَرَ، وشيءٌ يُشْبِهُ الحَلَمَ [لا] يأكلُ أكْلَ الجرادِ ، خبيثُ الرائحةِ ، أو دَوَابُّ صِغارٌ كالقِرْدانِ ، واحِدتُها بهاءٍ ، أو قَمْلُ الناسِ ، وهذا القولُ مردودٌ . انتهى .

---

(١٩٤) القاموس ٢٥٠/٣ وفيه أيضاً : وشرقراق ، بفتح الشين أو كسرها .

(١٩٥) المدخل الى تقويم اللسان ق ٢ ص ٢٧٤ ، تصحيح التصحيف ١١٢ ، القاموس ٢٩٧/٣.

(١٩٦) المقصور والممدود ١٢٠ ، تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة ٤٩ ، المعرب ٣٦٨ ، تثقيف اللسان ٨٨ ، القاموس ٣١٩/٣ .

(١٩٧) القاموس ٣٤١/٣ .

(١٩٨) المدخل الى تقويم اللسان ق ٣ ص ١٣٢ .

(١٩٩) القاموس ٤١/٤ . وما بين القوسين منه ومن اللسان (قمل) .

١٠١- ومن ذلك : (البَرْسِيمُ) بفتحِ الموحدة ، لنباتٍ شبيهٍ بالرَّطْبَةِ وأجَلَّ منها . وإنّما هو بكسرها (٢٠٠) .

١٠٢- ومن ذلك : (الفِجْلُ) بالكَسْرِ ، لهذهِ الأُرُومَةِ التي يُقالُ فيها : إنّها هاضِمةٌ غير منهضِمَةٍ ، حتى قِيلَ في المثلِ : (ليتَ الفُجْلَ يَهضِمُ نَفْسَهُ) (٢٠١) . والصوابُ أنْ يُقالَ : الفُجْلُ ، بالضَّمِّ ، أو بضمتينِ (٢٠٢) .

١٠٣- ومن ذلك : (الحُصْرُمُ) بضمتينِ ، كهُدْهُد ، للعنبِ ما دامَ أخْضَرَ . والصوابُ أنْ يُقالَ : حِصْرِمٌ ، بكَسْرَتَيْنِ ، كزِبْرِجٍ (٢٠٣) .

١٠٤- ومن ذلك : (أَدَنَة) بتحريكِ المهملةِ ، لبلدٍ قُرْبَ طَرَسوس . وإنّما هي بتحريكِ المعجمةِ (٢٠٤) .

١٠٥- ومن ذلك : عَيْنُ (بازانَ) للأَبْزَنِ الذي يأتي إليه ماءُ العَيْنِ عندَ الصَّفَا . والأَبْزَنُ ، مُثَلَّثَةُ الأوَّل (٢٠٥) : حوضٌ يُغْتَسَلُ فيه ، وقد يُتَّخَذُ من نُحاسٍ ، مُعَرَّبُ (آبْ زُنْ) (٢٠٦) . وأَهْلُ مكّةَ يقولونَ : بازان ، لذلكَ الأَبْزَنِ الذي عندَ الصَّفَا ، ويريدونَ (آبْ زُنْ) أي الأَبْزَن ، لأنّهُ شبهُ حوضٍ كما أفادَهُ (١٣٣ ب) صاحبُ القاموسِ (٢٠٧) . قالَ : ورأيتُ بعضَ العُلماءِ العصريينَ أثْبَتَ

(٢٠٠) معجم أسماء النباتات ١٨ .
(٢٠١) مجمع الأمثال ٢٥٧/٢ .
(٢٠٢) القاموس ٢٨/٤ . وينظر : المدخل الى تقويم اللسان ق ١ ص ٧٨ .
(٢٠٣) المدخل الى تقويم اللسان ق ٢ ص ٢٨١ .
(٢٠٤) معجم ما استعجم ١٣٢ ، معجم البلدان ١٣٢/١ ، الروض المعطار ٢٠ .
(٢٠٥) الدرر المبثثة في الغرر المثلثة ٦٤ .
(٢٠٦) شفاء الغليل ٣٧ ، الألفاظ الفارسية المعربة ٧ .
(٢٠٧) القاموس ٢٠١/٤ .

وصَحّحَ في بَعْضِ كُتُبِهِ هذا اللّحْنَ ، قالَ : عَيْنُ بازانَ من عيونِ مكّةَ ، فنَبّهتُهُ فتَنَبّهَ .

١٠٦– ومن ذلك : ابنُ (بُرْهان) بضَمّ الموحدةِ ، لعبدِ الواحدِ النّحويّ (٢٠٨) . وإنّما هو بفتحِها .

وهكذا هو لأحمدَ بنِ عليّ بن بَرْهان الفقيه (٢٠٩) ، وهو الذي الذي ذَهَبَ إلى أنّ العاميّ لا يَلْزَمُهُ التّقيّدُ بمَذْهَبٍ . قالَ صاحبُ القاموس (٢١٠) : ورَجّحَهُ النّوَويّ (٢١١) .

١٠٧– ومن ذلك : (الحَرْدَوْنُ) بفتح الحاء المهملة . لذكَرِ الضّبّ ، أو دُوَيْبّة أخرى . وإنّما هي بكَسْرِها ، إمّا مع إهمالِ الدالِ ، أو مع إعجامِها (٢١٢) .

١٠٨– ومن ذلك : رَجُلٌ (أَحْسَنُ) ، على معنى الصفةِ المشبهة . ففي القاموسِ (٢١٣) ما نَصّهُ : ولا تَقُلْ : رَجُلٌ أَحْسَنُ في مقابلةِ : امرأة حَسْناء . وعَكْسُهُ : غُلامٌ أَمْرَدُ ، ولا يُقالُ : جاريَةٌ مرداءُ . وإنّما يُقالُ : هو الأَحْسَنُ على التّفْضيلِ .

١٠٩– ومن ذلك : (الحُضْنُ) بضَمّ الحاء بَعْدَها مُعْجَمَةٌ ، لمجموعِ الصّدْرِ والعَضُدَيْنِ وما بَيْنَهُما ، في قولهم : رأيتُ فُلانةَ في حُضْنِ فُلانٍ . وإنّما هو بكَسْرِ الحاء (٢١٤) .

---

(٢٠٨) عبدالواحد بن علي بن برهان ، ت ٤٥٦ هـ . (تاريخ بغداد ١٧/١١ ، الإكمال ٢٤٦/١ ، إنباه الرواة ٢٠٣/٢) .

(٢٠٩) ت ٥٢٠ هـ . (وفيات الأعيان ٩٩/١ ، الوافي بالوفيات ٢٠٧/٧ ، شذرات الذهب ٦١/٤) .

(٢١٠) القاموس ٢٠١/٤ .

(٢١١) يحيى بن شرف ، وقد سلفت ترجمته .

(١٢) لحن العوام ١٥١ ، المدخل الى تقويم اللسان ٢٨٢/٢ ، القاموس ٢١٣/٤ .

(٢١٣) القاموس ٢١٣/٤ – ٢١٤ .

(٢١٤) القاموس ٢١٥/٤ .

١١٠- ومن ذلك قولُهُم لبلدٍ بإرْمينية : (أَرْزُ) الرومِ . وإنّما هو أَرْزَنُ الرومِ بالنونِ . قالَ في القاموسِ (٢١٥) : وأَرْزَنٌ كأَحْمَرَ بلدٌ بارمينية يُعرفُ بأَرْزَن الرومِ ، منه عبدُالله بنُ حَديدٍ الأَرْزَنيُّ المُحدِّثُ.

١١١- ومن ذلك : (الرَّعْبون) براءٍ مفتوحةٍ فعينٍ ساكنةٍ ، لِما يُعْقَدُ بهِ البَيْعُ . وإنّما هو العُرْبون ، بعينٍ مضمومةٍ فراءٍ ساكنةٍ ، أو بفتْحِهما ، أو غير ذلك (٢١٦) .

١١٢- ومن ذلك : رَجُلٌ (مفتَنٌ) لِمَنْ يأتي بالفنونِ ، إذْ لم نَرَهُ في مِثْلِ القاموسِ (٢١٧) ، وناهيكَ بسَعَةِ فوائدِهِ وكَثْرَةِ فرائدِهِ ، وإنّما فيه : رَجُلٌ مِفَنٌ ، كَمِسَنٍّ : يأتي بالعجائبِ .

١١٣- ومن ذلك : (قَرَنٌ) بالتحريكِ ، لِميقاتِ أَهْلِ نَجْدٍ . والصوابُ أنْ يُقالَ : قَرْنٌ ، بالإسكانِ . وهو عندَ المُطَرِّزيِّ (٢١٨) : جَبَلٌ مُشْرِفٌ على عرَفات . وعندَ صاحبِ القاموس (٢١٩) : قَرْيَةٌ عندَ الطائفِ ، أو اسْمٌ للوادي كُلِّه .

قالَ الثاني : وغَلِطَ الجَوْهَرِيُّ (٢٢٠) في تحريكِهِ وفي نِسْبَةِ أُوَيْس القَرَنيِّ (٢٢١) ، رضي الله عنه ، إليه ، لأنّهُ منسوبٌ الى قَرَنِ [بنِ رَدْمانَ بنِ ناجيةَ بنِ مُرادٍ] أحَدِ أجْدادِهِ (٢٢٢) .

---

(٢١٥) القاموس ٢٢٧/٤ . وينظر : معجم البلدان ١٥٠/١ ، الروض المعطار ٢٦ .

(٢١٦) اصلاح المنطق ٣٠٧ ، تثقيف اللسان ٢٢٣ ، المدخل الى تقويم اللسان ق١ ص ٦٦ وفيه سبع لغات في العربون .

(٢١٧) ينظر : القاموس ٢٥٦/٤ .

(٢١٨) المغرب ١٧٣/٢ .

(٢١٩) القاموس ٢٥٨/٤ والزيادة منه .

(٢٢٠) الصحاح (قرن) .

(٢٢١) أويس بن عامر ، تابعي ، ت ٣٧ هـ . (مشاهير علماء الأمصار ١٠٠ ، حلية الأولياء ٧٩/٢ ، ميزان الاعتدال ٢٨٧/١) .

(٢٢٢) جمهرة أنساب العرب ٤٠٧ ، الإيناس في علم الأنساب ٢٣٦ ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٣٩٧ .

وجزَمَ الأوَّلُ بأنَّ القَرَنَ ، بالتحريكِ : حَيٌّ من اليَمَنِ وأنَّ نِسبَتَهُ إليهم . ويُسَمّى هذا الميقات قَرْن المنازل ، كما قال (٢٢٣) :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ أَنْ ينطِقا   بقَرْنِ المنازلِ قد أَخْلَقا

١١٤- ومن ذلك : (القَنِّينَةُ) بفتحِ القاف ، لِما يُجْعَلُ فيه الشرابُ . وإنّما هي بكَسْرِها (٢٢٤) ، حتى يُحكَى أنَّ رجلاً قالَ للغويّ : خُذْ هذه القَنِّينَةَ ، وفتحَ القافَ ، (١٣٤ آ) فبادرَ إليه قائلاً : اكْسِرْها ، أي اكْسِرْ قافَها . فظَنَّ أنهُ يريدُ منه كَسْرَ القنينةِ نَفْسِها ، هدَّها من يَدِهِ على الأرضِ فكَسَرَها .

١١٥- ومِثْلُها : (القِنْدِيلُ) هو بكَسْرِ القافِ (٢٢٥) .

١١٦- ومن ذلك : (الكُشْنَةُ) بالهاء ، للكِرْسِنَّةِ (٢٢٦) . وإنّما هي الكُشْنَى (٢٢٧) ، بالقَصْرِ ، كبُشْرَى .

١١٧- ومن ذلك : (الهَلْيُون) بفتحِ الهاء وضَمِّ المثنّاةِ التحتية ، لنَبْتٍ باهِيٍّ معروفٍ . وإنّما هو بكَسْرِ الهاءِ وفتحِ تلك المثنّاةِ ، كبِرْذَون (٢٢٨) .

١١٨- ومن ذلك : (أهيا شَراهِيا) . والصوابُ أنْ يُقالَ : إهْيا أَشَرَ إهيا أي الأزَليَّ الذي لم يزَلْ . ولكنَّ الناسَ يغلطونَ فيقولونَ : أَهْيا شراهيا . قالَ صاحبُ القاموسِ (٢٢٩) : وهو غَلَطٌ على ما يزعمه أحْبارُ اليهودِ .

---

(٢٢٣) عمر بن أبي ربيعة ، ديوانه ٤٤٣ .
(٢٢٤) القاموس ٢٦١/٤ .
(٢٢٥) اللسان (قندل) .
(٢٢٦) القاموس ٢٦٣/٤ . وفي التكملة والذيل والصلة ٣٠١/٦ بفتح السين .
(٢٢٧) معجم أسماء النباتات ١٣٥ .
(٢٢٨) القاموس ٢٢٧/٤ ، معجم أسماء النباتات ١٥٦ .
(٢٢٩) القاموس ٢٨٦/٤ .

١١٩- ومن ذلك قولُ جَرِيرٍ (٢٣٠) في مَرْثِيَةِ عُمَرَ بنِ عبدِ العَزِيزِ :
(الشمسُ طالِعةٌ ليستْ بكاسِفَةٍ تبكي عليكَ نجومَ الليلِ والقَمَرا)
على روايةِ الجوهريِّ (٢٣١) إيّاه هكذا . فقد رواهُ صاحِبُ القاموسِ (٢٣٢) بهذا اللفظِ :
فالشمسُ كاسِفَةٌ ليستْ بطالِعَةٍ تبكي عليكَ نجومَ الليلِ والقَمَرا
ثُمَّ قال : أي كاسِفةٌ لموتِكَ تبكِي أبداً ، ووَهِمَ الجوهريّ فغَيَّرَ الروايةَ بقولِهِ :
الشمسُ طالِعةٌ ليستْ بكاسِفَةٍ
وتَكَلَّفَ لمعناهُ . انتهى .

وفي قولِهِ : أَبَداً ، إشْعارٌ بأَنَّ نجومَ الليلِ بتقديرِ : وجود نجومِ الليلِ ، وأنَّ تبكِي وجودَ نجومِ الليلِ ، على حَدِّ : آتِيكَ خفوقَ النَّجْمِ ، أي وَقْتَ خفوقِهِ . وكاسفة ، على روايتِهِ ، من كَسَفَتِ الشمسُ : احتَجَبَتْ .

وأمّا على روايةِ الجوهري بتقديرِ صحتِها فهكذا : إنْ كان نجوم الليل منصوباً بتبكي ، على أَنَّ تبكي بمعنى تغلب بالبكاءِ ، وهو ما اختاره الجوهريَ حيثُ قالَ : وباكَيْتُهُ فبَكَيْتُهُ ، أي كنتُ أبكي منهُ ، ثُمَّ أنشدَ البيتَ المذكورَ بلفظِ :
الشمسُ طالعة ليستْ بكاسِفَةٍ
إشارة الى أنَّ تبكي نجوم الليلِ فيه من بابِ بَكَيْتُهُ ، كنتُ أبكي منه ، أي غلبته بالبكاء ، وإنْ لم تسبق فيه صيغةُ المفاعلةِ من البكاءِ .

(٢٣٠) ديوانه ٧٣٦ وهو فيه على رواية القاموس . وينظر في هذا البيت : أقسام الأخبار ٢١٩ ، الافصاح في شرح أبيات مشكلة الأعراب ١٩٢ ، الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الاعراب ٢٠٩ ، ألغاز ابن هشام ١٢٤ .
(٢٣١) الصحاح (كسف ، بكى) (٢٣٢) القاموس ١٩٠/٣ .

وأمّا إنْ لم يكنْ منصوباً بتبكي فكاسفةٌ من كَسَفَ المتعدي لا من كَسَفَ اللازم ، فقد حُكِيَ : كَسَفَ اللهُ الشمسَ : حَجَبَها . ونجوم الليلِ منصوبٌ بكاسِفَةِ . والمـراد أنَّ الشمسَ صارتْ بحيثُ لا تكسف نجومَ الليلِ لعدمِ استنارةِ وجهها بواسطةِ حزْنِها وكآبتِها .

وعلى هذا التوجيهِ فقولُهُ : تبكي عليكَ ، معترض بينَ الناصبِ ومنصوبِهِ .

وعلى كلٍّ تقديرٍ ففاعِل تبكي ضمير الشمس لا نجوم الليلِ ليشكل نَصْبُهُ .

١٢٠ــ ومن ذلك : (القُنْفُدُ) بإهمالِ الدالِ ، للحيوانِ الذي يُسَمّى بالدُلْدُل كبُرْثُن . وإنّما هو بإعْجامِها (٢٣٣) .

١٢١ــ ومن ذلك : (البُرْنُصُ) بالصادِ ، لكلِّ ثوْبٍ رأْسُهُ منه (١٣٤ ب) دُرَّاعَةً كانَ أو جُبَّةً . وإنّما هو بالسِّينِ (٢٣٤) .

١٢٢ــ ومن ذلك : (القَصْبُ) بالصادِ ، للتمرِ اليابِسِ . وإنّما هو مَحْكِيٌّ في القاموسِ (٢٣٥) وغيرِهِ بالسينِ .

والصادُ وإنْ كانتْ تُبْدَلُ من السينِ جوازاً على لُغَةٍ ، إنّما تُبْدَلُ كذلكَ في تلكَ اللغة بشرطِ أنْ تقعَ بعدها غَيْنٌ مُعجمةٌ أو خاءٌ كذلكَ أو طاءٌ مهملةٌ أو قافٌ ، كما نَبَّهَ على ذلك صاحبُ التسهيلِ (٢٣٦) فيه غير ملتفت الى ما يقتضيه ظاهر لفظ الصحاح (٢٣٧) من أنّهُم كثيراً ما يقلبونَ الصادَ سيناً إذا كانَ في الكلمةِ احدى هذه الأحر ف وبالعكس من غير تفرقةٍ منه

(٢٣٣) القاموس ٣٥٧/١ و ٣٧٧/٣ .
(٢٣٤) القاموس ٢٠٠/٢ .
(٢٣٥) القاموس ١١٧/٢ .
(٢٣٦) أي ابن مالك وقد سلفت ترجمته . والقول في التسهيل ٣١٧ .
(٢٣٧) الصحاح (صدغ) .

بين أنْ تكونَ بَعْدَ الصاد ، كما في الصُدْغ والصِماخِ والصِراطِ والصَقْرِ ، أو قَبْلَها كما في القَصْرِ مثلاً .

١٢٣- ومن ذلك : (الخُنْصُر) بضَمِّ الخاءِ والصاد ، للاصبع الصغرى . وإنّما المحكي ، في القاموسِ (٢٣٨) وغيرِه ، كَسْرُهُما .

١٢٤- ومن ذلك : (تادِفُ) بالألف وإهمالِ الدالِ ، لمَوْضِعٍ على بَريدٍ من حلَبَ ، ننتسبُ نحنُ إليهِ لمَكْثِ بعضِ أجدادِنا به أوانَ تَوَليهِ القضاءَ بالبابِ . وإنّما هو بالهمزةِ الساكنةِ واعجامِ الذالِ بزنَةِ تَضْرِبُ (٢٣٩) ، كما وقَعَ في قولِ امرىءِ القيسِ (٢٤٠) :

ألا رُبَّ يومٍ صالحٍ قَدْ شَهِدْتُهُ
بتَأْذِفَ ذاتِ التّلِّ مِن فَوْقِ طَرْطَرا

نَعَمْ يجوزُ لكَ فيه قياساً إبدالُ الهمزةِ أَلِفاً ولكن مع إعجامِ الذالِ .

١٢٤- ومن ذلك قولُهُم : هذا الفَرْعُ (يبتني على) ذاكَ الأَصْلِ(٢٤١) ، بالبناءِ للفاعِلِ على معنى المطاوعةِ ، مع أنّهُ لم يُحْكَ ، فيما نعلمُ ، بنيته عليه ، فابتنى على ذاكَ المعنى ، وإنّما المحكي : ابتناه بمعنى بناه .

نَعَمْ لو كانَ اسناد ذلك الفِعل المبني للفاعِلِ الى مفعولِهِ مجازاً عملياً ، كاسنادِ اسمِ الفاعِلِ الى مفعولِهِ في قولِهِ تعالى :

« فهو في عِيشَةٍ راضِيةٍ » (٢٤٢) لجازَ ، إلاّ أنْ يُقالَ : لا يلزمُ مِن

---

(٢٣٨) القاموس ٢٤/٢ .

(٢٣٩) القاموس ١١٦/٣ . وينظر : معجم البلدان ٦/٢ . وفات ذلك الدكتور رشيد العبيدي فأثبته بالدال المهملة في مواضع كثيرة من مقدمته لكتاب نور الانسان .

(٢٤٠) ديوانه ٧٠ .

(٢٤١) التنبيه على غلط الجاهل والنبيه ٥٦٧ ، خير الكلام ٥٤ .

(٢٤٢) الحاقة ٢١ .

جوازِ عيشةٍ راضيةٍ ، جواز : رضيت عيشته ، بالفتحِ ، فَضْلاً عن جوازِ قولهِم : هذا الفرعُ يبتني على ذاك الأصلِ ، بالفتحِ .

ألاَ ترى الى قول صاحب القاموس (٢٤٣) : وعيشةٌ راضيةٌ : مَرْضِيَّةٌ ، ورُضِيتَ مَعيشتَهُ كعُنيتَ ، ولا يُقالُ : رَضيتَ ، بالفتح .

هذا ولواحدٍ أنْ يقولَ : لعَلَّ مَنْعَ صِحَّةِ رَضيتَ ، بالفَتْحِ . مبنيٌّ على وجودِ مانعٍ منها اطلعَ عليه صاحبُ القاموسِ ، وإنْ كانَ المقتضي لها موجوداً ، وهو الملابَسَةُ المعتبرةُ في المجاز العقليّ ، فلا يلزمُ منهمنع صحة ما نحنُ فيه ، لأنّهُ لم يظهرْ لنا فيه مانعٌ أصْلاً مع أن المقتضي موجودٌ . والأصْلُ في المانعِ عَدَمُهُ . وهذا كما صَحَّ في المجازِ اللغويّ اطلاقُ النخلةِ على الانسانِ الطَّويلِ دونَ الطويل الذي لا يكونُ إنساناً لتخافِ الصحةِ فيه بواسطةِ وجودِ (١٣٥ أ) المانعِ مع أنَّ المقتضي لها ، وهو العلاقةُ ، موجودٌ على ما تقرَّرَ في كلامِ الأصوليين حيثُ ذكروا مسألةً في المجازِ أنّهُ لا يُشْتَرَطُ في آحادِ المجازِ أنْ تُنْقَلَ بأعْيانِها عن أهْلِ اللغةِ ، بل يُكتفَى بوجودِ العلاقةِ . وبالجُملةِ فالمقامُ مقامُ تَأَمُّلٍ فتأمّلْ .

١٢٥ــ ومن ذلك : أنْتَ (سِيْدِي) بكَسْرِ السينِ وتخفيفِ الياء ، في مَوْضِعِ : أنْتَ سَيِّدي ، بفتحِ السينِ وتشديدِ الياء (٢٤٤) .

ولو ثبتَ عن العربِ التخفيفُ لكانَ مع الفتحِ ، كما في مَيْتٍ مُخَفَّفِ مَيِّتٍ ، وهَيْنٍ مُخَفَّفِ هَيِّنٍ . لكنّه لم يثبتْ فيما نعلمُ . معَ أنَّ السِيدَ ، بالتخفيفِ مع الكَسْرِ : هو الذئبُ ، ورُبّما سُمِّيَ به الأسد كما قالَ (٢٤٥) :

---

(٢٤٣) القاموس ٣٣٥/٤ .
(٢٤٤) المدخل الى تقويم اللسان ق ٤ ص ٨٤ .
(٢٤٥) بلا عزو في اللسان (سيد) .

كالسَّيِدِ ذي اللِّبْدَةِ المُسْتَأْسِدِ الضَّارِي

إذ اللِّبْدَةُ ، بالكسرِ : هي الشعرُ المتراكبُ بينَ كَتِفَيْهِ . وفي المَثَلِ : (هو أمْنَعُ من لِبْدَةِ الأَسَدِ) (٢٤٦) . والمستأسِدُ : المجترىء .

١٢٦- ومن ذلك : (الجَرْزُونُ) بتقديم الجيم على الراء ، والراء على الزاي ، لقُضْبانِ الكَرْمِ . وإنّما هي الزَّرَجُون (٢٤٧) ، بتقديمِ الزاي على الراء ، والراء على الجيم ، كَحَلَزُون . فعن اللَّيْثِ (٢٤٨) أنّهُ قال : الزَّرَجُونُ ، بلُغَةِ أهْلِ الطائفِ والغَوْرِ : قُضْبانُ الكَرْمِ (٢٤٩) ، وأنْشَدَ (٢٥٠) :

بُدِّلوا من منابِتِ الشِّيحِ والإذْ خِرِ تيناً ويانِعاً زَرَجُونا

والزَّرَجُونُ أيضاً : الخَمْرُ ، فارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ . قالَ الجواليقيّ (٢٥١) : وأصْلُهُ زَرْكُون ، أي لَوْنُ الذَّهَبِ . انتهى كلامُهُ .

وتعضيدُ ما فُهِمَ منه من وَجْهِ التَّسْمِيَةِ ما يُفْهَمُ من قولِ الشاعِرِ(٢٥٢) في وَصْفِ الخَمْرِ :

كأنَّ صُغْرَى وكُبْرَى من فواقِعِها حصباءُ دُرٍّ على أرْضٍ من الذَّهَبِ

١٢٧- ومن ذلك : (المَخْدَعُ) بفتحِ الميمِ والدالِ ، للقَيْطُون . وعلى ما في القاموسِ هو للخزانةِ التي هي مكانُ الخَزْنِ ، كالمَخْزَنِ ، كَمَقْعَدٍ . وإنّما هو بضَمِّ الميمِ أو كَسْرِها مع فتحِ الدالِ ، على ما في القاموسِ(٢٥٣)

---

(٢٤٦) اللسان (لبد)
(٢٤٧) اللسان (زرجن) .
(٢٤٨) ينظر عن الليث : مراتب النحويين ٣١ ، البلغة في تاريخ أئمة اللغة ١٩٤ ، بغية الوعاة ٢٧٠/٢ . (٢٤٩) العين ٢٠٢/٦ .
(٢٥٠) بلا عزو في اللسان (زرجن) .
(٢٥١) المعرب ٢١٣ . (٢٥٢) أبو نواس ، ديوانه ٧٢ .
(٢٥٣) القاموس ١٧/٣ . وينظر : تثقيف اللسان ٢٦٠ ، المدخل الى تقويم اللسان ق١ ص ٧٧.

قال الجواليقيّ (٢٥٤) : وقَيْطون أعْجَميٌّ مُعَرَّبٌ ، وهو بَيْتٌ في جَوْفِ بَيْتٍ ، وهو المُخْدَعُ بالعَرَبية . انتهى .

١٢٨– ومن ذلك : (المارِسْتانُ) بكَسْرِ الراء . وإنّما هو بفَتْحِها . فارسيٌّ ، لم يجيء في الكلامِ القديمِ ، كما نَصَّ على ذلك الجَواليقيّ(٢٥٥)

١٢٩– ومن ذلك قولُ بعضِ الفقهاءِ وغيرهِم : (سواءٌ كانَ كذا أو كذا) . على ما في مغني اللبيب (٢٥٦) مِن أنّ الصوابَ العَطْفُ فيه بأَمْ .

١٣٠– ومن ذلك : (البدايَةُ) بالياء ، خلاف النهايةِ . على ما في مُغْرِبِ المُطَرِّزِيَ من أنّها عاميّةٌ ، وأنّ الصوابَ : البداءَةُ .

قالَ : وهي فِعالةٌ ، من بَدَأَ ، كالقِراءَة والكِلاءَةِ ، من قَرَأَ وكَلَأَ .

١٣١– ومن ذلك قولك : (عَلّمْتُهُ) بتشديدِ اللامِ : إذا جعَلْتَهُ ذا علامةٍ . والصوابُ أنْ يُقالَ : أعْلَمْتُهُ ، بالهمزة ، على ما في المُغْربِ (٢٥٨) من الاقتصارِ على حكايةِ قولِهِم : أعْلَمَ القَصَّارُ الثّوْبَ : (١٣٥ب) إذا جعَلَهُ ذا علامةٍ .

وحكى الجَوْهَرِيّ (٢٥٩) : أعْلَمَ القَصّارُ الثوبَ فهو مُعْلِمٌ ، والثوبُ مُعْلَمٌ . وأَعْلَمَ الفارسُ : جَعَلَ لنفسِهِ عَلامةَ الشُجعانِ [فهو مُعْلِمٌ] . مقتصراً على حكايةِ ذلك أيضاً .

وفي هذا المقام ، قد اتفقَ الأنامُ ، بعونِ اللهِ الملكِ العلاّم . والحمدُ للهِ وَحْدَه ، وصَلّى الله تعالى على سَيِّدِنا ونَبِيِّنا محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ .

---

(٢٥٤) المعرب ٣٢٠ . (٢٥٥) المعرب ٣٦٠ .

(٢٥٦) مغني اللبيب ٤٠ .

(٢٥٧) المغرب ١/٦٠ . وينظر : خير الكلام ٢٥ ، شفاء الغليل ٧٥ . وفي العباب ١/٥١ (بدأ) وقوله العامة : البداية ، لحن .

(٢٥٨) المغرب ٢/٨٠ . (٢٥٩) الصحاح (علم) ، والزيادة منه .

وافق الفراغ من تعليق هذا التأليف المبارك منقولاً من خطّ المؤلف شيخنا العلاّمة المحقّق نهارَ الثلاثاء رابع شهر ذي الحجة الحرام سنة سَبْعٍ وستين وتسعٍ مائة على يدِ كاتبه أضعف العباد أحمد بن محمد الشهير بابنِ المُلاّ الشافعيّ عفا اللهُ عنه وعن والديه والمسلمين أجمعين .



مجلـــة
المجمع العلمـي العراقي

أنشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

تصدر اربعة اجزاء في السنة

سعر النسخة دينار ونصف
وتضاف اليها اجرة البريـد

★ ★ ★

توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع

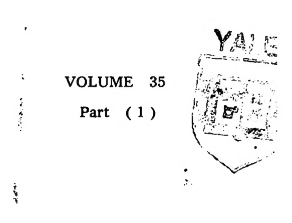
- **البحوث والمصطلحات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .**
- **البحوث والمقالات التي لا تنشر ، لا ترد الى اصحابها .**

(العنوان : بغداد / الوزيرية / ص.ب. ٤٠٢٣)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٨٤

مطبعة المجمع العلمي العراقي ٤٠٠٠ / ١٩٨٤

JOURNAL
of the
IRAQ ACADEMY



VOLUME 35

Part (1)

PUBLISHED BY

THE IRAQ ACADEMY

BAGHDAD

1 9 8 4



الفهرس

الصفحة